مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء

مغامرات مصري في مجاهل اليمن

الدكتور مصطفى الشكعة



دار العودة - بيروت



ثلاث وثائق عربيه عن ثورة ١٩٤٨

مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء

ثلاث وثائق عربيه عن ثورة ١٩٤٨

مغامرات مصري في مجاهل اليمن

الدكتور مصطفى الشكعه

الانقلاب الأخير في اليمن

راشد البراوي

تقرير عن اليمن

الفضيل الورتلاني

دار العودة - بيروت

الطبعة الأولى

١٩٨٥ م

يطلب من دار العوده - بيروت
تلفون ٣١٠٨٤٠ - ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥
تلكس AWDA 23682LE

مقدمة

بقلم الاستاذ احمد المروني

عندما استولى الإمام يحيى حميد الدين على مقاليد السلطة بعد انسحاب الجيش العثماني في سنة ١٩١٨ كان قد نشر بواسطة اتباعه ومؤيديه ، بأنه سيجعل من حكمه صورة مثلى لتنفيذ احكام الشريعة الإسلامية ، وبأنه سينشر العدل ، ويحمي الحقوق ، وينصر المظلوم ، وهكذا اعتقد الشعب اليمني الذي عانى من الحروب ما لم يعانه أي شعب من الشعوب في العالم ، بأنه سيسعد في ظل الحكم الإمامي ، وينسى متاعبه ، ويعوض حرمانه ، ولكن أمله خاب ، واعتقاده انهار وتلاشى ، إذ ما كادت السنوات الأولى من عهد الإمام يحيى تمضي ، حتى تكشف الحكم الإمامي عن خدعة كبرى ؛ وصار الحلم الجميل الذي داعب نفوس الناس كابوساً ثقيلاً ، وحقيقة مُرة ، فقد بدأ الإمام ينفذ سياسة التفرقة بين فئات الشعب ، ويعمق القطيعة والجفوة بين القبائل ، ويستولي على كل ما تصبو إليه نفسه من مال وعقار ، وبقي الناس إلى مطلع الثلاثينات من القرن العشرين يغالطون أنفسهم ، ويقولون في سرهم : إن الحكم لم يستقر بعد ، وإن مشاكل سياسية واقتصادية لا تزال تحول بين الإمام وبين تنفيذ وعوده ، حتى إذا حدثت الحرب بينه وبين الملك عبد العزيز آل سعود ، ظهر الإمام يحيى على حقيقته ، وبان بخله ولؤمه ، وتراجع أمام الجيش السعودي بشكل مخجل ، مما أثار حفيظة المفكرين ، وأوغر صدور المثقفين ، وأشعل غضب ضباط

الجيش وحقدهم ، ثم ارتكب غلطة بشعة عندما سلّم بعض معارضي المملكة السعودية من الأدارسة إلى خصومهم ، فأظهر لؤماً وضعفا وتخاذلاً . ومن هنا بدأت الشرارة الأولى للثورة تسري في النفوس والصدور ، وصار انصار الإمام يتحولون إلى اعداء ، لأنهم صدموا بتصرفاته الرعناء ، وسلوكه اللئيم ، وحرصه على تكديس اموال المسلمين في خزائن محصنة بلا هدف ولا غاية .

وقد حاول أن يغطي النقص والضعف في حكمه ، فأرسل بعثة لدراسة الطيران في ايطاليا عاد افرادها بعد سنتين ليواجهوا الموت حرقاً بطائرات ليس لها مستودعات للصيانة ، ولا معهد لمتابعة التدريب والتدريس ، ثم أرسل بعثة أخرى لتدرس الطب في ايطاليا ، وبقيت بضع سنين ليعود أفرادها انصاف متعلمين وليواجهوا الجوع والتشرد ، وكاد يقف عند هذا الحد من إرسال البعثات التعليمية ؛ لتشاؤمه ولاقتناعه بأنه لا فائدة من التعليم ، ولكنه رضخ مرة ثالثة عندما الح عليه ولده السيف عبد الله الذي قتله أخوه الإمام أحمد ، وجعله يرسل بعثة إلى العراق للدراسة في الكلية الحربية ، وعاد أفرادها بعد سنتين وقد تدربوا على الاسلحة الحديثة ، واستوعبوا الفنون الحربية ، والعلوم العسكرية ، فاصطدموا ببخل الإمام ولؤمه ، كما أنه تشاءم منهم وفرقهم في مناطق متباعدة في اليمن لكي لا يظلوا مثالاً للنظام ، ورمزاً للعلوم العسكرية الجديدة . ثم عرض عليه العراق إرسال بعثة عسكرية في مختلف الصنوف : فيها المدفعي ، وسلاح الإشارة ، والمشاة ، وعلى رأسها قائد مدرب ، وعسكري ذو خبرة واسعة ، وثقافة عالية ، وقبل العرض المجاني ، ووصلت البعثة مزودة بكل احتياجاتها ، ومعها تجهيزات لما يكفي لواء من بنادق ورشاش وملابس . وقد أذهلته المفاجأة ، ولكنه تربص بتلك البعثة ، وحرض من يضايقها ، وينغص عيشها ، ويعرقل أعمالها حتى استدعتها الحكومة العراقية بعد أن وجدت نفسها لا تستطيع أن تنفذ برنامجها لإصلاح الجيش في اليمن ، وقد تأخر من افراد تلك البعثة ضابط كبير هو النقيب جمال جميل الذي وقف نفسه للعمل من أجل تخريج جيش عصري يخدم اليمن والجزيرة العربية . . ولكنه واجه عنتاً ومقاومة ، فانضم إلى صفوف الأحرار الذين حاولوا

تغيير الأوضاع ، وإقامة حكم دستوري ، ينقل الشعب اليمني من عهد جاهلي متخلف إلى عصر النور والعلم ، وكانت ثورة سنة ١٩٤٨ التي أطاحت بالإمام يحيى ونظامه ، ولم تستمر الثورة اكثر من بضعة وعشرين يوماً ، إذ تآمرت عليها كل قوى الشر من داخل اليمن وخارجها ، فسقطت تلك الثورة ، وسقطت معها عشرات الرؤوس الكبيرة المفكرة ، وارتدت جيوش الظلام لتعيد اليمن إلى سجنه الكئيب ، ولكن المقاومة استمرت من قبل الأحرار واستمرت معها محاولة اقتلاع جذور أسرة حميد الدين حتى انتصر الشعب آخر الأمر بثورة السادس والعشرين من سبتمبر التي انهت عهداً من عهود الكهانة والدجل ، وأقامت نظاماً جمهورياً شورويا دستورياً عظيماً . . . ولأجل أن نبين ما عاناه الشعب اليمني من ظلم وقهر وقمع ، لا بد من الاستشهاد بأقوال وآثار من عملوا في اليمن وشاهدوا ما كان يقاسيه الشعب اليمني في الاربعينات من فقر وجهل ومرض . . لقد قال أحد أفراد البعثة العسكرية العراقية ونحن نودعه ، قال : لقد هان علي كل ما تحملته من عناء وعذاب اثناء عملي في اليمن ولكن الذي يحزّ في نفسي هو أنني عندما أروي للأهل والأقارب والمسئولين في العراق ما شاهدنا من ظلم ومهازل مضحكة مبكية فلن يصدقوني ، لأنهم سيظنون أنني أبالغ فيما سأحكي لهم . . والحقيقة أنه مهما حاول الكاتب أن يرسم صورة لحكم أسرة حميد الدين فإنه لن يستطيع أن يلمّ بالحقائق ، كما أنه يظل متهماً بأنه يبالغ فيما يرويه : لقد حكم الإمام يحيى وبعده ابنه أحمد حكما اليمن حكماً ظالماً لم يسبق أن حكم شعب من الشعوب مثله . وحسب القارىء أن يتصور عواصم اليمن وهي مسورة ذات ابواب تغلق منذ غروب الشمس إلى عند طلوعها ، كأنها سجون وعليها حراس غلاظ شداد ويكاد يجمع الذين زاروا اليمن أو عملوا فيها كخبراء واساتذة ، بأن ما شهدوه في عهد الإمامة الكئيب المتخلف ليس له مثيل في التاريخ ، ومن يقرأ الكتب التي ألفت عن اليمن اثناء الحكم الإمامي وتقارير المنظمات الدولية ، وما نشرته الصحف في ذلك العهد ، يجد أن هذا الذي قيل ويقال شاهد صريح على عمق المأساة ، وقسوة المحنة التي تحملها الشعب اليمني في عهد الإمامة المظلم .

وإننا لا نضيف جديداً حين نقدم ثلاث وثائق كتبها ثلاثة من الاشقاء العرب في الأربعينات . وهي تدين عهد أسرة حميد الدين إدانة صريحة لا تقبل الجدل ، والثلاثة الذين كتبوا تلك الوثائق أحدهم من الجزائر والآخران من مصر ، وقد شارك اثنان منهم في احداث سنة ١٩٤٨ أحدهما الاستاذ المرحوم الفضيل الورتلاني ، والآخر الاستاذ مصطفى الشكعة أحد اعضاء البعثة التعليمية المصرية إلى اليمن ، وكان الأخيران ينتميان إلى حركة الاخوان المسلمين بينما الثالث وهو الدكتور راشد البراوي كان ينتمي إلى الحركة الاشتراكية ، وإذا كان ما كتبه الاستاذ الفضيل الورتلاني ، والدكتور راشد البراوي قد سبق للقارىء اليمني والعربي أن اطلع عليهما ، فإن ما كتبه الاستاذ مصطفى الشكعة هو الشيء الجديد والمثير ، وهنا نود أن نشير إلى كيفية عثورنا على هذا الكتاب الذي لم ينشر في حينه ، والذي يشكل وثيقة خطيرة لما كان يعانيه الشعب اليمني من ظلم وقهر وإذلال في العهد الإمامي البغيض . فقد شكلت لجنة لجمع وثائق الدولة في قصر الإمام أحمد حميد الدين في تعز ، فكانت هذه الوثيقة مما عثرت عليها اللجنة ضمن وثائق كثيرة ، وكانت مرفقة بها رسالة من السفارة المتوكلية بالقاهرة في ذلك الحين إلى الإمام أحمد ، يظهر منها أن جهداً كبيراً قد بذل لمنع خروج الكتاب الذي نحن بصدده إلى أيدي الناس ، بالرغم من أن المؤلف حاول نشره باسم مستعار هو [ابن زيدون المصري] خشية أن يتعرض للأذى من قبل الحكومة المصرية التي كانت تتظاهر بالتعاطف مع الإمام أحمد مثلما تعاطف معه بعض أصحاب الحكم الذين كانوا يخشون ثورات شعوبهم . وسيجد القارىء في هذا الكتاب تفاصيل دقيقة عن طبيعة الحكم الإمامي وصوراً للفساد والانحلال ، وإن كنا لا نتفق مع المؤلف في بعض الإشارات إلى ما سمع عن حكايات الخلاعة والابتذال في قصور الإمام وسيوف الإسلام ، إذ كانت هنالك قضايا أهم مما أشار اليه . . . لا سيما السجون التي كانت مأوى المفكرين ، وتجهيل الشعب ، وافقاره بكل الوسائل . . ولقد عشت المأساة مع الاستاذ الشكعة ، وشاركته في صياغة البيانات الأولى لثورة سنة ١٩٤٨ . كما أسهمت في التدريس عندما كانت تدعو الحاجة إلى ذلك .

وإننا حين ننشر هذه الوثائق كما كتبها أصحابها ، فبغرض توضيح الأسباب التي أججت نار الثورة ، واشعلت السخط والغضب ومشاعر النقمة في نفوس ابناء اليمن ضد تلك الأوضاع الفاسدة ، والتصرفات الخليعة ، ومعاملة الحاكمين للشعب كأنه مملوك ومسخر لهم . فكان كلما حاول رجاله من أدباء وعلماء وشيوخ ومثقفين وضباط ، كلما حاولوا الخلاص من قبضة ذلك التنين الوحش ، وقعوا في قبضته ، وتعرضوا للاعدام ، والسجون والقمع ، حتى طفح الكيل ، ولم يعد في قوس الصبر منزع ، فاتحدت كل العناصر الوطنية وهبت كالاعصار تلتهم ما في طريقها من عوائق ، وهدمت ذلك السجن الرهيب وحاق بالذين ظلموا ما كانوا يصنعون .

وانتهت دولة الخرافة والدَّجل وجاءت حكومة الأحرار .

احمد حسين المروني
مركز الدراسات والبحوث اليمني
٩/ ١٠/ ١٩٧٤



مغامرات مصري في مجاهل اليمن

الدكتور مصطفى الشكعه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه فصول متناثرة عن رحلة طويلة قمت بها إلى بلاد اليمن وجست خلالها وتجولت في تهامتها وصحرائها ، وعشت في جبالها ووديانها ، وسكنت مدنها وقراها ، وخبرت حضرها وبدوها ، وعاشرت أخلاطاً منوعة من الناس ما بين ملك وأمير ووزير وخفير وحاكم وتاجر وحضري وبدوي ومتعلم وجاهل ، ودرست شمائل هؤلاء جميعهم وفضائلهم ورذائلهم ، وعاصرت أهم وأخطر وأحرج فترة في تاريخ تلك البلاد وهي الثورة اليمنية الشعبية في سنة ١٩٤٨ . وإن لي معك فيها حديثاً طويلاً يكشف عن جوهرها وفكرتها وأهدافها وما أحاط بها من أسرار لم يقدر لها أن تذاع حتى الآن ولماذا فشلت ؟ ومن الذين حاربوها داخل اليمن وخارجها ؟ ولأي سبب حوربت ومن هم أبطالها ؟ وكيف قبض عليهم وكيف عذبوا حتى مات بعضهم من التعذيب ثم أرسل إلى المقصلة البدائية ، لكي يفصل رأسه عن جسده بعد أن فارق الحياة من مدة ؟

وأما الأبطال الذين أرسلوا إلى المقصلة أحياء فكيف قابلوا الموت وما هي الحكم الخالدة التي نطقوا بها قبل أن يحتز الجلاد رؤوسهم ويدخلهم التاريخ من أوسع الأبواب وأكرمها .

وإني واضع أمام بصرك وبصيرتك حقائق مريعة عن الأوضاع في اليمن لا تظن أنها من الخيال لأنها حقيقة أغرب من الخيال ولا يكاد يصدقها إنسان

لما حوت من غرائب ولما اشتملت عليه من عجائب ، غرائب مضحكة وعجائب مبكية لا تملك أمام غرابتها إلا أن تنكرها ، وكم تمنيت على نفسي لو أنكرتها أنا الآخر ولكن ـ والأسى يملأ نفسي ـ أبسط أمامك كل هذه الحقائق لكي تضحك حيناً وتغرق في الضحك حيناً آخر وتأسى وتغرق في الأسى أحياناً أخرى ، ثم لتتسلى وتهون عن نفسك إن كان بك ضجر أو بنفسك سأم ثم لتهتز عواطفك ويثور الدم في عروقك ويصعد إلى مخك فيلهب وجدانك وضميرك وعاطفتك ووطنيتك فتثور ثورة إيجابية أو سلبية ؛ عملية أو علمية ؛ لكي تنافح عن أخيك في العروبة والدين والآمال والآلام وهو حبيس في قطر واسع معطل الامكانيات مهمل في زوايا النسيان إن أومأ ألهب السوط عطفيه ، وإن تكلم كان السجن مصيره الأبدي وإن تألم كان السيف المتثلم علاج رأسه ، يرى الأمراء يمرحون ويسكرون ويلقون بفضلات موائدهم إلى الكلاب وهو عاجز عن كسب لقمة كريمة من العيش ، الامكانيات الضخمة أمامه ، والخيرات تملأ أنحاء وطنه ، والدنيا مستعدة للإقبال عليه لما فطر عليه من وقدة ذكاء ، وسرعة بديهة ، وحسن تصرف ، وبراعة استعداد ، ولكن الحكم الغاشم الذي يتسم بالاستبداد المطلق والرجعية البغيضة وضيق الافق والإيغال في الظلم ، الأمر الذي يذكرنا بحكم « قرا قوش » وحماقات « الحاكم بأمر الله الفاطمي » اللذين رزئت بهما مصر ، وابتليت بشرورهما ، في فترة من فترات تاريخها ، كل ذلك وأكثر منه مما سنعرض له على صفحات هذه المغامرات قد عطل الشعب اليمني المظلوم الشقيق وحال بينه وبين ما يستهدفه من مجد وحياة وسؤدد .

أرشدك الله يا أخي إلى سبيل الخير وجنبك مكاره الزمان وكتب للشعب اليمني العظيم خلاصاً عاجلاً من محنته وكشفاً سريعاً من غمته إن الله يمهل ولا يهمل واسأله معي أن يأخذ بيده عما قريب حتى يحتل المكانة اللائقة به بين أشقائه من سكان الوطن العربي الزاحف الناهض الواعي والله متم نوره ولو كره الكافرون .

١

عَلَىٰ أَمواج البَحْر



نحن في ميناء السويس في اواخر ديسمبر والجو معتدل جميل وقد أخذت الشمس ترسل خيوطها الذهبية على أديم الخليج الذي تناثرت على صفحاته الحواري المنشآت كالاعلام مختلفة الأحجام في منظر ساحر أخّاذ وقد سفحت الشمس الآذنة بالمغيب دماءها القانية في أطراف الأفق القريب ، وها نحن أولاء نودع الوطن العزيز في رحلة لا ندري ماذا يصيبنا فيها من أحداث وكأنما كانت قلوبنا تستشعر ما سوف ينتظرنا من مغامرات أقرب إلى الخيال ومن أحداث تاريخية ضخمة تتعلق بالقطر الذي يممنا وجوهنا شطره .

بدت لنا في لجج الخليج البعيد باخرة ضخمة بيضاء قيل إن مياه الخليج القريبة من الشاطىء تعجز عن أن تتحملها لضخامة حجمها وثقل وزنها ، ولم تكن تلك الباخرة إلا المركب الذي سيقلنا في سفرنا الطويل المريع . ولم تمض برهة قصيرة على هذا التأمل حتى كنا نشق عباب الماء في زورق صغير إلى الباخرة ، فما كدنا نقترب منها حتى بدت لنا ضخامتها وعظمتها ، وبغير كثير من المشقة تسلقنا سلمها الجانبي حتى بلغنا قمتها وامتطينا صهوتها وكنا خمسة من الرجال يصطحب كل منا زوجته وأطفاله .

ومع مغيب الشمس بدأت الباخرة إقلاعها متجهة نحو الجنوب ، ورغم فخامتها وضخامتها أحسسنا بكثير من الوحشة التي بدت جلية على ملامحنا ،

ذلك لأن الباخرة كانت ناقلة جنود إنجليزية ، ولم يكن على متنها راكب مدني واحد ، فالكل جنود وضباط في طريقهم إلى المستعمرات في مصوع وعدن والهند وغيرها ، وحينئذ شعرنا أننا نعيش بين سفاكي الدماء وجلادي الشعوب ممن استباحوا خيرات بلادنا وسرقوا استقلال شعوبنا في سبيل إمبراطورية وشيكة الأفول .

اضطررنا أن نتصيد الاطمئنان وندخله على قلوبنا إدخالاً ، وبدأنا نتذوق ألوان الجمال المختلفة التي لا يحسها إلا من ركب البحر في سفر طويل ، فالباخرة رحبة واسعة فيها الكثير من أسباب اللهو والترف وألوان التسلية والمتعة من حوض للسباحة وقاعة للسينما وحجرة للموسيقى ، ومرت بنا الأيام والليالي وذات ليلة فوجئنا بمنظر فريد أخّاذ فلقد أخذت الباخرة زينتها كأنها العروس في ليلة الزفاف ، فلما سألنا عن السبب قيل إن الليلة هي عيد الكريسماس والانجليز شعب لا ينسى تقليده وأعياده حتى ولو كان في عرض البحر ، فكنا لا نكاد نختلف إلى ركن من أركان الباخرة حتى نجد كل إنسان مبتهجاً منطلقاً ، فهذا يعزف وذاك يرقص وثالث يغني وآخر يشرب وغيره يطرب وهكذا دواليك . وساعة العشاء اختلفنا إلى حجرة الطعام التي بدت في أكمل زينة وأجملها وقد علقت في جوانبها مصابيح الورق الملون وانتثرت في أرجائها الثريات الكهربائية ووضع أمام كل منا طرطور من الورق ذي الألوان المختلفة اضطررنا إلى ارتدائها مجاملة للمحتفلين بالعيد ، وما كاد الجمع ينتهي من تناول الطعام حتى وقف قبطان الباخرة وألقى كلمة بليغة هنأ فيها الحاضرين بالعيد ولم ينس أن يخصنا نحن المدنيين بكلمة رقيقة تقبلناها بالشكر والارتياح وقام واحد من جماعتنا فرد عليه بكلمة قصيرة رقيقة .

والبحر الأحمر من أعمق البحار لأنه ـ على حد قول الجغرافيين ـ أخدود عميق زحفت إليه المياه فملأته بمائها وحيواناتها ولذلك فهو من أغنى بحار العالم بالأسماك الكثيرة الأنواع خصوصاً المفترسة والمتوحشة منها التي تعيش في القاع ثم لا تلبث أن تخرج إلى أديم الماء بين الحين والحين ساعية وراء فريسة أو باحثة عن صيد سمين . ومن أكثر هذه الأسماك شراسة وفتكاً السمك

المعروف باسم « القرش » وهو مختلف الأحجام منه الكبير الذي يربو حجمه على حجم الثور ضخامة ويزيد طوله على الثلاثة أمتار . وهو عنيد كثير الظهور على صفحة الماء خصوصاً عند مرور البواخر ، فإنه يسابقها ، فكثيراً ما كنا نقضي ساعات طويلة مسلية على ظهر الباخرة في باكرة الصباح نشاهد مجموعات من هذا السمك ترفع رأسها وتشق صفحة الماء في سرعة فائقة ثم لا تلبث أن تختفي وبعد قليل تظهر مرة أخرى راسمة تشكيلات منظمة كأنها تلعب تمرينات الصباح . وفي كثير من الأحيان تقفز فوق سطح الماء إلى ارتفاع يزيد على بضعة أمتار .

* * *



الوصول إلى عدن

على أن رحلة البحر الأحمر من السويس إلى عدن لم تطل أكثر من ستة أيام لسرعة الباخرة وعدم وقوفها على المرافىء المختلفة على الشاطئين اللهم إلا في « بور سُودان » و « مُصوّع » لبضع ساعات في كل مرة ، ولم تكد تنتهي سحابة اليوم السادس حتى كنا قد أوشكنا على الخروج من بوغاز باب المندب الذي يتحكم في مدخل البحر الأحمر من الجنوب . وهذا البوغاز ذو شاطئين صخريين ولا يكاد يتجاوز عرضه أربعة كيلومترات بحيث ترى الشاطئين بوضوح تام بالعين المجردة . وما أن انتهينا من اجتيازه حتى أخذ البحر يتسع مرة أخرى فعرفنا أننا نضرب في مياه بحر العرب ومن ثم إلى خليج عدن .

غادرنا الباخرة في المساء في ميناء عدن التي لا تبعد عن المدينة بأكثر من كيلومترين فأحسسنا بحرارة الجو الشديدة رغم أن الوقت كان ليلاً وأننا كنا في فصل الشتاء ونزلنا في فندق لرجل هندي مسلم يعادل فنادق الدرجة الثالثة في القاهرة ، ومع ذلك فهو أفخم فنادق المدينة ، ولشدة الحرارة كان النوم لا يزور جفوننا إلا لماماً مع استمرار حركة المراوح الكهربائية الدائبة .

وأما مدينة عدن نفسها فهي محاطة بالجبال من كل ناحية ولا يمكن الدخول إليها إلا بواسطة نفق ضيق على شكل بوابة قد شق في وسط الصخور الصلبة ولذلك يقال إنها بنيت على فوهة بركان خمد منذ آلاف السنين . وسكان عدن لا يزيدون على خمسين ألف نفس من عرب وهنود ويهود . فأما العرب فهم سكان البلاد الأصليون وأما الهنود فهم وافدون عليها منذ أن كانت مستعمرة هندية ، وقبل أن تؤول الهند بمستعمراتها إلى الانجليز . وأما اليهود فهم الشوكة التي يجلبها المستعمر دائماً وراءه لكي تكون شجى في حلق الوطنيين تكشف أسرار حركاتهم الانتفاضية وتأكل أرزاقهم وتسلب خيراتهم .

ولقد زرنا الأحياء اليهودية وكان ذلك بعد ثورة العرب على اليهود بقليل وشاهدنا كيف فتك العرب الأمجاد بأذيال الاستعمار وكيف حطموا دورهم ومحالهم حتى أن الحي اليهودي ظل في حالة طوارىء وحراسة شديدة لمدة طويلة .

خرجت ذات أصيل أستروح بعض الهواء في ظاهر المدينة فلفت نظري بناء شاهق ظهرت عليه آثار البلى وقد بني في أعلى جبل مجدب شاهق ، تعجبت من أمر هذا البناء المتطاول في كبد السماء رغم تهدمه ويد الاهمال التي حلت به ولكن سرعان ما ذهبت دهشتي حين أخبرني محدثي أن هذا البناء هو منفى الزعماء الذين يشقون عصا الطاعة على الامبراطورية العجوز في أي صقع من أصقاع الأرض وكان ضمن نزلاء هذا السجن الزعيم المصري سعد زغلول فهاجت في النفس كوامن الشوق وألمت بها بوارح الشجن وفاضت بالوجدان أحاسيس مختلفة وراوحتني نسائم مصر الوطن الحبيب الذي لم يكد يمضي على فراقي لها أكثر من أسبوع ودهمتني موجة من الحنين وألحت عليّ حدة الشوق ولمست بنفسي ما يمكن أن يكابده المجاهدون حين يعيشون في مثل هذا البناء الذي لا أتصوره إلا أن يكون مأوى للأفاعي أو وكراً لكواسر الطير وضاريات السوائم .

* * *

الأحرار اليمنيون في عدن

لم يكد يحس بوجودنا الأحرار اليمنيون المنفيون إلى عدن نتيجة لبغي السلطات الحاكمة في اليمن مما أضطرهم إلى الفرار بأرواحهم من الظلم القاسي والطغيان الغاشم ، لم يكد يحس هؤلاء بوجودنا حتى جاءوا إلينا زرافات ووحداناً يزوروننا ويشرحون قضاياهم ضد المسئولين المستبدين في بلادهم وأعطونا صورة قاتمة عن البلاد التي سنتوجه إليها بعد قليل لكي نقضي فيها فترة من عمرنا فكدنا لسوء ما سمعنا أن نجمع شتاتنا ونعود مرة أخرى إلى مصر ، إلا أن ضمير الوعي القومي كان أكثر تأثيراً على أنفسنا فعرفنا أننا أصحاب رسالة نحو ذلك الشعب الشهيد المغلوب على أمره من حفنة طاغية وطغمة باطشة . ولما كانت مهمتنا هي التعليم فقد وجدنا في ذلك وسيلة لتنبيه الشعب، والشعب إذا تعلم دفعه علمه إلى رفض الظلم وأعلن الثورة على الظالمين .

والحق أن الأحرار اليمنيين في عدن كانوا كتلة من النشاط الذي لا يكل ولا يهدأ ، وكانت لهم جريدة ينافحون فيها عن مبادئهم وينشرون على الناس ما يلاقيه وطنهم من فساد حاكميه وترديهم في مهاوي الرذيلة واللصوصية ، وكان على رأس الأحرار شاب عظيم ينتمي إلى الأسرة الحاكمة في اليمن ، بل إنه أحد أبناء الإمام يحيى وكان إسمه سيف الاسلام ابراهيم . فلما ثار على أبيه وطالبه بمراعاة العدالة وإعطاء الشعب حقوقه ، جرده من لقب « سيف الاسلام » فأطلق عليه المجاهدون لقب « سيف الحق » وهو لقب جميل شريف كما ترى ، وظل يحمل هذا اللقب حتى لقي مصرعه بسيف[١] أخيه وشقيقه الامام احمد الملك الحالي لليمن كما لقي غيره مصارعهم من

---

(١) مات مسموماً في سجن حجة .

الأحرار الذين يبلغ عددهم المئات في أكبر مذبحة عرفتها دولة من الدول في عصرنا الحديث .

على أن مقامنا في عدن لم يطل ففي عصر اليوم الثالث جاءنا أمر من البوليس الأنجليزي يطلب منا الجلاء عن المدينة في مدة أقصاها ساعتان وإلا زج بنا وبزوجاتنا وبأطفالنا في السجن . ولما لم نكن قد جنينا ذنباً على الاطلاق فقد وقع هذا الأمر على رؤوسنا وقوع الصاعقة خصوصاً وأن مغادرتنا لعدن في مثل هذا الوقت من النهار ـ وكنا بعد الظهر ـ أمر شبه مستحيل ومحفوف بالاخطار والمكاره حيث ان بيننا وبين أول بلدة في اليمن أربع عشرة ساعة بالسيارة في طريق غير معروف المعالم مليء بالهظاب والوهاد والمستنقعات المليئة بالهوام.

حاولنا عبثاً أن نستفسر عن سبب هذا الطرد وأن نستعين بمندوب حكومة اليمن في عدن لتأجيل السفر إلى صباح الغد ولكن كل مجهوداتنا ضاعت أدراج الرياح ووقعنا في حيرة شديدة ، فقد ذكرت لك أننا غرباء في بلاد بعيدة ومعنا نساء وأطفال وبمجرد خروجنا من عدن سنكون في فيافي وقفار موحشة يتعرض مجتازها للدمار والأخطار خصوصاً إذا أرخى الليل علينا سدوله وأدركنا ظلامه .

وأخيراً عرفنا السر الكامن وراء إخراجنا من عدن ولم نكن في حاجة إلى كثير من التفكير ، فقد كان يكمن وراء كل المتاعب مندوب الحكومة اليمنية لدى حكومة عدن ، المكلف بالاشراف على راحتنا ، فقد أحس باتصال الأحرار بنا فأسرع ـ لكي يتخلص من هذا الوضع ـ واتصل بالحكومة الانجليزية في المدينة وأفهمها أن وجودنا بعدن خطر على الأمن العام لأننا نلهب مشاعر الوطنيين مما يهدد بقيام مظاهرات ضد الحكومة البريطانية وأن أحسن حل لهذه المخاطر هو الاسراع بطردنا من عدنوبذلك تخلص المندوب الذكي مما ظنه خطراً عليه وعلى سادته في اليمن فأوقعنا في سلسلة من المتاعب إن قدر لنا نحن الرجال أن نتحملها ، فلم يكن في مكنة السيدات والأطفال تحمل بعضها فضلاً عن كلها .

وما أن ضاقت بنا الحيل وانسدت أمامنا الطرق حتى أتى الله بالفرج القريب وكتب لنا الخلاص من سجن الانجليز وكيد المندوب اليمني المرافق لنا فقد علمنا أن على مسيرة ساعتين أو أكثر قليلاً من عدن توجد سلطنة صغيرة إسمها سلطنة لحج ويقطن بها بعض الأساتذة المصريين المنتدبين للتدريس في مدرستها ، فسارعنا إلى الاتصال بهم تليفونياً على غير معرفة سابقة وشرحنا لهم ما نحن فيه من محنة ومشقة وضيق فرحبوا بنا ترحيباً شديداً وطلبوا منا الإسراع في السفر إليهم فشددنا نحوهم الرحال ونحن في حالة يرثى لها من تحطيم الأعصاب ومتاعب النساء وبكاء الأطفال . ولقد أحس زملاؤنا حين وصلنا إليهم بما نحن فيه من ضنك وقرأوا ما على وجوهنا من ضنى وإرهاق فتلطفوا معنا وهيأوا لنا ليلة مصرية ضاحكة مرحة وخرجوا بنا إلى العراء في ضوء القمر البديع فشعرنا كأننا في قرية مصرية لقرب الشبه بين هذه السلطنة وبين قرانا في الوجه البحري وخاصة نبات الذرة الذي يحيط بها من كل جانب . ولقد كان لزوجاتنا نصيب من الترحيب في تلك الليلة فما أن علمت الاميرات كريمات السلطان بوجود سيداتنا حتى دعونهن إلى القصر وأكرمنهن إكراماًمشكوراً وأصبحن بعد فترة قصيرة كأنهن صديقات منذ زمن طويل .

وسلطنة لحج تتكون من عدة قرى صغيرة ولا يزيد سكانها على ثلاثين ألف نسمة وهم من عرب الجنوب ولهم زي عجيب نوعاً ما فأكثرهم يلبسون العمائم ذات الطراطير ويرتدون الإزار الملون الذي يشبه إلى حد بعيد زي العرب في العصور الوسطى . ويسيطر على السلطنة الحاكم الانجليزي ولذلك فهي فقيرة فقراً شديداً رغم محاولة بعض السلاطين الذين تولوا أمرها إخراجها من وهدتها ولكن لا يكاد سلطان ينطلق في إصلاحاته حتى يوعز الانجليز إلى أحد أقاربه فيقتله ويتولى مكانه تحت سمعهم وبصرهم .

* * *

مشارف اليمن

قضينا ليلة طيبة في لحج أنستنا بعض ما أصابنا من نصب سببه لنا المندوب اليمني الكريم بالاتفاق مع الانجليز . وفي الصباح ركبنا سيارات أو بالأحرى هياكل سيارات في الطريق إلى تعز عاصمة اليمن الشمالي وهي المدينة التي يقيم فيها الإمام أحمد حتى اليوم تاركاً صنعاء العاصمة الأصلية لخوفه من الإقامة فيها لأن بينه وبين أكثر أهلها ثأراً لكثرة ما قتل من أبنائهم . والطريق إلى تعز - إن صح أن يسمى طريقاً - وعر متعب حتى أن معالمه تضيع بين الحين والحين وكنا ندهش كيف يعرض السائق حياته وحياتنا معه للخطر الأكيد فتارة يعلو بنا إلى قمة جبل ثم لا يلبث أن ينحدر بنا إلى غور عميق ثم ينطلق بالسيارة عبر نهر صغير يعبر جسراً أو قنطرة ثم يدلف مخترقاً مستنقعاً كبيراً عريضاً غير معروف العمق ولا بأس من أن يخطىء فيجتاز مكاناً عميقاً فنصبح نحن وإياه من المغرقين ، وكثيراً ما ابتلت ملابسنا ابتلالاً كاملاً ثم كساها بعد ذلك غبار الوهاد فكنا كالأضحوكة لا يكاد يرانا أحد في الطريق حتى ينظر في دهشة إلى هؤلاء المجانين الذين لطخوا ملابسهم ووجوههم بالطين وهو لم يدر أننا إلى الخطر مسوقون وأن ما نحن فيه من تشويه لم يكن لنا فيه أي ذنب أو جريرة ولكنها رحلة اليمن السعيد .

وكنا نستقل - كما ذكرت - سيارتين مهلهلتين غير صالحتين للركوب كان السجن احب الينا من ركوبهما لما يحيق بنا من خطر بين الحين والحين في هذا الطريق المقفر الموحش . وصح ما توقعناه فقبيل العشاء بقليل وجدنا انفسنا محاطين بالنيران من كل جانب فقد اشتعلت السيارة لقدمها وكدنا أن نموت محترقين . ولكن الله انقذنا فقد ألهمنا أن نسرع ونقفز منها وهي لحسن الحظ لم يكن بها زجاج أو غطاء وتركناها خير غذاء للنيران وجلسنا من بعيد نترحم على اطلال سيارة كانت إلى عهد قريب تضمنا بين جوانحها ضم غير حان أو شفيق .

اضطررنا أن نغامر ونركب جميعنا السيارة الاخرى التي لم يكتب لها الحريق بعد وكنا كعلبة السردين وسارت بنا السيارة الهـوينا ونحن كالسكارى والاطفال كالاموات ومن كثرة الارهاق والتعب اصبحنا لا نشعر بشيء حتى تبلدت اعصابنا واصبحنا وحال كل واحد منا كحال المتنبي حين قال :

رماني الدهر بـالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

* * *

في تعز

كان المفروض أن نصل إلى تعز في ست أو سبع ساعات كما قيل لنا ولكننا وصلناها في اربع عشرة ساعة عجفاء مليئة بالمتاعب مفعمة بالمخاطر . لاحت لنا بعد تلك المدة الطويلة بعض الاضواء الحمراء الخافتة في حياء كأنها عيون الشياطين المريضة تنبعث من منخفض بعيد فلما سألنا عنها قيل لنا إن هذه هي « تعز » العاصمة الثانية لليمن حيث يحكمها حكما مستقلا الإمام أحمد إمام اليمن الحالي وكان إذ ذاك يطلق على نفسه لقب ولي العهد ولست ادري من أي شريعة زيدية رضي لنفسه هذه التسمية لأن نظام الحكم في اليمن ليس فيه ولاية عهد ، وإنما ينتخب الإمام أو بعبارة اخرى يبايع الإمام الجديد بعد وفاة الإمام القديم على نظام الشورى الاسلامي بشريطة أن يكون من نسل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأن يكون عالما بأمور دينه مستقيما حسن السيرة والخلق فاضلا ، وبالتالي فنظام الوراثة غير معروف في اليمن ولكن الإمام أحمد ضرب بذلك كله عرض الحائط متجاهلا اصول الشريعة الزيدية التي يعتنقها فاغتصب لنفسه لقب ولي العهد في ايام ابيه ثم اغتصب الإمامة بعد ذلك من الإمام الشرعي عبد الله بن الوزير الذي بايعه الناس بيعة شرعية بعد مقتل الإمام يحيى . والإمام الحالي بهذه المواقف صنع بالعقيدة الزيدية ما فعله معاوية بن ابي سفيان بالمذهب السني حين نقَل امارة المؤمنين إلى ملكية ثم جعلها وراثية في ابنه يزيد وهو ما فعله الإمام أحمد حين حصر ولاية العهد في ابنه محمد البدر مخالفا بذلك الشريعة التي فطر عليها والتي رسم منهاجها زيد بن علي وإن كان لنا في نسب الأسرة الحاكمة في اليمن رأي واضح صريح سنعلنه في مكانه من هذا الكتاب .

المهم أننا مكثنا في تعز عدة ايام قضيناها في بيت الضيافة ، وتعز قرية صغيرة لا يزيد سكانها على ثلاثة آلاف نسمة تقع في منخفض عميق بين

بعض شعاب التلال يحيط بها سور مرتفع نوعا شأنها في ذلك شأن اكثر مدن اليمن والحالة الصحية فيها مهملة تماما ويستوطنها مرض الملاريا الخبيثة التي اصابت اكثر المصريين الذين عاشوا فيها فترة من الزمن وقد عادوا إلى مصر ولا زالوا يقاسون العلة التي تتجدد عليهم بين الآونة والاخرى .

وللإمام أحمد بالقرب من هذه المدينة قصر فخم يسمى قصر صالة يقضي جل وقته فيه لا يكاد يغادره إلا في حراسة شديدة خوفاً على حياته من رعيته التي تبادله كراهية بكراهية لاستبداده وتصرفاته الشاذة المضحكة المبكية التي سنقص عليك طرفا منها في غير هذا الموضع من الكتاب .

قضينا في تعز بضعة ايام عجاف تحيط بنا العيون من كل جانب وترقبنا الجواسيس من كل ناحية يعدون علينا حركاتنا وسكناتنا بل وشهقاتنا وزفراتنا ثم قابلنا الإمام لكي نستأذن في السفر إلى الحديدة ومنها إلى صنعاء ، غير أن الإمام اراد أن يستبقينا للعمل في تعز إلا أن خوفنا من تقلبه ومن أمور اخرى سأذكرها في مكانها في هذا الكتاب جعلتنا نلح في السفر ونعتذر عن البقاء في خدمة عاصمته ، فغضب وقال لنا : السفر سيكون بعد ساعة وانطلق في غضب ظاهر ، إن شاء الله تبيتون الليلة في «حَيْس» . فلم تقع من نفسي كلمة « حيس » موقعا طيبا لأني فهمت المقصود فهما خاطئا وتذكرت المثل العربي المعروف «إلى حيث القت . . » ولكن ما لبثت أن تبينت موضع الخطأ حينما عرفت أن « حيس » هي بلدة صغيرة سنقضي فيها اول ليلة في سفرنا الشاق الطويل .

* * *

إلى حيث ...

سارت القافلة مجتازة السهل والوعر والوادي والجبل في مشقـة زائدة ثم منَّ الله علينا في الطريق بواد جميل ماؤه كثير وغدرانه متدفقة وأشجاره كثيفة وارفة وغاباته ظليلة يسكنها كثير من القردة التي كانت تتفرج علينا وكأنها تقول لنفسها من أين جاء هؤلاء الثقلاء الذين قطعوا علينا سبيل الراحة . أما هذا الوادي الرائع اليانع فاسمه وادي «رسيان» واضطررنا رغم أنف القـردة أن نفيء إلى ظلاله وأن نرتوي بمائه العذب البارد ولسان حالنا ينطق بقول الشاعرة الأندلسية حمدونة :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

استمتعنا بهذا الوادي الرطيب وادي رسيان بعض الوقت وقد ردت الروح إلى السيدات المتعبات والأطفال الذين برح بهم انهاك السفر ثم ظللنا نضـرب في مناكب الأرض الموحشة الخالية حتى وصلنا في اوائل الليل إلى « حيس » وكأنما قد صدق حدسي عندما لم استرح إلى سماعها فهي بلدة صغيرة عجفاء تقع على مشارف صحراء تهامة والحاكم فيها أو العامل كما يسمى في اليمن رجل اعرابي جلف بخيل ما أن سمع بنبأ وصولنا حتى ترك البلدة وولى هاربا فوجدنا انفسنا في شبه كارثة إن لم نكن في كارثة حقيقية فلا مكان للراحة أو المبيت وقد أخذ التعب منا كل مأخذ ولا طعام نتبلع له وقد أخذ الجوع منا كـل مأخذ غير أن السائقين المرافقين لنا كانا في منتهى الشهامة فكتبا على الفور

برقية إلى الإمام يشكوان فيها تصرف العامل الجلف . غير أن العامل الجلف لم يكد يسمع بأمر البرقية حتى سارع الينا وكأنما قد خرج علينا من تحت الارض وهيأ لنا امكنة للنوم على جانب كبير من الخشونة وذبح لنا كبشا عجوزا لم ينضج لحمه إلا في الهزيع الاخير من الليل ، وكانت بطوننا خاوية على عروشها تشكو إلى خالقها بخل العامل الهمام . واخيرا جيء لنا بالكبش العجيب فانقضضنا عليه انقضاض الصاعقة ولم نتركه إلا عظاما نظيفة ملساء ، كل ذلك والعامل البخيل مقتعد منا مكانا قريباً ينظر الينا من طرف عينيه مغتاظا حانقا كأنما يعد علينا كل لقمة نأكلها ثم اضطررنا تحت ثقل هذا العامل أن نغادر « حيس » وكانت خيوط الفجر تشق عمود الظلام وبدأت القافلة تقطع بيداء تهامة مستفتحة يومنا الثاني منذ تركنا تعز وانطلقنا في طريق رملي مقفر مغبر يتخلله بين مسافة واخرى بعض النخيل وبعض حقول الدخن (الذرة اليمني) حيث يوجد الماء في آبار عميقة جدا يستخرج منها الماء بطريقة موغلة في البدائية إذ يعلق الدلو على دولاب مثبت على فوهة البئر وقد ثبت الدلو في حبل طويل يجره حمار أو جمل يسير في اتجاه مستقيم لمسافة قد تزيد على خمسين مترا حتى يخرج الدلو من البئر لكي يفرغ في قناة صغيرة ثم يلقى بالدلو مرة اخرى في البئر ويعود الحمار إلى جره وهكذا دواليك حتى يتم ري الارض المراد سقياها أو حتى تنفد مياه البئر .

وأما الاهالي في هذه المنطقة فهم عراة إلا مما يستر العورة وقد وضعوا على رؤوسهم طراطير من الخوص يتقون بها ضربة الشمس الشديدة مما يجعل منظرهم يدعو إلى الضحك والإشفاق معا . وكثيرا ما كانت تصادفنا في هذا الطريق اسراب من الغزلان تعدو أمامنا في خفة ورشاقة وسرعة مدهشة ثم لا تلبث أن تختفي بين حنايا القفار المترامية الأطراف .

* * *

في زبيد ...

وقبيل الظهر وكان يوم جمعة وصلنا إلى مدينة تسمى زبيد وهي مدينة مشهورة في التاريخ فإليها ينتسب مرتضى الزبيدي صاحب « تاج العروس في شرح القاموس» والذي كان أستاذاً لعبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المصري المشهور الذي عاش في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلادي . وفيها عاش الفيروزبادي اللغوي المشهور وصاحب « القاموس المحيط » وتولى بها القضاء وزوج احدى بناته من سلطانها وفيها دفن . وزبيد بعد ذلك كله كانت عاصمة كبيرة في عهد الرسوليين في القرن السابع الهجري وكان بها جامعة كبرى نشرت العلوم والمعرفة وتركت آثارا مجيدة من العلم والنور والعرفان .

وصلت زبيد وفي ذهني تلك الصورة المشرقة عنها من حنايا التاريخ ، ولكني وجدتها مدينة فقيرة حقيرة قد ضربت عليها الذلة والمسكنة ولم تبد عليها اية مسحة من الماضي العريق النفيس فقلت في نفسي سبحان من يُغير ولا يتغير .

استقبلنا عامل زبيد بعكس ما استقبلنا به سلفه في حَيس فقد فرح الرجل بنا فرحا شديداً ومما لفت انظارنا أنه كان يرتدي فوق رأسه عمامة خضراء حتى حسبناه أحد مشايخ الطرق الصوفية ثم ما لبث أن قال لنا « تشتهوا حبحب » ؟ ولما كنا لا ندري ما هو الحبحب ولما كنا في نفس الوقت قد عقدنا العزم على أن لا نرفض أي شيء يقدم إلينا بعد أن اذاقنا العامل السابق مرارة الجوع والعطش والحرمان فقد أومأنا اليه بالموافقة ولشد ما كانت دهشتنا حينما قدم لنا بطيخا جميلا أصفر اللون طيب المنظر حلو المذاق وكنا في اوائل يناير غير أننا ما لبثنا أن تنبهنا إلى أننا في المنطقة الحارة وإذن فليس بمستغرب أن يقدم لنا هذا البطيخ اللذيذ في مثل هذا الشهر من شهور الشتاء الباردة في مصر الحارة في صحراء تهامة .

وبعد قليل حل موعد صلاة الجمعة وإذ بالعامل يعرض علينا أن نصحبه إلى المسجد للصلاة فوافقنا مضطرين رغم تعبنا الشديد ورغم أنه « لا جمعة لمسافر » كما هو وارد في الشرع الحنيف . غير أننا دهشنا حينما ركبنا السيارات فوجدنا أنفسنا في شبه « زفة » فالعامل راكب بيننا قرير العين شامخ الرأس منتفخ الأوداج وكأنه اراد أن يستغل وجود السيارات معنا لكي يمتع نفسه بهذه الفرصة النادرة فتقدمتنا موسيقى وطبول وسار خلفنا بعض جنود الجيش حفاة عراة وتجمع الناس على جانبي الطريق يهللون ويكبرون لهذا المنظر الفريد بالنسبة اليهم ، حتى إذا ما وصلنا المسجد كان جميع المصلين واقفين بالباب مرحبين بنا وهم يقبلون اطراف ثيابنا وأيدينا كأنما يتبركون باولياء الله الصالحين . ثم قضيت الصلاة وكانت العودة من المسجد لا تقل شأنا و «بهجة» عن الذهاب اليه حتى انتهينا إلى منزل العامل الفاضل لكي يغمرنا بكرمه الوفير وكأنما اراد الله أن يعوضنا خيرا عن معاملة العامل الجلف البخيل في الليلة السابقة في « حيس » .

في بيت الفقيه

تركنا زبيد بعد العصر مشيعين بالاحترام مودعين بالتكريم لنبدأ قطعة أخرى من العذاب في هذه الصحراء القاحلة الموحشة القاسية الحرارة المريرة الرمضاء وظللنا نضرب في فيافيها حتى ادركنا الإعياء غير أن عناية الله كانت تحيطنا فبعد لأي ونضب لاح امام ابصارنا في الافق البعيد شبح قرية قررنا أن يكون المبيت فيها مهما كلفنا الأمر حتى ولو كان عاملها اشد بخلا واكثر لؤما من عامل « حَيْس » . ولم تكن هذه القرية إلا « بيت الفقيه » وهذا هو اسمها أو « بيت الفجيه » كما ينطقها اليمنيون . وسألنا عن العامل ونحن نتوجس خيفة خشية أن يكون من معدن عامل « حيس » وما كدنا ندخل بيته حتى طلع علينا رجل وقور وقد تعمم على طرطور فبدأ الضحك يغالبنا وزاد خوفنا وترقبنا لأمسية خشنة عجفاء ، وكان بعض مرافقينا ممن لا يتحكمون في اعصابهم ، فبدأوا كلما نظروا إلى الشيخ ذي الطرطور انطلقوا ضاحكين ناسين متاعب السفر ووعثائه فكنت أقول لنفسي معزيا الحمد لله الذي شغل هؤلاء المتعبين بما جعل ثغورهم تفتر عن الابتسام في وقت لا يشجع على مجرد الطمأنينة على انفسنا وارواحنا .

حدث كل ذلك في لحظات ثم فوجئنا مفاجأة عجيبة عقدت ألسنتنا ، ذلك أن هذا العامل ذا الطرطور احسن استقبالنا بلهجة مصرية صميمة مع بشاشة ولطف فلم يداخلنا شك في أنه مصري فبدأنا نمطره بالاسئلة الكثيرة ، السؤال تلو السؤال وكنا لا ننتظر الإجابة . سألناه متى جئت إلى هنا ؟ وأي حظ عاثر ذلك الذي رمى بك إلى هذه البلاد ؟ وكيف يمكنك أن تعيش في هذه البلاد المقفرة وكيف تترك مصر أم الدنيا. . . على حد تعبير ابناء البلد. ولكن الدهشة علت قسمات وجه الرجل وقال لنا : اي بلاد مقفرة تقصدون . إنني يمني لحما ودما وحسبا ونسبا وقصَّ علينا أنه طلب العلم في الازهر وعاش في مصر ستة عشر عاما وانما كان حديثه باللهجة المصرية من باب

المجاملة والتكريم ، وقضى معنا سهرة جميلة ممتعة حدثنا فيها عن ذكرياته في الأزهر وسيدنا الحسين والبطلية وباب الفتوح وكيف أنه يحمل للمصريين في جوانحه اجمل الذكريات مما اهاج شجوننا وحرك لواعج الحنين في قلوبنا فبكى بعضنا عند سماع ذكريات وطنه وهو عنه بعيد في بلاد موحشة لا عهد له بمثلها ولا يعلم ما يخبئه له القدر فيها من متاعب تشيب لهولها الولدان .

والحق أن هذا العامل الكريم اكرم وفادتنا وأجمل الترحيب بنا واسمه إن لم تخني الذاكرة عبد الله بن زيد الديلمي ، كما أن زوجته اكرمت زوجاتنا اكراماً عظيماً ولما اوغل الليل في دجاه ،لعب الكرى بأجفاننا ، فنمنا ليلة هادئة مريحة بعض الشيء .

* * *

إلى الحديدة

في صبيحة اليوم التالي بدأنا نستأنف السفر إلى الحديدة وكانت المسافة الباقية من الطريق هي افظع وأخطر منطقة في صحراء تهامة لأنها مليئة ببحار الرمال الناعمة التي يغوص فيها الانسان والحيوان والسيارات حتى منتصف القامة . وقد مررنا بهذه التجربة القاسية الفريدة إذ غرقت احدى سياراتنا في بحر من هذه البحار الرملية وظللنا اكثر من ساعتين نكافح في سبيل اخراجها بمختلف الوسائل التي يجيدها سكان هذه الصحراء القليلون .

وصلنا « الحديدة » عند الظهر بعد تعب وإعياء ونزلنا في بيت الضيافة الذي يقع على شاطىء البحر الأحمر . وقدر لزملائي أن يواصلوا سفرهم إلى صنعاء بعد يومين اما أنا فقد طلب اليّ البقاء في الحديدة يومين آخرين ريثما تهيأ لي سيارة أواصل بها سفري ، غير أن اليومين امتدت سحابتهما إلى اكثر من اربعين يوما قضيتها في سأم وملل ومرض وضجر .

ظللت أمني النفس بوصول السيارة التي تنقلني إلى صنعاء وأتوسل إلى القوم حتى أفر من جو الحديدة الخانق القاتل ، ولكن لا سميع ولا مجيب ، وبعد اسبوع تقريبا اصابتني حمى شديدة ارتفعت معها حرارتي حتى غبت عن الوجود واخذت أهذي في غيبوبتي بألفاظ غير مفهومة ، فإذا ما عاودتني اليقظة نظرت فوجدت زوجتي المسكينة قابعة فوق رأسي تبكي بدموع لا تنقطع .

واخيرا تنبه القوم بعد طول تثاؤب إلى الضيف الغريب المريض فأرسلوا في طلب الطبيب الوحيد بالبلدة وهو ايطالي الجنسية يجيد العربية والانجليزية واسمه الدكتور ميروتشي ، وما أن دخل الحجرة وفحصني حتى ابتدرني قائلا : لا تخف يا صديقي إنها حمى الدنج المستوطنة هنا وهي ضريبة على كل قادم إلى الحديدة وتعهدني الطبيب الايطالي حتى تماثلت للشفاء ونشأت بيننا صداقة ساعد على توطدها طول الاقامة في المدينة .

والحديدة بلدة صغيرة على شاطىء البحر الاحمر وهي عاصمة لواء تهامة وليس بها ميناء لرسو البواخر ولا تقف أمـامهـا إلا بعض الزوارق التجارية الخفيفة الحمولة التي تنقل البن إلى بعض مرافىء البحر الاحمر . غير أنه على بعد عشرة كيلومترات نحو الشمال منها يوجد خليج عميق فسيح يسمى الكثيب يصلح لأن يكون مرفأ عظيما نظرا لعمقه وهدوء مائه ولا يحتاج لكي يصبح مرفأ عظيما إلا إلى بعض التحسينات ولكن القوم هناك يغطون في نوم عميق ولا تعرف الإصـلاحـات اليهم سبيلا . وفي هذا الخليج غرق سيف الاسلام محمدابن الإمـام يحيى سنة ١٩٣٠ حينما كان يحاول انقاذ أحد أصدقائه من الغرق . وكان شابا ممتازا مصلحا ولو قدر له أن يعيش لتغيرت الأوضاع في اليمن . وقد رثاه شوقي شاعر العروبة الاعظم في عصرنا الحديث بقصيدة مطلعها :

مضى الدهر بابن إمام اليمن وغيّب زين شباب الزمن
وباتت بصنعاء تبكي السيـوف عليه وتبكي القنا في عدن

والحديدة رغم ذلك بلدة تجارية فيها فروع لبعض الشركات التي تصدر خيرات اليمن مثل البن والزبيب والطباق وبها كثير من الاسواق والمقاهي على غير عادة المدن اليمنية الأخرى التي يندر أن تجد فيها مقهى أو مطعما أو فندقا ولقد حاول أحد الأجانب انشاء دار للسينما بالمدينة ، غير أنه لم يوفق ، ولذلك قصة طريفة مسلية مضحكة سنذكرها في مكانها من هذا الكتاب .

وتعتبر الحديدة مشتى نظرا لاعتدال جوها نسبيا في فصل الشتاء حيث يفر اليها بعض القادرين من الحكام في صنعاء التي يكون جوها في فصل الشتاء اقرب إلى الزمهرير إن لم يكن الزمهرير بعينه .

والحديدة ليس بها ماء صالح للشرب على الإطلاق فماؤها ملح اجاج نظرا لوقوعها على شاطىء البحر وانعدام الأنهار حولها ، ولذلك يـؤتى اليها بالماء من جزيرة كران التي تبعد عنها يومين بالمراكب الشراعية أو من بيت الفقيه القريبة التي مر ذكرها وتباع الصفيحة من الماء العذب بريال يمني .

والحياة في الحديدة رخيصة جدا ولكن الاهالي لا يشعرون بهذا الرخص نظرا للفقر المدقع الذي يعيشون فيه فالأسماك كثيرة جدا والفواكه كثيرة اهمها المانجو والقشطة والموز الضخم الثمار .

ومن اهم ما يستلفت النظر في الحديدة مقام الشيخ صديق وهو ولي من اولياء الله الصالحين يحتفل بمولده كل عام احتفالا كبيرا حيث يحج إلى قبره الكثيرون للتبرك والزيارة. ومن الطريف أني علمت أن الشيخ صديق هذا هو الجد الرابع للسيد محمد صادق المجددي سفير افغانستان السابق في مصر . ولقد قص عَليّ سيادته الكثير من كرامات جده الشيخ ، وللشيخ قصة طريفة تتلخص في أنه خرج من أفغانستان منذ مائة سنة ونيف في طريقه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج فلما وصلت المركب إلى الحديدة وكانت مركبا شراعية استراح الشيخ وتلاميذه يومين . وفي أثناء ذلك ألقى بعض دروسه ونظر إلى مريديه وقال لهم : سيكون قبري هنا في الحديدة فدهش التلاميذ والمريدون ثم ركبوا جميعا البحر في معية شيخهم الكبير . وبعد مسيرة يومين على الماء اسلم الشيخ روحه إلى بارئها فحدثت مشادة بين البحارة والمريدين الأولون يريدون إلقاء الجثة في البحر والآخرون يريدون أن يرجعوا بالمركب إلى الحديدة لدفن الشيخ هناك حسب وصيته وبينما هم كذلك وإذا بريح شديدة عاتية تهب عليهم من جهة الشمال وتدفع المركب رغم انف البحارة إلى الجنوب في طريق الحديدة فوصلوها في يوم واحد ودفن الشيخ بها وبني له فيها مقام كبير .

أرغمت على المقام في الحديدة مدة طويلة حتى ظننت القوم قد نسوني فليس لي من عمل اقوم به إلا أن يأتيني الجندي بالبغلة صباحا اركبها قليلا أتريض بها على الشاطىء وأجوس بها خلال البلدة ثم اعود إلى بيت الضيافة عند الظهر وتتكرر نفس المسألة بعد العصر حتى سئمت نفسي المقام في اليمن جميعه .

وقد لاحظت أن اكثر بيوت الحديدة مقامة من القش بحيث إذا اشتعل عود كبريت في واحد منها أتى على بقية البيوت في لمح البصر فيتشرد الناس

ويعيشون بلا مأوى وقد حدث اكثر من حريق في هذه البيوت اصاب اهلها بالفواجع ومع ذلك فلم تحاول الحكومة بناء بيوتهم بالحجارة شأن بقية بيوت خلق الله والناس هناك من الفقر بحيث لا يستطيعون أن يرتفعوا من وهدة الفاقة والفقر والحرمان .

زاد بـي السأم والسقم وانا في الحديدة وكلما طلبت من القوم عملا اجابوني بأنه لا داعي للقلق طالما أني اقبض مرتبي آخر الشهر فأعلنت راية العصيان وطلبت منهم في حزم اما أن أسافر إلى صنعاء وإما أن اعود إلى وطني مصر وقد تصادف أن وصل إلى الحديدة في ذلك الوقت اثنان من كبار المصريين شرحت لهما ما اقاسيه من سجن فبذلا مساعيهما بالإضافة إلى عصياني مما سهل لي مهمة السفر إلى صنعاء .

* * *

لا بد من صنعا ... وإن طال السفر

غادرنا الحديدة بعد ظهر احد الايام وكانت القافلة مجهزة بالماء والطعام حيث لا طعام في الطريق الشاق الطويل والماء ملوث بالامراض الخبيثة المتنوعة على طول الطريق وكنا قد تلقينا الارشادات من العالمين ببواطن الامور أو بعبارة اخرى العالمين باسرار الطريق أن نقضي الليلة الاولى في بلدة يقال لها البَحيح عند شيخة عرب يقال لها « سلمى » والليلة الثانية في بلدة يقال لها مَعْبَر . وبدأنا نقطع صحراء تهامة مرة اخرى في وقدة الحر ولافح القيظ وما لبثنا بعد ساعة واحدة أن ضربت عجلة إحدى السيارات فاضطررنا إلى الانتظار في لفحة الشمس حيث لا ظل نفيء اليه ولا شجر نحتمي به ولا بناء نتوارى فيه ، وبعد ساعة أو اكثر أصلح ما فسد واستأنفنا السير المرهق حتى ارخى الليل سدوله وهاجمتنا جيوش الظلام ونحن نستحث الخطى في الطريق إلى سلمى . ثم أهل القمر علينا فاستبشرنا وتفاءلنا خيرا ، وكان قمر ربيع الاول وبعد التاسعة مساء وجدنا انفسنا امام كوخ صغير قد انشىء من الغاب والقش فسألنا امرأة كانت على بابه : كم بيننا وبين البحيح يا ست ؟ فأجابت ها أنتم بالبحيح . قلنا : وأين شيخة العرب سلمى قالت : انا سلمى . قلنا : هل عندك مكان للمبيت قالت : مرحبا وما أن دخلنا الكوخ حتى خيل الينا أن جميع هموم الأرض قد عششت في جنباته وليس فيه سوى سرير واحد من الجريد قد فرش ببعض أعواد الذرة فانسحبنا خارجين شاكرين لها حسن استقبالها لنا وفي الوقت نفسه شعرنا وكأنه قد نزل علينا نكد وبلاء فكيف نقضي ليلتنا في هذه البقعة الموحشة المقفرة . سامح الله من أشار علينا بسلمى والبحيح .

ولما كان الجوع قد أخذ من بطوننا مأخذه لم نجد بدا من أن نفترش الأرض لنتزود ببعض الطعام وكان القمر قد ارتفع قليلا إلى عنان السماء وارسلت اشعته الفضية على الوهاد لونا من الوحشة ممزوجا بشيء من

الإيناس . ولم يكن امامنا بد من أن نستريح قليلا بعد الاكل فأخذ كل منا يقص على الآخر نكتة طريفة أو ملحة ظريفة كما كنا نتسلى بجمع الحنظل الذي يكسو ارض هذه المنطقة بوفرة يحسبه العرب بطيخا صغيرا . ثم ما لبثنا أن استأنفنا السير من جديد علنا نعثر على مكان ننام فيه ومكثنا هكذا نجد في السير ونستحث الخطى حتى انتصف الليل وليس في الطريق انسي يرشدنا ولا جني يهدينا وكان الإعياء الشديد قد أدركنا فاضطررنا للكف عن المسير فقد خشينا أن نضل الطريق خاصة وأنه غير محدد المعالم . غير أننا ما لبثنا حين داعب النوم جفوننا أن سمعنا عواء الذئاب واصوات قريبة جدا تشبه فحيح الافاعي ولم يكن معنا ما ندفع به الأذى فاضطررنا إلى العودة داخل السيارات مرغمين دون أن يهجع لنا جفن أو يخطر الكرى لواحد منا على بال فضلا عما نحن فيه من فزع ورعب وخوف يضاعفه وحشة المكان وعواء الذئاب حتى أن حفيف ثوب أحدنا بثوب جاره كان خليقا بأن يبعث في الجميع الرعب والفزع والخوف والوجل .

واخيرا قررنا المسير مهما تكن النتيجة رغم شدة الإعياء لعلنا نجتاز تلك المفازة الموحشة وكان ضوء السيارة يجذب الينا أنواعا مختلفة من الحيوانات مثل الدجاج البري الكبير الأحجام الذي يعدو أمامنا بشكل يجعله سهل الاصطياد ولكن من ذا الذي يجرؤ على اصطياده ، إن الذي يحاول ذلك مضطر للنزول من السيارة وإذا فعل ذلك فهو غير آمن على نفسه فربما اختطفه وحش أو هاجمه ذئب وإذن فيكفينا التسلي بتلك المناظر التي تلوح لنا امام مصابيح السيارة إن جاز أن تسمى تسلية .

سارت الامور على هذا المنوال وكان الليل لا يتحرك ثم بدأت خيوط الصباح وسيوفه اللوامع تسلط نصالها على فلول الظلام الهاربة وبدأنا نلمس الحياة بأعيننا من جديد . حاولنا أن نغسل وجوهنا بقليل من الماء الذي نحمله حتى نسترد بعض نشاطنا إلا أن السائق طلب الينا ألا نفعل توفيرا للماء النقي لأنه بعد مسيرة نصف ساعة سنصل إلى قاع الوادي حيث يجري نهر عذب سلسال يمكن الاستعانة بمائه وظننا أن النهر كالبحر الأعمى مثلا في القاهرة أو

على الأقل كترعة من ترع الريف المصري ولكن تبين في ما بعد أنه عبارة عن قليل من الماء يجري في قاع جدول ضيق صغير والكمية التي تجري فيه لا تكاد تزيد على ما يقذف به صنبور ماء صغير . على أننا انتفعنا بمائه وغسلنا وجوهنا بل وشربنا منه فقد كان ماؤه على قلته عذبا مثلجا وانتهزنا الفرصة وجلسنا على ربوة قريبة وتناولنا فطورنا وكانت الشمس قد بدأت ترسل إلى الكون اشعتها الذهبية وخيوطها الوهاجة فتبعث في الكون الاستقرار والدفء وتبعث فينا الطمأنينة والحياة .

وهكذا بدأ اليوم الثاني وقد لقينا من سابقه في سفرنا هذا نصبا . ولم يكن الثاني اقل من سابقه خطورة ، بل كان أشد فظاظة وفظاعة ، فامامنا ثلاثة جبال ضخمة يعلو كل منها قمة الآخر بحوالى الالف متر وهكذا بدأ السائق (أو الموترجي كما يسمى هناك) ينبهنا إلى أن نستجمع اطراف شجاعتنا وأن نسيطر على اعصابنا وأن نكتم انفاسنا وبدأت السيارة تتسلق الجبل في طريق ضيق وعر وهي ترتفع بنا شيئا فشيئا حتى وجدنا انفسنا على ارتفاع شاهق والطريق ضيق غير ممهد وعن يميننا الجبل وعن يسارنا واد سحيق يسمى وادي الموت وليس بين عجلة السيارة وحافة الوادي إلا سنتيمترات قليلة وأي خطأ صغير من السائق جدير بأن يودي بنا جميعا إلى موارد التلف والهلاك في ابشع ميتة يعرفها انسان ، وكثير من السائقين والركاب قد لاقوا مصارعهم في هذا الطريق وخاصة في المنحنيات الكثيرة التي تعرف بأسماء الشهداء الذين راحوا ضحية اهمال الحكومة في تمهيد مثل هذه الطرق الرئيسية التي تربط عاصمة البلاد بثاني مدن اليمن اهمية .

كتمنا انفاسنا وسيطرنا على اعصابنا حيث لا سبيل إلى مثل هذه السيطرة ولكن كل ذلك كان يذوب ويتبخر حينما تقف السيارة فجأة وتبدأ في الانحدار إلى الخلف متخذة طريقها إلى الوادي السحيق والسائق يتعلق بالفرامل فلا تسعفه وفجأة يقفز الغلام المتعلق بمؤخرة السيارة لكي يؤدي مهمة الفرملة التي عجزت عن اداء مهمتها فيضع حجرا ضخما يختطفه من الطريق خلف العجلات لكي يوقفها وينقذ السيارة بمن فيها من هلاك محقق ويحول بيننا

وبين السقوط في هاوية الوادي السحيق .

ما كاد ينتهي صعود الجبل الاول وما كدنا نساح قليلا على قمته المنبسطة حتى بدأنا نتسلق الجبل الثاني وهو اكثر خطورة وافظع وعورة ويطلقون عليه هناك « نقيل المصنعة » وكل من تكتب له النجاة من هذا النقيل يعتبر مولودا من جديد لأنه اكثر من مخيف واكثر من مرعب وكان ذلك يبدو جليا على قسمات السائق وحركاته العصبية التي تنذر بأنه يؤدي امتحانا عصيبا إذ لو سها عن العجلة طرفة عين لأصبحنا وإياه في عالم الخلود . واما بالنسبة لنا نحن الراكبين فلم يكن الأمر يخلو امامنا من بعض الغرابة حينما كنا نسلي انفسنا بمنظر الطيور الغريبة التي تحلق فوقنا ومن حولنا خصوصا النسور الضخمة الكاسرة التي كانت تحيط بنا في تحرش مخيف وكأنما تريد أن تنقض علينا رغم احتمائنا داخل السيارات .

* * *

القرود تقذفنا بالحجارة

وفي بعض منبسطات هذا الطريق تنمو بعض الغابات التي تعيش القردة على غصون اشجارها طليقة مسرورة لا يعكر صفو حياتها انسان . ومن اعجب ما شاهدنا في هذا الطريق قافلة كبيرة العدد من القردة يسير امامها قرد عظيم الحجم كأنه قائد جيش ميمماً وجهه شطر معركة حربية وكان مسير القافلة العجيبة غير بعيد عنا بأكثر من امتار فنظر الينا كبير القردة نظرة كلها انفة وكبرياء بالنسبة له وكلها احتقار وازدراء بالنسبة لنا فراق لنا أن نداعب هذه القافلة على الطريقة التي نداعب بها القردة فألقينا عليها بعض الحصى وإذا بشملها يتفرق وتولي الإدبار واختفت وراء اكمة كثيفة .

لم نعر الامر بعد ذلك اي اعتبار وانطلقنا في طريقنا لا نلوي على شيء وربما قد نسينا القرود والزعيم والحصى الذي ألقيناه ، وبينما نحن مطمئنون وإذا بوابل من الحصى والحجارة ينهال علينا من كل جانب وكأنما تفتحت علينا ابواب السماء وانتفضت تحتنا شياطين الارض تقذف الحصى والحجارة من مختلف الاكوام والاحجام وأخذ صوتها يصطك مع هياكل سياراتنا وإذا بنا وكأننا في معركة حربية حقيقية نسمع اصوات الحصى وكأنها اشتجار القنا واصطراع الرماح وعناق السيوف وكأنما ارادت القردة أن تسترد كرامتها بتأديبنا على طريقتها التقليدية المعروفة ولم يكن امامنا بد من أن نسرع بالفرار ونولي الإدبار امام القردة الغاضبة الهائجة فحثثنا المسير واطلقنا للسيارات العنان حتى خرجنا من معمعان المعركة بغير ضحايا اللهم إلا بعض الكدمات والجراح التي اصابت اجسام وهياكل سياراتنا .

انتهينا من صعود جبل المصنعة بسلام بعد أن نجونا من الموت انزلاقا وافتراسا وانسابت بنا السيارات في ارض واسعة منبسطة تربتها من اخصب بقاع العالم . إن هذا الوادي الرحب الفسيح الخصيب يسمى قاع جهران . إن

قرية معبر تبدو لنا في الافق البعيد ونحن نقترب منها رويدا رويدا والتعب والإجهاد والإرهاق اخذ منا مأخذه فنحن لم نر النوم منذ يومين . وهـا نحن قد بدأنا نشعر بالبرد الشديد نتيجة للارتفاع الشاهق الأمر الذي اضطررنا أن نرتدي المعاطف الثقيلة ومع الغروب كنا قد وصلنا إلى القرية حيث لم نكد نضع رؤوسنا على الوسائد حتى غرقنا في نوم عميق متواصل لم نستيقظ منه إلا في صبيحة اليوم الثالث لرحلتنا غير الميمونة .

حقا إن اجمل ما في معبر ماؤها العذب الفرات وهواؤها الصحي الجاف رغم ما به من برودة شديدة. والقرية تتوسط سهلا خصيبا مترامي الاطراف تسكنه اكثر من قبيلة اهمها قبيلة آنس ، ويكثر في جنبات هذا الوادي الأحجار الكريمة خصوصا الياقوت والعقيق الذي تلتقط احجاره صورة المنظر المحيط بها . ذلك أن العقيق يطل على وجه الارض وفي وقت معين يصبح الحجر وبه خاصية الالتقاط فإذا تصادف ومر بجواره انسان في تلك اللحظة انطبعت صورته عليه ، فإن لم يمر انسان أو حيوان التقط المنظر المحيط به من اشجار أو اغصان أو فضاء .

والعامل على معبر (الحاكم) رجل صبوح الوجه رقيق الحاشية غير أن حديثه غير مفهوم على الإطلاق رغم ان حديثه باللغة العربية وهو يشترك مع « عامل حيس » اللعين الذي مر بنا ذكره في البخل الشديد غير أنه لبق في بخله فلقد اعتذر لنا عما إذا كان قد بدا منه أي تقصير لأنه حديث العهد بمنصبه فتقبلنا العذر شاكرين ثم تبين لنا أنه في منصبه هذا منذ اكثر من عام وأنه يقدم هذا العذر لكل القادمين عليه. ومن الطريف حقاً أنه اعتذر لنا بنفس الاسلوب في عودتنا من صنعاء حين نزلنا عليه ضيوفا وكان ذلك بعد شهور عديدة من مرورنا في الذهاب .

وفي اليوم الثالث بدأنا نجتاز الجبل الثالث أو « نقيل يصلح » كما يطلق عليه وهو أكثر وعورة من سابقيه وأضيق ممشى وأشد انحدارا إلى أعلى واكثر عددا في المنحنيات الخطيرة ، غير أننا لم نعبأ بكل تلك المخاطر فلقد تبلدت أعصابنا ووطدنا النفس على تحمل المكاره والاستسلام لها مهما كانت النتائج

فليس امامنا غير ذلك من سبيل . انتهى بنا الصعود إلى ساحة فسيحة وارض مسطة فيها كثير من الغابات . وقبل الظهر وصلنا إلى بلدة تسمى « حزيز » وهي التي قتل في ضواحيها الإمام يحيى كما سنبين ذلك في ما بعد . وفي مشارف تلك البلدة وجدنا وفدا من اعيان صنعاء في انتظارنا للترحيب بنا وأخذوا يقبلوننا في شوق شديد حتى أننا تأثرنا كثيرا من تلك المقابلة وهذا الاحتفال المنقطع النظير ، ثم ما لبثنا أن عرفنا سر هذا الاستقبال المؤثر . اما السر في ذلك فإنهم يعتبرون كل قادم من هذا الطريق وهذا السفر الطويل كأنه قد بعث إلى الحياة من جديد نظرا لنجاته من الهلاك المحقق الذي يتعرض لـه المسافر بسبب مخاطر هذا الطريق . وكثيرا ما خرج القوم لاستقبال القادمين في هذا الطريق ثم عادوا إلى صنعاء وهم يجرون اذيال الخيبة ويتحملون الوانا من الحزن عميقة لان القادم قد هلك في مهاوي الطريق أو انزلقت به السيارة في احد الأودية السحيقة .

ومما لفت انظارنا في مستقبلينا هؤلاء بشاشة وجوههم ورقة حواشيهم وتلك الشيلان الملونة التي يتمنطقون بها من احمر واخضر وازرق واصفر ووردي . الوان مزركشة كثيرة زاهية متباينة تجعلهم يبدون من بعيد وكأنهم الطواويس المتبخترة . اصطحبنا القوم وسارت القافلة الكبيرة من قادمين ومستقبلين حتى لاحت لنا صنعاء من بعيد باسوارها الضخمة ومبانيها الشاهقة الجميلة . والذي يشاهد صنعاء من الخارج يحسن الظن بها ويتبادر إلى ذهنه أنه قادم على مدينة ملأى بالشوارع الفخمة والميادين الفسيحة والحدائق الغناء والقصور المنيعة والمقاهي الغاصة ودور السينما الساحرة ثم لا يلبث أن يرى الأمر على خلاف ما توقع وعلى عكس ما ساورته الظنون فلا يكاد يدخلها حتى يغمى عليه حين يفجع بالحقيقة المرة .

صنعاء

صنعاء هي عاصمة اليمن وهي مدينة متوسطة يسكنها حوالى ثلاثين الف نسمة جوها معتدل جميل صيفا قارس البرودة شتاء حتى أن الماء يتجمد في الأواني ويحيط بصنعاء سور كبير له سبعة ابواب من الجهات المختلفة ومن الطريف أن الجهة الشمالية هناك تسمى الجهة القبلية بعكس ما هو معروف في مصر من الجهة القبلية هي الجنوبية وكذلك يطلق على الجهة الجنوبية هناك الجهة العدنية نظرا لأن عدن في الاتجاه الجنوبي من صنعاء واهم ابواب صنعاء ثلاثة هي باب اليمن ويفتح ناحية الجنوب وباب الشقاوف ويفتح ناحية الشمال وباب القاع ويفتح ناحية الغرب .

ومياه صنعاء عذبة لذيذة تستخرج من الآبار التي اهمها بئر الباشا وتستخرج المياه من الآبار على الطريقة البدائية بواسطة الإبل ، والحق أن مياه صنعاء ألذ وأطيب مياه شربتها في حياتي رغم كثرة اسفاري وتنوع البلدان التي زرتها في أفريقيا واوربا وآسيا .

وتنقسم صنعاء داخل سورها الكبير إلى ثلاثة أحياء : الحي الاول هو صنعاء نفسها وفيها يسكن اكثر سكان العاصمة وشوارعها ضيقة للغاية كثيرة التعاريج والمنحنيات بحيث لا تستطيع السيارة أن تسير فيها . ولذلك فإن الاعيان هناك يستعملون الحصان والحمار في التنقل داخلها بدلا من الترام والسيارة في البلاد الراقية . ولضيق الشوارع وارتفاع المباني التي تصل إلى اربع طوابق لا تكاد الشمس ترى جادة الشوارع التي تنبعث منها روائح كريهة لأن نظام المجاري غير معروف في « صنعاء » ولكن في دورة مياه كل منزل - وهي عادة في الطابق الثاني - يوجد ثقب في الحائط الذي على الطريق يخرج منه البول فينساب على الحائط بشكل قذر حتى يصل إلى قاع الشارع فيسبب هذا الروائح الكريهة التي تزكم الأنوف وتؤذي النفوس وتساعد على انتشار

الأمراض . اما الفضلات الاخرى فإنها تنزل إلى حجرة مساوية لمستوى الشارع ولها ثقب على الطريق حيث يمر كل يومين أو ثلاثة شخص يحملها نظير أجر طفيف .

أما الحي الثاني في صنعاء فيسمى « بير عزب » ويمتاز بكثرة الحدائق والبساتين التي لا يكاد يخلو منها بيت تقريبا ويسكن هذا الحي الامراء والاعيان والاجانب وحينما اقول الاجانب فإنما اقصد المصريين والشوام فليس في صنعاء كلها - على عهدي بها - اكثر من خمسة اوربيين عبارة عن طبيبين قتل احدهما في ظروف غامضة بعد مغادرتي لها بشهور قليلة وصيدلي وممرضتين .

ويفصل بين صنعاء وبير عزب باب يسمى باب السبح يمر تحت دار السعادة وهي قصر الإمام يحيى الذيّ منه كان يحكم اليمن كلها بيد من حديد . وبهذه المناسبة نذكر أن للإمام قصرين متجاورين بصنعاء الأول يسمى دار السعادة والثاني يسمى دار الشكر وهما بناءان متواضعان رغم مساحتهما الواسعة الشاسعة وهما أشبه بدوار اي عمدة من عمد ريف مصر أو اقل منه لو كان العمدة على جانب من اليسار .

وبساتين بير عزب كثيرة الفواكه التي اهمها العنب - وعنب اليمن مشهور - والمشمش والخوخ والتفاح والكمثرى والجوز والليمون الحلو ، والفاكهة رخيصة جدا خصوصا في فصل الصيف حيث يمكنك أن تشتري ملء صفيحة مشمش بقروش قليلة . اما الليمون الحلو فهو متوفر على طول ايام السنة وهو كبير الحجم لذيذ المذاق ويطلقون عليه اسم الليمون الحالي كما يطلقون على المشمش اسم الخوخ وعلى الخوخ اسم الفرسك وعلى الكمثرى اسم العنبرود .

أما الحي الثالث فهو حي اليهود ويسمى « القاع » ويفصل بينه وبين بير عزب سور داخلي به باب كبير يغلق كل يوم مع الغروب ويفتح عند الشروق . وعلى هذا الاساس لا يمكن لليهودي أن يظل خارج القاع بعد الغروب لحظة

واحدة والا كان مصيره الحبس دون محاكمة اللهم إلا إذا كان من الأغنياء ففي الرشوة متسع للخلاص من اي عقاب .

وليهود صنعاء زي خاص ونشاط خاص سنعرض لهما في مجال الحديث عن الحياة الاجتماعية في اليمن .

ويطل على صنعاء من الجهة الشرقية جبل ضخم يسمى جبل نقم وعلى سفحه المتاخم للمدينة يوجد قصر غمدان التاريخي المشهور الذي بناه التابعة قبل الاسلام بآلاف السنين وهو قصر مهجور تحول بمرور السنين إلى مخازن للذخيرة والحبوب وجانب منه حوله الإمام يحيى إلى سجن فظيع يطلق عليه « القلعة »[1] أو « القصر » ومن المفارقات أن كلمة « القصر » تطلق في كل البلاد المتحضرة على مركز الحكومة أو الرئاسة أما في اليمن فإن سماع كلمة القصر تقشعر لها الابدان لأنها تساوي كلمة « السجن » .

وعلى بعد بضعة كيلومترات من صنعاء مناطق شاسعة تكثر فيها البساتين وشلالات المياه المتدفقة من العيون العذبة المتفجرة التي تتكسر كأنها الفضة السائلة واهم هذه المناطق هي « حدة » و « سَنَاع » و « الروضة » وإليها يخرج الصنعانيون في الصيف للتنزه وشم الهواء لكي يستمتعوا بالمياه الجميلة الانحدار والهواء العليل وبالفاكهة اللذيذة . وللكثير منهم بيوت في تلك المناطق يقضون فيها فترات طيبة واغلب الاشجار في تلك المناطق الخوخ والمشمش حتى أنها في فصل الربيع تبدو وكأنها عقود من النور وقد عانق بعضها البعض الآخر وكان يحلو لي ولزملائي أن نذهب إلى تلك المناطق الخلابة مرة كل اسبوعين على الاقل في نزهة على ظهور خيولنا غير أن الطريق اليها مليء بالنسور المتوحشة الضخمة ، وأذكر أني ضللت الطريق ذات مرة وأنا متجه نحو « حدة » ورماني سوء الحظ إلى « منسر » مليء بالنسور المتوحشة التي كادت تنقض عليّ وعلى حصاني لولا لطف الله وصراخ احد

---

(١) الرادع سجن آخر بجوار قصري الإمام يحيى وقد أزيل الآن .

فلاحي المنطقة الذي نبهني إلى الخطر المحدق بي فأسرعت إلى الفرار وغيرت طريقي وساعدني على ذلك أني كنت امتطي صهوة جواد اصيل ذكي سريع يكاد يسابق الريح .

* * *

اول مقابلة مع الإمام يحيى

بعد أن وصلت صنعاء اعد لي بيت لا بأس به في حي بير عزب يشرف على حديقة كبيرة وفي اليوم التالي لوصولي طلب إلي أن استعد « للمواجهة » والمواجهة في عرف الاتيكيت اليمني معناها مقابلة الإمام كما طلب إلي أن اكتب بعض ابيات من الشعر لتكريم الإمام لأنه يحب الشعر ويقرضه ويحب الشعراء ويطرب إلى سماعهم فقلت في نفسي لا بأس ولعل خلعة سنية تكون من نصيبي كتذكار من « أمير المؤمنين » كما يطلقون عليه هناك . ولما حان الموعد المضروب للمقابلة وصل إلى منزلي محافظ المدينة في عربة حنطور مكشوفة ولكنها مهشمة الجوانب راقصة العجلات ممزقة الفرش مليئة بالتراب نسج العنكبوت في اركانها بيوتا كبيرة . ركبت وركب المحافظ على يساري وسارت بنا العربة « الملكية » يتقدمها فريق من نافخي المزامير وضاربي الطبول فكنت في موكب هزلي مضحك لا احسد عليه والناس على الجانبين يتفرجون على هذه « الجرسة » التي ابطالها مصري وإمام ومحافظ . وكان المحافظ يمنيني في الطريق اليه بما ينتظرني من تكريم وما سيخلع عليّ من خلع وما سينعم عليّ به من ذهب وجواهر فأثلج صدري وطابت نفسي لهذا اليوم السعيد الذي سطر لي في لوحة القدر دون أن ادري . ومنيت نفسي بالغنى المفاجىء . أليس بعد قليل سأقابل أمير المؤمنين وسيهبني الخلع السنية كما كانْ يفعل الرشيد مع شعرائه .

وصلنا إلى القصر ونزلنا من « الحنطور الملكي » وما كدت انظر إلى حلتي السوداء الرسمية الأنيقة حتى انفطر قلبي غيظاً لأن كل الأتربة وجميع خيوط العنكبوت التي كانت في العربة قد أبت إلا أن تنتقل إلى حلتي الجميلة . ولكني صبَّرت نفسي وقلت لا بأس أن الخلعة السنية التي سيخلعها عليّ جلالة الإمام بعد قليل ستمسح عني كل هذه الأمور المغيظة .

التفت المحافظ إلى الجندي الواقف على باب القصر وسأله : هل جلالة الإمام هنا . فكدت اتميز غيظا لهذا الاحمق الذي صحبني في موكب رسمي ثم يجيء بعد ذلك يسأل عن الإمام . غير أني هدأت من ثائرتي وقلت في نفسي لعلها من تقاليد الاتيكيت اليمني . دخلنا إلى فناء القصر وهو فناء مليء بالتراب المطرز بفضلات الخيول ثم صعدنا سلما من الحجر مترب غير مكسو حتى ولا بسجادة قديمة ادى بنا إلى باحة طويلة خالية من كل شيء إلا حبال العنكبوت العتيق الذي يتدلى من السقف واستطرقت بنا الباحة إلى حجرة في الصدارة وعلى بابها مجموعة من الاحذية ، فقلت للمحافظ المرافق في شيء من السخرية التي لم اعد قادرا على أن اكتمها وإلا انطبق صدري ، قلت له : هل هذه حجرة العرش ؟ فظن المغفل أني جاد في تعبيري وأجاب والزهو يملأ برديه : نعم . قلت : انخلع الحذاء ؟ قال : طبعا طبعا وقد انتفخت اوداجه . خلعت نعلي وتركته مع باقي النعال على الباب وكذلك فعل رفيقي المحافظ ودخلنا على الحجرة التي يجلس فيها صقر اليمن وفي قلبي رهبة لمقابلة الرجل الذي طبقت شهرته آفاق العالم العربي واثيرت حوله كثير من الألغاز والأحاجي .

الحجرة مفروشة بالسجاد والأكلمة ، وعلى السجاد « شلت » طاولات وعلى النوافذ ستائر من الحرير والإمام جالس في وسط الحجرة على « شلتتين » تمييزا له عن بقية الجالسين وقد وضع على رأسه طاقية بيضاء ولبس جلبابا من الحرير « السكروته » وفوقه صديرية « عنترى » وقد أثرت الشيخوخة فيه تأثيرا واضحا وظهرت عليه امارات المرض والعلة وعن يمينه القاضي عبد الله العمري رئيس وزرائه وعن يساره السيد عبد الله بن أحمد الوزير (صاحب الجلالة الإمام عبد الله الوزير فيما بعد) وانتثرت بقية الحاشية هنا وهناك والكل يحركون فكوكهم بطريقة تشبه الحيوان حين يجتر طعامه وعلمت فيما بعد أنهم يمضغون نباتا مخدرا يسمى القات وسأفرد له حديثا فيما بعد .

والإمام عريض الجبهة ورأسه كبير اصلع وعيناه بين الاخضرار والاصفرار وأنفه صغير وذقنه عريضة ولحيته كثيفة بيضاء وهو في الجملة اسمر اللون .

قال صاحبي : السلام على أمير المؤمنين فأجابه عليك السلام ياوليد . فقلت في نفسي اي يوم اسود ذلك الذي رماني إلى هذا المكان أيشتم الإمام زائريه بمثل هذه الردود ؟ على أني فهمت فيما بعد أن كلمة وليد أو ولد للتمليح وليست للتحقير قلت بدوري : السلام على أمير المؤمنين فقال وعليك السلام ورحمة الله انت الاستاذ المصري الواصل قريبا ؟ قلت نعم يا أمير المؤمنين ، قال : حمدا لله على سلامة وصولك ، قلت سلم الله جلالتكم ومد لي ذراعه اليسرى لكي أصافحه وقال لي لا تواخذني انا عندي « موراتزم » يقصد روماتيزم فقلت له لا بأس عليكم وشفاكم الله . ثم أخذت مكاني في مواجهة جلالته وانصرف هو بدوره إلى أوراق كانت امامه ، ثم ما لبث وحياني مرة اخرى فانتهز رفيقي هذه الفرصة وقال موجها الكلام إلى جلالة الإمام : هل يسمح مولانا أمير المؤمنين للاستاذ في بيتين من الشعر ؟ فقال جلالته : لا بأس فوقفت مكاني وتنحنحت وأخرجت القصيدة من جيبي وأنشأت انشدها فنظر إلي وقال : قرب قليلا فأنا عجوز اطرش سمعي قليل ، فتقدمت ناحيته وأنشأت أنشد من جديد وهو يتمايل طربا ويطلب مني أن أعيد وأنا سعيد بطربه لأنه في نظري كلما ازداد طربه زادت الجائزة وأسرعت الخلعة تتخذ طريها إليّ .

انتهيت من انشاد القصيدة واتخذت مكاني مرة ثانية بعد أن أخذ الإمام مني القصيدة وقرأها بصوت خفيض ثم وضعها تحت الشلتة التي يجلس عليها ثم انصرف إلى أوراقه وظللت جالسا انتظر الخلعة السنية التي منيت النفس بها ولكن لا سميع ولا مجيب . ملت على رفيقي وقلت له : هل ننصرف قال : كما تشتهون ، قلت في تخابث الا يريدنا جلالة الإمام في شيء قال في غباء : لست أدري . لم أجد أي أثر للاتجاه نحو الخلعة المزعومة فاستخرت الله واستأذنت في الانصراف فأذن لي الإمام دون أن اشرب حتى فنجان قهوة فكانت اغرب مقابلة لملك في تاريخ الملوك فيما اعلم وعدت إلى منزلي كالقائد المهزوم اضحك على نفسي وعلى الإمام وعلى المحافظ وركبت نفس العربة التي تسكنها الحشرات والعناكب ولكني من شدة غيظي طردت الطبالين

والزمارين وعدت إلى المنزل في غير ما جلبة ولا ضوضاء .

وفي صبيحة اليوم التالي سمعت طرقا على باب منزلي ، قلت من بالباب قيل : مكتوب من أمير المؤمنين ؟ فقلت في نفسي : صباح جميل وخلعة سنية في الطريق ، وأخذت الخطاب وفضضته فوجدت فحواه كتاب شكر وانعام عليّ بجواد أصيل وثلاثة من الجنود الاشداء لكي يكونوا تحت امرتي . نظرت إلى الجواد فإذا به عجوز اعور اعرج غير صالح للركوب واما الثلاثة جنود فعرفت أني سأتحمل طعامهم . فصعدت إلى مسكني والدم يغلي في رأسي وكتبت للإمام خطابا افهمته أن الجواد اعرج واعور وعجوز وغير صالح للركوب بالمرة اما الثلاثة الجنود فلا حاجة بي اليهم لأن البلاد كلها امان بفضل حزمه وشدته وأعطيت الجنود الخطاب وقلت لهم اذهبوا بهذا الخطاب وذلكم الجواد إلى أمير المؤمنين ومع العصر طرق بابي طارق آخر وقال : مكتوب من أمير المؤمنين فقمت اليه وفضضته فوجدت الإمام يعتذر عن الجواد العجوز ويذكر أنها غلطة الخدم وقد أمر باستبداله بآخر اصيل كما أنه سحب من الجنود الثلاثة جنديا واحدا وأصر على أن يكون لدي جنديان فهمت انهما للتجسس عليّ : واحد منهما يجلس على الباب يحصي جميع الداخلين لزيارتي والآخر مختص بالجواد يسير خلفي اينما ذهبت ليتعرف على الأمكنة التي ازورها والمنازل التي ادخلها وهنا عرفت السر في أمر الجواد الاعرج حتى لا اسرع في السير فلا يتمكن الجندي من ملاحقتي . وظل الأمر على تلك الحال الحصان يأكل من القصر والجنديان يأكلان من عندي إلى أن قامت الثورة اليمنية الكبرى .

عزومة عند الإمام

أراد الإمام يحيى تكريمي بعد أول مقابلة لي معه بعدة أيام فأرسل في دعوتي إلى العشاء فتوجهت إلى القصر هذه المرة على حصاني الذي كان وسيلة انتقالي داخل صنعاء مرتدياً حلة جميلة وقميصاً من الحرير الأبيض الثمين ورباط عنق أحمر اللون فاقعه ولكنه ثمين لأنه هدية عزيز . دخلت إلى غرفة المائدة فإذا السماط الذي لا يعلو عن الأرض بأكثر من قدم واحد زاخر بأصناف الطعام اللذيذة وقد جلس الإمام في الوسط وأمامه خروف كبير مشوي ولكنه مقطع وإن كان يبدو وكأنه سليم ومن حول الإمام بعض الأمراء وكبار رجال الدولة . أما أنا فقد أجلست تكريماً لي في طرف السماط وجلس في الطرف الآخر ضيف آخر حديث القدوم من الحديدة اسمه ابراهام سوريال يشغل منصب مدير فرع شركة جيلاتلي هانكي الانجليزية للتجارة . وقد وضع أمام كل منا سلطانية كبيرة مملوءة بالحساء (الشوربة) الساخن الدسم وبجوارها ملعقة ضخمة من الخشب بذلت كل الجهود لترويضها واستعمالها ففشلت لثقل وزنها ولضخامة حجمها وبينما أنا كذلك أحاول ترويض الملعقة « المعصلجة » إذا بي أسمع صوتاً يقول : إليك يا وليد وإذا بفخذ الخروف تطير في الهواء متخذة طريقها إليّ غير أني أخذت على غرة فما توقعت أن الصوت يقصدني وأن الوليد هو أنا وإذا بالفخذة الطائرة تربكني فلا أملك أن اصنع شيئاً حيالها ، وإذا بها تقع في سلطانية الشوربة الرابضة أمامي فتصنع بالشوربة ما يصنع الحجر الكبير حين يقذف به في الماء فيتطاير رشاش الشوربة الدسمة إلى صدري ووجهي فيفسد أناقتي ويبلل البدلة والقميص ورباط العنق الجميل .

ولا يقف الأمر بالفخذة عند السقوط في سلطانيتي وتفريغها على شكل رشاش في ملابسي بل لشدة طيرانها وجدتها تقفز مرة أخرى من السلطانية لتستقر في حجر الوزير المسكين الجالس إلى جواري فتفسد عليه الطقم

الأنيق الوحيد الذي يملكه .

إنسدت نفسي بطبيعة الحال عن الطعام ولكن القوم أفهموني أن هذا شرف كبير من أمير المؤمنين أن يقذف إليك قطعة من اللحم فتظاهرت بالرضى وقبول الشرف العظيم وما كاد الطعام ينتهي حتى هربت مسرعاً ألعن اليوم الذي رماني إلى هذه العزومة التي خرجت منها خاسراً بدلة ورباط عنق وقميصاً .

٢

الحياة الاجتماعية في اليمن



الأسرة المالكة في اليمن

المذهب الزيدي (الشيعي) هو الغالب على سكان اليمن ، والمذهب الشيعي يقول بإمارة المؤمنين . وذلك بأن يبايع الشعب رجلاً منه يشترط فيه شروطاً كثيرة من أهمها أن يكون عربياً قرشياً من بيت النبوة بشرط أن ينتهي نسبه إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي إليه ينتسب المذهب الزيدي . ومن الشروط الأخرى التي ينبغي أن تتوفر في الإمام فضلاً عن العروبة والنسب والبيعة أمور أخرى أهمها الاستقامة وحسن الخلق والتفقه في أمور الدين بصفة عامة والمذهب الزيدي بصفة خاصة وأن يكون عادلاً رحيماً متسامحاً غير غادر ولا سفاك للدماء فإذا ما توفرت كل هذه الأمور في أي شخص أخذت له البيعة وأصبح إماماً شرعياً يلقب بأمير المؤمنين وله السلطتان الزمنية والدينية ولذلك يلقب بصاحب الجلالة إشارة إلى السلطة الزمنية وبأمير المؤمنين إشارة إلى السلطة الدينية .

ولكن هل إمارة المؤمنين في اليمن إمارة شرعية . وهل الأسرة المالكة عربية قرشية علوية حسينية حقاً ؟ إني أقطع بغير ذلك مستنداً إلى البراهين العلمية والحجج المنطقية التاريخية .

الأسرة المالكة ليست عربية و إنما فارسية

إنني أحب رسول الله وأرجو شفاعته وأمجد عترته وذهبت إلى اليمن وأنا متشوق إلى رؤيا عترة الرسول ونسله الطاهر ممثلاً في الإمام يحيى حميد الدين وأبنائه وأسرته غير أني بمجرد مقابلتي الأولى للإمام يحيى ولأبنائه وما سمعت من الشعب اليمني عن مسلكهم الخاص والعام وما يقترفونه من آثام وما يعيثون فيه من انحلال خلقي تام كل ذلك يسيء إلى الرسول العظيم وإلى عترته الطاهرة ويسيء إلى المسلمين عامة في مشارق الأرض ومغاربها بل يسيء إلى الانسانية نفسها مجردة عن كل دين وكل مذهب .

إن تقاطيع الأمراء اليمنيين وعلى رأسهم الإمام من وجوه طويلة وذقون عريضة وعيون ملونة وأنوف دقيقة ، هذه التقاطيع فارسية وليست عربية وإن قراءتي الكثيرة في علم الأجناس لتصرخ وتؤكد أن هؤلاء الناس من الفرس الشعوبيين أقارب أبي نواس وليسوا من العرب ، فما بالك بادعائهم القرشية وانتسابهم إلى سيد المرسلين . إن في ذلك جرأة على العلم وعلى الحق وعلى المذهب الزيدي الكريم بل وعلى اليمنيين عامة .

إنني أقطع بأن هذه الأسرة الفارسية الشعوبية قد اشترت لنفسها نسباً عربياً يوم كانت تباع الأنساب في سوق التجارة عند بعض النسابين الكذابين وليس أدل على ذلك من أن أبا نواس الشاعر الماجن الفارسي الشعوبي قد حاول أن يشتري لنفسه نسباً عربياً ولكنه لم يوفق إلى ذلك .

ذلك أن أبا نواس ذهب إلى أبي منذر هشام بن الكلبي وطلب إليه أن يلحق نسبه بالعرب قائلاً له هذين البيتين :

أبا منذر ما بال أبواب مذحج مغلقة دوني وأنت صديقي
فإن تأتني يأتك ثنائي ومدحتي وإن تأب لا يسدد عليّ طريقي

ولكن ابن الكلبي رغم ذلك كله ورغم الصداقة التي كانت تربطه بأبي نواس رفض أن ينسبه إلى العرب مع علمه بأن غيره ربما لا يتحرج من إعطائه نسباً عربياً وإن شاء أعطاه نسباً قرشياً علوياً .

تذكرت هذه القصة وعرفت منها الطريق الذي سلكته أسرة حميد الدين لا لكي تنتسب إلى العرب وحسب بل لكي تنتسب إلى الدوحة المحمدية فقلت في نفسي متحسراً ليتهم ذهبوا إلى ابن الكلبي إذن لوقف منهم موقفه من قريبهم أبي نواس ولحال بينهم وبين النسب الشريف ولكان قد خلص الشعب اليمني الشقيق مما يقاسيه على أيديهم من ظلم وفاقة وعذاب وفقر وحرمان .

الأسرة النواسية

وعلى ذكر أبي نواس - والشيء بالشيء يذكر - أذكر أن الأسرة الملكية الكريمة جداً « تعتنق المذهب النواسي المشهور بكل مآثمه » ومن العروف أنه كان لأبي نواس مذهبان خلقيان معروفان ، مذهب سلكه وهو صغير ، ومذهب على عكسه سلكه وهو كبير ، وكان لا يجد في ذلك أي داع للخجل أو الحياء ، وعلى هذا الأساس فإن الأسرة الكريمة التي يرتبط أفرادها معه برباط النسب والدم والجنس لا تجد أية غضاضة في اعتناق مذهب سلفهم « العظيم » والسير على منواله . وإن الشائعات التي تلوكها الألسن في صنعاء وإن غلمان الأمير الذين يعيشون في تعز وبعض الصور الفوتوغرافية المسجلة لأحد الأمراء في أوضاع معينة حينما كان في مصر لأكبر دليل على أن هذه الأسرة التي تذل رقاب اليمنيين تعتنق المذهبين النواسيين عن عمق وإيمان اعتناقاً عملياً تطبيقياً .

ومن أبشع ما سمعت وأنا في اليمن عن الأسرة الكريمة أن أحد سيوفها أو أمرائها قد تبنى ابنة لأخيه المتوفى منذ مدة طويلة فنشأت في قصره حتى نضجت أنوثتها واستوى عودها وأينع صدرها وفجأة ودون سابق إنذار زوجها لأبنه الذي لم يبلغ الثانية عشرة من عمره فصار بذلك عمها وحماها في نفس الوقت . ثم حدث بعد مدة وبشكل فجائي أن طلقت الفتاة الأميرة من الأمير الصغير وشاع الخبر في صنعاء . وبعد الاستقصاء تبين أن أم الأمير الصغير التي هي زوجة الأمير الكبير قد فاجأته مع ابنة أخيه وزوج ولده في وضع فاحش .

فهل رأيت كيف يستبيح الرجل حرماته ، وكيف سولت له نفسه أن يعتدي على ابنته ، إنها ابنته فعلاً لأنها زوج ولده وابنة أخيه ، ولكن هذه أخلاق الأمراء الذين يحكمون اليمن ، بل الذين يملكونه ويسترقون رقاب الأحرار من أبنائه .

ماذا نسمي هذا المذهب الجديد ؟ هل نسميه المذهب النواسي ؟ كلا إن في ذلك ظلماً كبيراً لأبي نواس ونكون قد تجنينا عليه لأن أبا نواس رغم تحلله وخسته لم يكن يجرؤ على إتيان مثل هذه الفاحشة . هل نسميه المذهب الحيواني ؟ كلا وألف كلا إننا نتجنى بذلك على الحيوان المسكين ونظلمه لأن الحيوان لا ينزو على ابنته ولا يفكر فيها .

ماذا نسميه إذن ؟ لقد توصلت أخيراً إلى تسمية هذا المذهب .. إنه المذهب السيفي ، نسبة إلى سيوف الاسلام .

ومن أخلاق الأسرة « الكريمة » أيضاً ـ وليست العهدة في ذلك علي وإنما على الرواة الكثيرين الذين لم يعودوني إلا الصدق ـ أن الأمراء السيوف يمتهنون زوجاتهم لدرجة أنهم يسخرونهن في «القوادة» بأن يجلبن لهم من يشتهون من النساء . وقد حدث أن زوجة جلبت لزوجها الأمير سيدة من كرائم الأسر في صنعاء . فلما دخلت السيدة إلى منزل الأمير بدعوة من زوجته فهمت الغرض الخسيس الذي من أجله دعيت حينما فوجئت بالأمير يدخل إليها على غير العادة المألوفة في صنعاء ، وحينما وجدت الزوجة تهم بالانصراف من الحجرة. إن السيدة الكريمة جابهت الموقف بكل شجاعة فلم تتزعزع ولم تستسلم بل إنها لم تنصرف حتى أعطت الأمير درساً عملياً يتحدث بذكره العام والخاص فقد خلعت حذاءها وأوسعته ضرباً على أم رأسه في شجاعة هستيرية حتى كاد يغمى عليه وانصرفت إلى بيتها آمنة مطمئنة ثم أذاعت الخبر على جميع نساء صنعاء حتى يحترسن من سارقي وسارقات الأعراض المتسترين خلف ألقاب الإمارة الحقيرة البغيضة .

الأسرة والخمر

كان جد الأسرة أبو نواس يحب الخمر ويسبح بحمدها ، أليس هو القائل :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

إن أمراء الأسرة يسيرون على هدى سلفهم أبي نواس وهم في ذلك مساكين فعلاً ولطالما أشفقت عليهم وحزنت من أجلهم ورثيت لحالهم لأني لا أذكر أني رأيت واحداً منهم إلا وهو غارق في سكره لا يكاد يرى محدثه . إنهم يسكرون صباحاً وضحى وظهراً ومساء وليلاً ولا تكاد تخاطب الواحد منهم إلا وهو مترنح في حركاته وكلماته ، فكان من الطبيعي أن أشفق عليهم و أرثي لحالهم .

أنا لا أشفق عليهم كأمراء ، فإني أحتقر الأمراء جميعاً ولكني أرثي لحالهم كأناس مفروض فيهم أنهم ينتمون لبني البشر وإن كان واقع حالهم ليس كذلك . وكلما تذكرت أنه كان من الممكن لو أنهم ساروا على جادة الاستقامة لحسن حالهم . . كلما تذكرت ذلك زدت رثاء لحالهم وتمنياً لهم بالتوبة والصلاح . ولكن هل ذلك ممكن ؟ إن قلبي يقول لا .

قد يتساءل متساءل فيقول من أين يؤتى بالخمر واليمن بلد إسلامي متدين وهناك حديث شريف مأثور يزين به اليمنيون منازلهم وكتبهم يقول « الإيمان يمان والحكمة يمانية» فأقول له إن الخمر تصنع في اليمن بواسطة اليهود الذين يسكنون حياً منفصلاً من أحياء صنعاء يقال له « القاع » . وقد أشرت إليه عند الحديث عن صنعاء . وفي هذا القاع تعيش الظبيات اليهوديات اللاتي يتخذ سيوف الاسلام منهن سراري وعشيقات ففي هذا الحي العتيد تصنع الخمر المعتقة من عنب اليمن المشهور بجودته ومنه تسيل أنهاراً

إلى أفواه السيوف الكرام .

ومن الطريف أن الخمر هناك حلال على السيوف والأمراء حرام على الشعب ، والذي يضبط من أبناء الشعب متلبساً بجريمة شرب الخمر يلقى به في السجن الرهيب الذي يطلق عليه إسم الرادع بعد أن تقيد ساقاه بقيد من الحديد « يشخلل » إذا ما تحرك السجين ومشى خطوة أو خطوتين .

وأذكر بهذه المناسبة أن شاباً لبنانياً إسمه ألبير حاتم وهو مسيحي كما هو واضح من اسمه وكان يشتغل صيدلياً في الصيدلية الوحيدة الموجودة في صنعاء ، استغفر الله بل الموجودة في اليمن جميعه ، ضبط هذا الشاب وهو يشرب قليلاً من النبيذ لعله كان يريد إصلاح معدته من وراء ذلك فضلاً عن أن النبيذ حلال عند المسيحيين فألقي القبض عليه وقيدت قدماه في الحديد ووضع في ظلمات « الرادع » ومن العجيب أنهم كانوا يخرجونه من سجنه كل صباح تحت الحراسة الشديدة لكي يؤدي عمله في الصيدلية ثم يعود في نهاية اليوم إلى السجن من جديد وظل على تلك الحال ثلاثة شهور كاملة حتى أفرج عنه .

لقد سمعت هذه القصة من الدكتور ألبير نفسه ، كان يقصها وهو يبكي فكان قلبي يتمزق لسماعه وقد حاول الشاب المسكين بعد أن أطلق سراحه مغادرة اليمن براً غير أنه لم يتمكن من ذلك لأن أي مواطن في اليمن لا يمكنه أن يغادر أي بلدة إلى أخرى إلا بعد إذن خاص من الإمام ، ولكن لحسن الحظ لم أغادر أليمن قبل أن يتركها هذا الشاب الأمير وكنت في توديعه وتهنئته بخلاصه يوم رحيله .

أعود إلى حديث الخمر ومدى إقبال السيوف على تناولها بشراهة وإفراط أذكر أن بعضهم قد أصيبوا بالجنون نتيجة إفراطهم الشديد في الشراب والإغراق في الملذات ولا يزالون كذلك حتى الآن تشهد صنعاء كثيراً من حماقاتهم ونزواتهم .

وتحضرني بهذه المناسبة قصة طريفة تصور مدى حب أمراء اليمن

للخمر ومعاقرتها منذ زمن بعيد . فقد حدثت موقعة حربية بين جيوش السلطان المظفر الرسولي وبين جيوش الإمام اليمني تسمى موقعة بيت خيَض فلما هزمت جيوش أمير المؤمنين وجد عسكر السلطان المؤيد خموراً كثيرة في الحصن فكسروا الأوعية الضخمة التي كانت تختزن فيها وأراقوها على الأرض فقال في هذه المناسبة الشاعر اليمني الظريف غازي بن المعمار :

ولما فتحنا باب خيض عنوة وجدنا به الأرواح ملأى من الخمر
وعند أمير المؤمنين عصابة يقولون بالبيض الحسان وبالسمر
فإن تكن الأشراف تشرب خفية وتظهر للناس التنسك في الجهر
وتأخذ من خلع العذار نصيبها فإني أمير المؤمنين ولا أدري

غير أن الفرق بين الأمراء الأقدمين والأمراء المحدثين أن الأولين كانوا يشربون خفية وسراً وأما الأمراء المحدثون فإنهم تمشياً مع تقدم الزمن وسير الحضارة يشربون جهاراً نهاراً متمثلين بمذهب حليفهم أبي نواس .

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

وأما الشعب اليمني نفسه فإنه شعب متدين بطبعه مما يجعل الحديث الشريف منطبقاً عليه كل الانطباق وإن كان له آفة أخرى هي آفة القات التي هدت كيانه وزعزعت نشاطه ولعل له في ذلك بعض العذر لأن القات مدسوس عليه كما سنبين فيما بعد .

أمير يتزوج عروسين في ليلة واحدة

لم يكن من حظي وقد عشت في اليمن فترة غير قصيرة من الزمان أن أشهد حفلات الزفاف ، ولكن سيدة مصرية عاشت قبلنا فترة طويلة قصت علينا القصة التالية :

أرسل أحد سيوف الاسلام الكبار يخطب لولده الوحيد كريمة أحد تجار الحديدة الأثرياء . فرأى التاجر في ذلك شرفاً كبيراً وأبدى موافقته المقرونة باغتباطه لارتباطه بالأسرة المالكة برباط الاصهار والنسب ، وعاد الرسول ظافراً يقص على سيف الاسلام قصة موافقة التاجر واغتباطه بالنسب الكريم واشتم السيف الكبير من ثنايا حديث الرسول أن الفتاة العروس ريانة الصبا مفرطة الجمال فتحلب ريقه استحساناً ونسي ولده الوحيد وأمر الرسول أن يعود من فوره إلى والد العروس ـ رغم طول السفر ـ لكي يبلغه أن السيف الكبير ـ مبالغة في التكريم ـ قد رأى أن يخطب العروس لنفسه بدلاً من ابنه . فلما عرف الابن القصة أخذ الغضب منه كل مأخذ وبكى بكاء شديداً فما كان من والده لكي يسترضيه إلا أن أقسم يميناً غليظاً بأنه لا بد أن يزوجه عروسين في ليلة واحدة تعويضاً له وترضية لخاطره . وفعلاً بر السيف بقسمه وخطب لابنه فتاتين وتم الزفاف على الاثنتين في نفس الليلة .

تصف محدثتي الحفل وقد حضرته بنفسها فتقول إن الأمير الصغير قد جلس على كرسي كبير وعن يمينه عروس وعن يساره عروس تماماً كما تصور لنا الأساطير الملك شهريار أو الخليفة هارون الرشيد، وأخذت الراقصات يتلوين وينثنين أمام العريس المغوار الذي زف إلى عروسين في ليلة واحدة حتى انتصف الليل أو كاد فأمسك العريس إحدى العروسين بيمينه وأمسك الأخرى بيساره واتجه بهما نحو مخدعه . أما ما حدث بعد ذلك فلا يعلمه إلا

الأمير والعروسان والراسخون في العلم .

لا تسخر أيها القارىء ولا تتعجب ولكن هذا هو الذي حدث ويمكن لخيالك النابه أن يصور لك ما يجري بعد ذلك وبعد بعد ذلك .

غلمان الأمير

كان ذلك في تعز وكنت قد رأيت قصراً كبيراً فخماً يعيش فيه سيف الاسلام أحمد وهفت نفسي وقد شاهدت البذخ الذي يحيط بهذا القصر بالنسبة إلى العدم الذي يعيش به الشعب ، هفت نفسي أن أشاهد هذا القصر من الداخل ، وأصبح ذلك الجاه أملاً يراود نفسي ولم تمض فترة طويلة حتى فوجئت بمن يستدعيني لمقابلة السيف الذي كان يطلق على نفسه لقب ولي العهد رغم أن ولاية العهد ليست مما يتفق مع المذهب الزيدي الذي يدين به أكثر سكان اليمن ، وإنما الإمامة عندهم تتم عن طريق الشورى وبالبيعة والحكم غير وراثي . المهم أنني إستدعيت لمقابلة السيف فلما دخلت عليه فوجئت بجثة ضخمة مسربلة بتلافيف عجيبة من الأقمشة الملونة وقد انبسط أمامها كرش كبير متكور ويعلو هذه الجثة رأس كبير به عينان براقتان متحركتان كأنهما عيون الصقر واستدارت حول الرأس لحية كثيفة مشعثة الشعرالمتناثر في غير انتظام أو تهذيب ، والجزء الباقي من الوجه عبارة عن جلد أسود أو أقرب إلى السواد يضم تقاطيع تنبىء عن غدر وغلظة وعدم استقرار ، ويعلو هذا الرأس عمامة كبيرة كأنها حمل بعير أو كأنها المحمل المصري الذي يسافر سنوياً في موسم الحج إلى بيت الله الحرام وقد لفت العمامة بثوب أبيض من القماش انسدل طرف منه على قفا الأمير حتى كاد يصل إلى ما خلف ركبتيه .

كانت هذه الجثة الضخمة وهذا الكرش الكبير وهذا الرأس ذو البراقتين القادحتين للشرر وهذه العمامة المنتفخة الملتفة كأنها شجرة الجميز كانت كل هذه الأشياء تكون شخصية مولانا ولي العهد .

ألقيت عليه السلام فأجابني في تلطف زائد وطلب إلي الجلوس فجلست وجرى الحديث بيننا رضياً ندياً هادئاً رائقاً . غير أنه كان لا يلبث من وقت لآخر أن يلتفت إلى الناحية اليمنى من المجلس فيلقي بابتسامة عريضة

إلى شابين جميلين يافعين يشاركاننا مجلسنا ، وقد ظننت في بادىء الأمر لفرط مداعبة سموه لهما أنهما أميران من أنجاله . إنهما شابان يافعان جميلان لكل واحد منهما وجه مليح لم ينبت عذاراه بعد ولكل منهما قوام لدن مياس كأنه على حد قول أبي نواس :

ويغدو وفي برديه كل عشية قضيب من الريحان أضحى منعما

أقول إني كنت في أول الأمر أكاد أجزم أن الغلامين ولداه غير أن المداعبات والابتسامات الواضحة جعلت خاطري ينصرف عن هذا الاعتقاد وبدأت أشك في أمر آخر .

حاولت من ناحيتي أن أنهي المقابلة برغم ما في ذلك من مخالفة لما اصطلح عليه من آداب مقابلة الأمراء . ولكن هذه الرغبة من ناحيتي قد صادفت ارتياحاً وافراً لدى السيف الكبير حتى يفرغ للمليحين اليافعين . وبمجرد انصرافي سألت بعض الأصدقاء عن مدى علاقة الشابين بالأمير فعلمت بكل أسف وخجل أنهما غلاماه واحد منهما اسمه محمود والآخر اسمه كامل ولا يطيق الأمير البعد عنهما حتى أنه يستبقيهما في جميع مقابلاته حتى ولو كانت هذه المقابلات للجليل من الأمور أو الخطير من الشئون .

فهل عرفت بعد ذلك أن نظام الغلمان الذي يظن الناس أنه انتهى منذ عهد أبي نواس لا يزال موجوداً في القرن العشرين في القصور الملكية في اليمن السعيد .

* * *

الرق في اليمن

لا أقصد بطبيعة الحال رق الشعب فهذا أمر مسلم به لأن الشعب كله مستعبد من حفنة من الحكام الذين يجلدونه ويحكمونه بيد من حديد لدرجة أن أي مواطن لكي يسافر من بلدة إلى أخرى لا بد له من إذن خاص من الإمام شخصياً فإذا ما انتهت مهمته من البلدة التي سافر إليها لا بد له من إذن خاص للعودة إلى بلدته ثانياً ، ويظل بسجن البلدة الثانية ما لم يؤذن له بالعودة وقد يستمر رهين محبسه شهوراً بل سنوات بعيداً عن أهله وأطفاله الذين يتضورون جوعاً حتى يسمح له بالعودة .

وإني لأذكر جيداً أني قابلت رجلاً كريماً في الحديدة يقيم بلا عمل ويهيم في الشوارع وقد ذكر لي أنه من أسرة كبيرة في صنعاء واستأذن من الإمام في السفر إلى الحديدة في عمل تجاري ثم طلب الإذن بالعودة إلى العاصمة إلى بلده وأهله وأطفاله ولكن أحداً لم يلتفت إليه ، وقد ذكر لي الرجل الكريم المسكين أن له في الحديدة ثلاثة عشر شهراً ألحّ طوالها في طلب الإذن بالعودة إلى صنعاء دون جدوى ، ولعله لم يؤذن له حتى الآن . أليس هذا رقاً أبشع من رق الرقاب .

وبهذه المناسبة أقول إن اليمن سجن كبير فلا يمكن ليمني أن يغادر اليمن إلى الخارج إلا هرباً ولا يمكن لغير يمني أن يدخل اليمن إلا بإذن خاص من الإمام شخصياً إذ ليست للمفوضيات اليمنية في الدول المختلفة أي سلطة في ذلك ، والذي لا يصدق هذا الكلام ما عليه إلا أن يذهب إلى المفوضية اليمنية لكي يطلب إذناً بالسفر إلى اليمن ثم يوافينا بالنتيجة .

أعود إلى رق الرقاب في اليمن فأسجل للقارىء المتمدين أنني كنت أظن أن هذا النوع من الاستعباد المتوحش قد عفا عليه الزمان في القرن الذي

نعيش فيه . وإذا بي أفجع في إنسانيتي وأنا باليمن وأرى أناساً مثلي ومثلك ونساء مثل أخواتي وأخواتك يباعون ويشترون في سوق الرقيق وإذا بقصور الأمراء ملأى بالعبيد والجواري المهملين المعذبين اللهم إلا من كان منهم غض الشباب أو من كانت منهن ريانة الصبا والجمال .. فلهذين الصنفين شأن أي شأن في القصور .

ولا زلت حتى اليوم أذكر عبداً أسود زيتوني اللون حلو القسمات غض الشباب اسمه « بشير » ولا زلت أذكر ما سمعت عن جولاته الغرامية النسائية الموفقة داخل القصر نفسه ، جولات ليست مع الجواري ولكن مع السيدات الحرائر الخفرات ممن يحملن لقب الامارة ، ويدعين النسب الغالي الشريف .

مرابط القات

لا شك أنك سمعت عن القات فإن لم تكن قد سمعت عنه فاعلم أنه نبات أخضر تشبه أوراقه أوراق نبات الملوخية وأما أشجاره فتقرب من أشجار البرتقال حجماً ويقبل الأهالي على السوق ظهر كل يوم لكي يشتروا حاجتهم منه ، ثم ينصرف كل إلى منزله أو إلى منزل أحد أصدقائه حيث يمضغه الواحد منهم قليلاً ثم يختزنه في جانب من فمه ويظل الجميع يمضغون ويخزنون حتى يتخمر النبات بفعل اللعاب فيسبب الانسجام والخدر ويظل الرجل خدراً حتى صبيحة اليوم التالي وهكذا تستمر الحياة معطلة في القطر الشقيق بفعل القات الذي يفترس الليل وثلاثة أرباع النهار .

ومرابط القات هي مجالس القات حيث يجتمع فريق من الأصدقاء لكي يمضغوا هذا النبات وهم يتجاذبون أطراف الحديث « والسطل » .

إن كلمة مربط تطلق في مصر على المكان الذي تربط فيه الماشية سواء في الاصطبل أو في الحقل أما في اليمن فإن كلمة « مربط » تطلق على المكان الذي يتجمع فيه الآدميون يجلسون وأمامهم هذا النبات الأخضر الكريه كأنه كومات من البرسيم أو العلف يلتهمونه التهاماً . والحق أن هناك تشابهاً كبيراً بين المربطين مربط الحيوانات ومربط القات بجامع الاجترار في كل من المربطين .

ويعتقد البعض أن القات ينشط الغريزة الجنسية ، والواقع عكس ذلك تماماً فقد ثبت أنه يمزق الجهاز التناسلي شر ممزق ويقضي على حيوية المدمنين قبل الأربعين فضلاً عما يسببه من إمساك وإتلاف للجهاز الهضمي وإيقاف لنمو الجسم .

واستعمال القات غير موقوف على الرجال دون النساء بل إن المرأة

تستهلك منه ضعف ما يستهلك الرجل فتختزنه في فمها تماماً كما يفعل الرجال وتدخن معه النرجيلة ذات الحبال الطويلة .

ومنظر القات في الفم منظر كريه فهو يبدو متكوراً في الخد بحيث إذا سرت في شوارع أية مدينة يمنية بعد الظهر رأيت الناس جميعاً وكأن خدودهم متورمة أو كأن بهم خراريج مما يبعث في نفسك الضحك والسخرية والاشفاق . هذا فضلاً عن آثار الخضرة التي تبدو واضحة صارخة في جوانب الفم وبين الأسنان مما يبعث في النفس الانقباض والغثيان .

الاسرة المالكة تشجع السموم

والقات وهذه طبيعته لا يخرج عن كونه نوعا من السموم مثل الحشيش والافيون والهوريين ، والشعب اليمني يكاد يكون مغلوبا على امره في استعمال القات ، ولعله يقصد من استعطائه واستعماله أن ينسى ما هو واقع على كاهله من ظلم وامتهان منذ عشرات السنين الأمر الذي اضطره إلى استعمال هذا السم الاخضر لكي ينقله من واقعه المرير إلى خيال سعيد واحلام هادئة .

والقات ليس رخيصا ، إنه غالي الثمن بين شعب فقير ، وتملك الأسرة الحاكمة ثلاثة ارباع مزارعه ، ويملك بعض الاهلين الربع الباقي غير أنهم يدفعون عليه ضرائب فادحة تذهب بما يمكن أن يجنوه منه من ربح أو فائدة .

ولكي تروج الاسرة المالكة لبضاعتها من القات فقد تفننت في الدعاية له ولم تتورع عن استعارة الاساليب الدينية في ذلك فاطلقت عليه « خمر المؤمنين » و « خمر الصالحين » ومنعت نزول قات الاهالي إلى الاسواق قبل أن يباع القات « الملكي » .

واكثر من ذلك كله فإن الإمام يحيى كان ينشيء فيه القصائد الطويلة متغزلا فيه متغنيا بصفاته تماما كما يفعل ابو نواس في قصائد الخمر . فمن شعر الإمام يحيى في تمجيد هذا السم الأخضر قوله في مطلع قصيدة :

يا لائمي في غصون القات مرحمة ... لن نترك القات احياء وأمواتا

وهذا البيت كما يبدو لي منسوج على منوال بيتي مسلم بن الوليد في الخمر حين قال :

إذا مت فادفني إلى اصل كرمة ... تروي عظامي في مماتي عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فإنني ... اخاف إذا ما مت ألا اذوقها

أرأيت كيف يدس الحكام السموم للشعب حتى يقتلوه فيحكموه . إن القات هو آفة الشعب والشعب مغلوب على أمره ، ويا حبذا لو قاطعه الشعب كعامل من عوامل المقاومة السلبية والايجابية لكي يحتفظ بقوته وعقليته ونشاطه التي لا بد أنه سيحتاج إليها الوطن اليمني المجيد في يوم جد قريب .

بدو وحضر

ينقسم الشعب اليمني من حيث التمدن إلى بدو وحضر . ومن ناحية الدين إلى مسلمين وقلة من اليهود ، ومن ناحية المذاهب الاسلامية إلى شيعة زيدية وسنة شوافع .

فأما من ناحية التمدن فليس هناك تمدن بالفعل ولكني اضطررت إلى استعمال هذه الكلمة تجوزا لكي ابين الفرق الشاسع بين سكان المدن وهم الحضر وبين سكان الجبال والوهاد والبادية وهم بدو القبائل . فأما الحضر فهم يسكنون في المدن والقرى امثال صنعاء وتعز والحديدة وزبيد وبيت الفقيه وإب وصعدة وحجة وذمار وغيرها . ونحن نسميها مدنا من باب التجوز ايضا فإن كل مدينة من هذه التي ذكرنا لا تزيد من ناحية السكان عن اي قرية مصرية متوسطة فضلا عن الفارق الحضاري الذي يفصل بين المدينة اليمنية والقرية المصرية ، إذ القرية المصرية على ما بها من تأخر تسبق المدينة اليمنية بخمسمائة سنة على الاقل فالعاصمة نفسها ليس بها ماء ولا كهرباء ولا شوارع وبالتالي ليس فيها وسائل مواصلات. وحتى اكون منصفا اذكر أن في صنعاء جهازين صغيرين لتوليد الكهرباء احدهما تدار به محطة الاذاعة الصغيرة التي تشتغل لمدة نصف ساعة بعد صلاة المغرب يوم الخميس من كل أسبوع، والجهاز الثاني لإضاءة بعض جوانب « دار السعادة » وهو قصر الامام يحيى ، والقوم هناك يعتبرون هذا الضوء العجيب من معجزات الإمام ، وكثيرا ما يتراهنون على اطفاء المصباح الكهربائي بالنفخ بالفم ولكن دون جدوى بطبيعة الحال فيكون ذلك سببا في تثبيت كرامة أمير المؤمنين كما يطلقون عليه هناك .

وسكان المدن فيهم رقة حاشية ودماثة خلق مطبوعون عليها، وملابسهم

مزركشة رغم فقرهم الشديد ويضعون العمائم على رؤوسهم ويتمنطقون بأحزمة عريضة ويرتبط بالحزام فوق السرة جراب قد وضع فيه خنجر تقليدي كثيراً ما يشاهد في صورهم التي تنشر في الجرائد . ويختلف هذا الحزام وما يشتمل عليه من خنجر وجراب من ناحية قيمته باختلاف درجة الفقر والغنى بين الناس ويبلغ ثمن الخنجر احيانا إذا كان صاحبه غنيا مائتي جنيه مصري .

وارتداء الخنجر والحزام أمر لا بد منه وإلا كان الشخص غير جدير بالاحترام ، ومن الطريف أنه لا تقبل شهادة الشخص الذي لا يرتدي المنطقة والجراب والخنجر .

واما نساء المدن فهن محجبات جميعهن حجابا كاملا فإذا خرجن إلى الشوارع اتشحت الواحدة منهن بملاءة كبيرة وقد لفت جسمها بها لفا فضفاضا حتى لا تظهر مفاتن جسدها، وتسمى هذه الملاءة بالشرشف الذي يكون لونه اسود بالنسبة لطبقة الاغنياء والازرق المزركش بالنسبة لعامة الشعب .

والمرأة المدنية فيها رقة وجمال وتمتاز عيون الصنعانيات بالجمال الآسر وهن على جانب من الظرف والكرم والاحتفاء بالنساء الغريبات خصوصا إذا كن مصريات وقلما تشيع الفاحشة بينهن إلا في اوساط خاصة من تلك التي لا تقيم للاخلاق أو الدين وزناً .

واما بدو القبائل فهم قوم اجلاف فيهم شراسة وغلظة وجهل يعيشون عيشة عنيفة كلها حرب وقتل واعتداء ولقد اختلطت بهم ودرست اخلاقهم فوجدتهم لم ينتقلوا من جاهلية العرب قبل الإسلام شبراً واحداً، بل إنهم فقدوا بعض الصفات المجيدة التي كان يتحلى به عرب الجاهلية مثل الكرم وإباء الضيم والجوار وغيرها .

والقبائل اليمنية كثيرة أهمها همدان وآنس وكوكبان والحدأ وخولان وذو حسن وذو محمد ومراد وغيرها . والرجل القبلي يختلف اختلافا كليا عن الرجل الحضري فالرجل القبلي يطلق شعره ولا يحلقه كما يطلق لحيته ويضع على رأسه عمامة كبيرة مصبوغة بالنيل ولذلك يبدو وجهه ويداه في زرقة دائمة

حيث تنساب الصباغة على وجهه ويديه . ومن الغريب أن هذه القذارة تعتبر عندهم لونا من الوان الاناقة .

والقبلي يلتحف بجلد شاة مدبوغ يجعل الفروة من الداخل شتاء حتى تقيه البرد ويجعلها من الخارج صيفا حتى لا تسبب له مزيدا من الحرارة . واما النصف الاسفل من جسمه فإنه يلفه بقطعة من القماش وهو بعد ذلك لا يلبس في قدميه حذاء وانما يعيش ويتنقل حافيا .

والرجل القبلي لا يعرف الخلق أو الدين نتيجة لانتشار الجهل في تلك الربوع واهمال الحكومة تعليمه وتهذيبه ، وهو لا يتورع عن النهب والسلب ولذلك لا تفارقه بندقيته التي يطلق عليها اسم البارودة .

وهو يعيش في بيوت مؤقتة لأنه كثير التنقل غير أنه يخضع لرئيس القبيلة خضوعا كليا تماما كما هو معروف عن طبيعة نظام القبيلة في الجاهلية .

ومن العجيب أنهم يميلون إلى الرقص والغناء ورقصهم عجيب وغناؤهم أعجب ، فهم ينتظمون في حلقات في ضوء القمر ويتمايلون ذات اليمين وذات الشمال في لين وهدوء ثم لا يلبثون أن يسرعوا في حركاتهم شيئا فشيئا حتى يحمى وطيس الرقص فيشرعون بالقفز في امكنتهم ويشهرون سيوفهم وخناجرهم التي تلمع في ضوء القمر وكأنها الحيات السابحات في الهواء أو كأنها ألسنة البرق اللامعة في سماء لا زوردية وهم يصدرون اصواتا غير مفهومة اغلب الظن أنها حداء وغناء . وقد حاولت أن افهمها ولكن دون جدوى . كما أن اصواتهم رفيعة كأصوات النساء ، فإذا كنت بعيدا عن حلقة الرقص لا يمكن أن تتصور أن هذه الاصوات صادرة من حناجر الرجال .

فإذا ما انتهى القوم من رقصهم الرقيق عادت اليهم خشونتهم ووحشيتهم غير أن ميل هؤلاء القوم بما لهم من مشاعر تطرب للرقص وعواطف تهتز بالغناء كل ذلك يشجع على اصلاحهم ونقلهم من حياة الخشونة والوحشية التي يعيشونها إلى حياة فيها انسانية ورقة واعتدال وبذلك يمكن الانتفاع بهم وجعلهم مواطنين صالحين .

وإن انسى لا انسى يوم هاجمت القبائل صنعاء وقتلت اهلها وسلبت منازلها وكنت وزملائي المصريين قد اعتصمنا في بيت في ظاهر المدينة وجعلنا منه حصنا منيعا واشتبكنا مع فرقة من هؤلاء المتوحشين في معركة حربية طاحنة سقط فيها منهم عدد كبير من القتلى وكنت اشاهد اثناء اشتباكنا معهم امرأة تلبس « روب دي شامبر » احمر اللون وتحارب بعنف ووحشية وتحطيها طلقاتنا دائما وكلما تكاثر الرصاص حولها كلما زادت ضراوة واقبالا على القتال حتى كادت توقع بنا الاذى والعطب فاضطررنا أن نضربها ضربا مباشرا حتى سقطت مضرجة بدمائها .

والحق أننا ندمنا بعض الشيء لأننا قتلنا امرأة فلما ارخى الليل سدوله زحفنا نحوها نستكشف أمرها ونعرف من تكون هذه المرأة الضارية ولشد ما كانت دهشتنا حين وجدنا أننا لم نقتل امرأة ولكن قتلنا رجلا قبليا قبيح المنظر مشوه القسمات يلبس ذلك الروب الذي نهبه من أحد البيوت التي هاجمها قبل أن يشرع في مهاجمتنا فسلبناه بندقيته وخنجره والروب الذي كان يرتديه .

واعجب معي مرة أخرى فلقد عقدت الدهشة ألسنتنا حينما وجدنا أن هذ الروب هو روب زوجتي ذلك أن هذا المجرم كان قد سطا على بيتي الذي اسكنه فنهب ملابسنا واموالنا وذهب بها إلى حيث يضعها في مكان امين ثم عاد في غزوة أخرى حيث رماه سوء حظه ونهاية عمره إلى خوض معركة ضدنا مع مجموعة من ابناء قبيلته فلقي مصرعه جزاء وفاقا على ما قدمت يداه من قتل ونهب وسلب .

واما المرأة القبلية فلا تقل وحشية وعنفا عن الرجل وهي سافرة الوجه تغطي رأسها بقطعة من القماش الاسود وتلبس جلبابا اسود يشبه إلى حد كبير ذلك الجلباب الذي ترتديه فلاحات مصر في القرى والريف غير أنها ترتدي تحت الجلباب سروالا طويلا ضيق الفتحات ينزل إلى الكعبين .

والمرأة القبلية نشيطة سريعة الحركة ضامرة الجسم وقلما تشاهد واحدة منهن سمينة ولعل مرد ذلك إلى كثرة حركتها ونشاطها ومن العجيب أنها تقوم

بالرعي وملاحظة الماشية وسقيها وادارة المنزل والغزل ثم بعد ذلك كله بفلاحة الارض وزرعها اي أنها تقوم بجميع اعمال الرجل . اما الرجل فإنه ليس له من عمل إلا تدخين الطباق في ارجيلة طويلة الحبال وتخزين القات وخوض المعارك إذا ما دعاه رئيس القبيلة إلى معركة حربية أو غارة للسلب والنهب .

وجملة القول أن القبليين قوم متوحشون فيهم خشونة وقسوة يكرهون الضيفان ويغدرون بهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ولو كانت الحكومة قد وهبتهم بعض العناية وأوصلت اليهم العلم والدين واستغلت ما في اراضيهم من كنوز دفينة لخلقت منهم اناساً آخرين ومواطنين صالحين وقوما متمدينين ولكن حكومة اليمن « السعيد » راضية بهذه الاوضاع كل الرضى بل إنها تشجعها على ما فيها من فوضى لسهولة الصيد في الماء العكر .

زيود وشوافع ويهود

ينقسم سكان اليمن من حيث الدين إلى مسلمين ويهود فأما المسلمون فيقسمون إلى شيعة زيدية وسنة شوافع اي أن الشيعة يدينون بالمذهب الزيدي الذي ينتهي إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وأما السنّة فكلهم يعتنقون مذهب الإمام الشافعي . والزيود يسكنون الجبال وينتشرون على سفوحها المترامية الأطراف ويتجمعون في ودیانها الخصيبة التي تكثر فيها السيول التي تذكرنا بطوفان نوح وقد شهدنا بعض هذا الطوفان وكدنا نهلك فيه غرقاً. والشريعة الزيدية تحتم أن يكون الحاكم من نسل زيد بن علي ويطلقون عليه اسم الإمام أو أمير المؤمنين ولذلك فإن الاسرة الحاكمة في اليمن زيدية المذهب متعصبة له تقصر المناصب الكبرى كلها على ابناء هذا المذهب وتحرمها على ابناء السنة الشوافع .

اما الشوافع فإنهم يسكنون اقليم تهامة وعاصمته الحديدة كما يسكنون المنطقة المتاخمة لعدن وعاصمتها تعز وقد ذكرت أن الحكومة الحالية تضطهدهم وتحرمهم من الوظائف الكبرى ولا يقف الامر عند هذا الحد بل كثيرا ما شنت عليهم الحروب ونكلت بهم وأسالت دماءهم انهارا ولعل اشهر الحروب التي شنتها عليهم الحكومة حرب الزرانيق التي خسرت فيها اليمن عددا كبيرا من خيرة شبابها من زيود وشوافع .

والواقع أن روح التسامح والتعاون قائمة بين هؤلاء المواطنين الكرام من زيود وسنة ولكن الحكومة الحميدية (نسبة إلى اسرة حميد الدين) هي التي توقع الفتنة بين هؤلاء المواطنين وتسعى بالوقيعة بينهم حتى تظل الامور مضطربة مما يشغل المواطنين عن فسادها ومظالمها بل إنها تسف وتوغل في تحقير السنيين لدرجة أنها تطلق عليهم « الشوافع الانجاس » .

ارأيت حاكما يطلق على فريق من رعيته هذه الاوصاف الحقيرة ، إن

هؤلاء الشوافع الذين يطلق عليهم « الانجاس » انما هم مثلي ومثلك في مصر والحجاز وسوريا وفلسطين وليبيا وتونس والجزائر ومراكش ولكن حكومة اليمن قد تجردت من كل ذوق وخلت من كل عاطفة .

والذي يثلج صدورنا أن العاطفة الاخوية والتعاون الصادق بين ابناء الشعب من سنة وزيود قائم على قدم وساق منذ زمن طويل ولعل الثورة اليمنية الكبرى في سنة ١٩٤٨ كانت خير دليل على ذلك فكان قادتها من الطرفين وكان شهداؤها من الطرفين كذلك وسيستمر التعاون والاخاء بينهم حتى يكتب لهم الخلاص جميعا .

اما اليهود فإنهم قلة في اليمن ويسكنون حيا منفصلا في صنعاء يسمى القاع كما يسكن عدد قليل منهم اقليما صغيرا لا يبعد عن صنعاء اكثر من ساعتين بالسيارة .

واليهودي في اليمن له زي خاص يتميز به وشكل خاص ينفرد به عن بقية الشعب فهو يضع على رأسه طاقية من قماش صوفي يشبه قماش الطرابيش المصرية وتنفذ من تحت الطاقية زنارتان من الشعر على شكل الضفائر ، واحدة على الصدغ الايمن والأخرى على الصدغ الايسر ، ثم إنه يلبس جلبابا ويرتدي فوقه جاكتة بدون اكمام ، ولا بد لكل يهودي أن يرتدي هذا الزي تمييزا له عن بقية السكان .

واليهودي في اليمن غير مسموح له بالركوب داخل المدينة ، فإذا ركب وقابله مسلم اصبح محتما عليه أن ينزل من فوق ركوبته حتى يمر المسلم . ولا بد أن يكون موجودا في الحي الخاص بهم قبل الغروب وإلا اغلق باب السور المحيط بالحي اليهودي ومن ثم يقبض عليه ويودع السجن .

واليهود في اليمن على جانب كبير من النشاط فالصناعات كلها ـ وهي بدائية بطبيعة الحال ـ مقصورة عليهم وجانب كبير من التجارة واقع في ايديهم وفيهم بعض أعيان التجار الذين يقال إن المرحوم الإمام يحيى كان شريكاً لهم في متاجرهم وقد كانت تربطه بهم صلات صداقة وود .

واذكر أننا نحن المصريين كنا مضطرين للتعامل معهم ، فإذا فسدت ساعة لا يصلحها إلا يهودي وإذا فسد موقد البترول لم نجد من يصلحه إلا يهوديا كما أن الخبز الذي نأكله لا يصنعه إلا اليهود وهكذا يسيطر اليهود على قلتهم على الحياة الاقتصادية في اليمن وذلك بمساعدة السادة الحكام الذين هم من نسل رسول الله وتشجيعهم .

واما اليهوديات اليمنيات فعلى جانب كبير من الجمال وهن متحللات في اخلاقهن شأنهن في ذلك شأن جميع اليهود في العالم ولذلك فإن كل أمير يمني يقتني في بيته اكثر من يهودية لتكون بمثابة خادمة ، ولكن الواقع أن مهمتها غير ذلك لأنها مهمة غير كريمة ولا نظيفة ولا شريفة .

ومن العجيب أن هؤلاء اليهود اليمنيين كانوا معنا في منتهى الوفاء فلقد كانوا يهربون لنا الطعام اثناء وجودنا في السجن معرضين أنفسهم للموت باطلاق النار عليهم ، وكانوا لا يتقاضون ثمنا لهذا الطعام ، فلم يكن إلى حسابهم من سبيل، ذلك أن اتصالهم بنا كان اتصالا غير مباشر . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد كنا مفلسين لا نملك مليماً واحداً .

ولما اطلق سراحنا وعدنا إلى منازلنا سألنا احد هؤلاء اليهود عن الدافع الذي حدا بهم إلى تهريب الطعام الينا في السجن معرضين انفسهم للهلاك فضلا عن أن بقاءنا على قيد الحياة وخروجنا من السجن كان أمرا مشكوكا فيه أجاب اليهودي اليمني: نحن مشفقون عليكم أن تعيشوا في هذه البلاد في وقت الهدوء والسلام للتأخر اللاحق بها وللفارق الشديد بينها وبين بلادكم . فما بالنا وانتم مكبلون داخل السجون جائعين عطشانين . إن الدافع إلى ذلك انساني محض ، ولكننا برغم ذلك دفعنا لهم ثمن كل ما امكنهم أن يهربوه لنا أثناء ايامنا العجفاء داخل السجن الاسود والاعتقال الرهيب .

الإمام يحيى والسينما

لعلي قد أطلت عليك الحديث في هذا الباب الذي شرحت لك فيه ألوانا من الحياة الاجتماعية في اليمن ، والواقع أني لم أطل ولم أطنب ، فالحياة الاجتماعية في اليمن تتطلب كتابا كبيرا لكي نضع أمامك صورة واضحة عنها ولكنني وضعت اصابعك على رؤوس موضوعات سريعة يحتاج كل موضوع فيها إلى فصول طويلة .

ولذلك فقد رأيت ألا أترك هذا الباب قبل أن امتعك بطرفة لطيفة عن رجل هندي فكر في انشاء سينما باليمن وما حدث له .

رجل هندي كان يقيم في الحديدة وهي بلدة على جانب غير قليل من التمدن بالنسبة لبقية مدن الدولة إذ فيها جالية اجنبية من يونان وطليان وحضارمة موظفين لبعض شركات التصدير التي تحتكر كثيرا من خيرات اليمن ، فرأى الرجل ان ينشيء دارا للسينما يرفه بها عن الحياة القاسية التي يعيشها السكان ويجني من وراء مشروعه بعض الربح .

تقدم الرجل إلى حاكم الحديدة يطلب اليه الترخيص بإقامة السينما ، غير أن الحاكم أخبره أن هذا المشروع خطير وأنه يحتاج إلى موافقة الإمام شخصيا لأنه لا يجرؤ على أن يفاتح الإمام في مثل هذا الطلب الخطير وأشار على صاحب المشروع أن يذهب بنفسه إلى صنعاء لكي يقابل جلالة الإمام ويستعطفه في اعطائه التصريح .

اذعن الهندي لمشورة الحاكم وشد الرحال إلى صنعاء معرضا نفسه لمخاطر الطريق الذي حدثتك عنه ، وكتبت له السلامة ووصل فعلا إلى صنعاء وطلب الإذن بمقابلة أمير المؤمنين الذي « لطعه » أكثر من ثلاثين يوما ، وأخيرا تكرم عليه بمقابلة بعد أن كاد الرجل ييأس ويعود أدراجه إلى الحديدة يجر اذيال الخيبة والفشل .

وتمت المقابلة بين الرجل وبين الإمام وعرض فكرته على أمير المؤمنين وطلب التصريح بإنشاء السينما فتبسم الإمام في وجهه وأومأ بإيماءة الموافقة وقال له لا بأس ولكن لي شروط ثلاثة . قال أمر أمير المؤمنين . قال الإمام : الشرط الأول ألا تعرض السينما أفلاماً خليعة أو مخلة بالآداب العامة. فقال الرجل : موافق يا أمير المؤمنين . قال الإمام : أما الشرط الثاني فهو ألا تفتح في مواقيت الصلاة. فتريث الرجل قليلاً ثم قال لا بأس يا أمير المؤمنين . قال الإمام في مكر : والشرط الثالث أن يكون الدخول مجاناً ، فصعق الرجل وكاد يصرخ لما بذله من تعب ووقت وأقسم ألا يقيم في اليمن كلها بعد اليوم ، وبالفعل غذ المسير من صنعاء إلى « الحديدة » ومنها خرج من اليمن كلها إلى الأبد .

سمعت هذه القصة من شاهد عيان كان يحضر الحديث بين الإمام والرجل الهندي وكان يقصها وهو يضحك تارة ويسخر تارة أخرى ويشفق على الرجل المسكين تارة ثالثة .

إستمعت إلى القصة ثم نظرت إلى محدثي وقلت له : لو كنت مكان الهندي لقبلت شروط الإمام . قال إن هذا ضرب من الجنون ، إن صح قبول الشرطين الأول والثاني فكيف تقبل الشرط الثالث وتدخل الناس مجاناً ؟ أجبته بمنتهى البساطة : كنت أجعل الدخول مجاناً والخروج بالفلوس .

* * *

٣

نظام الحكم في اليمن



الإمامة الحالية باطلة

ذكرت في صفحات سابقة أن نظام الحكم في اليمن يقوم على أساس الشريعة الزيدية التي تنص على أن يكون الإمام شريفاً قرشياً . وقد عرضت لك أن الأسرة الملكية في اليمن ـ التي منها الإمام ـ أسرة فارسية لا هي عربية ولا هاشمية وهذا وحده يكفي لإبطال الإمامة الحالية وجعلها غير شرعية طالما هي في أسرة حميد الدين .

ولكن لن أكتفي بذلك للبرهان على عدم شرعية هذه الإمامة فأذكر أن الشرط الثاني للإمامة أن تكون بالبيعة أي أن المسلمين يختارون الإمام بالبيعة وهو نظام أقرب إلى النظام الجمهوري غير أن الإمام يكون رئيساً للجمهورية مدى الحياة ولكن الإمام أحمد لم يتول أمر اليمن بالبيعة ذلك أن أحداً من اليمنيين لم يبايعه وإنما أخذ الإمامة اغتصاباً بالقوة حينما تواطأ مع بعض ملوك العرب وأرسل القبائل بطريق الرشوة ـ كما سنفصل في الصفحات التالية ـ لاحتلال صنعاء وإسقاط الحكومة الشرعية التي كان يتولى الأمر فيها الإمام عبدالله الوزير وإذن فالإمامة الحالية باطلة لأن الركن الثاني وهو انتخاب الإمام بالشورى غير قائم .

والركن الثالث هو الاستقامة والتدين وقد ذكرت لك طرفاً من سيرة الإمام

الحالي وما يحويه قصره من غلمان وما يعيش فيه من عبيد يعبثون بالحرمات وينشرون الفساد في أرجاء القصر وقد ضربت لك مثلاً بالعبد الأسود بشير الذي يعيش في القصر كما كان يعيش هارون الرشيد تتهاوى تحت أقدامه الأميرات ويتضاربن ويتخاصمن من أجل الفوز بقلبه وحبه . وإذن فركن الاستقامة غير موجود .

وأما ركن التدين فإن الشك فيه كبير ، ذلك أن الإمام الحالي متعصب في تشيعه إلى درجة الرافضية ، ولذلك قصة معروفة فهو يخرج في بعض أيام عيد الأضحى إلى قمة الجبل للتعبد وقد تصادف أن دخل عليه في صومعته الجبلية طبيب بيطري مصري كان يعيش في تعز وتربطه به رابطة صداقة فوجد الإمام غارقاً في قراءة الورد الذي يردده قائلاً ما نصه : اللهم إني أحب علياً . اللهم إن كان حبي لعلي يخرجني عن طاعتك فأخرجني من طاعتك . اللهم إن كان حبي لعلي يبعدني عن رحمتك فابعدني عن رحمتك . اللهم إن كان حبي لعلي يجعلني رافضياً فأنا رافضي رافضي رافضي . فصرخ الشاب المصري ـ وكان متديناً ـ صرخة اهتزت لها أركان المكان فتنبه الإمام إلى ما حدث وظل مضطهداً لهذا الشاب حتى كاد يسبب له الجنون ، ولكن رحمة الله أدركت هذا الطبيب فعاد إلى مصر بسلام بعد أن لقي من العذاب ألواناً .

الركن الرابع أن الإمامة لا تورث ولكن الإمام الحالي اغتصب الإمامة بطريق الوراثة عن أبيه ولم يكتف بذلك بل أصدر مرسوماً جعل ابنه ولياً لعهده وهكذا خرج بالامامة الزيدية عن حكمتها وجعلها ملكية وراثية . ولذلك فإن إمامته من وجهة النظر الزيدية باطلة قولاً وفعلاً وتشريعاً وديناً . وهي من وجهة النظر السنية باطلة أيضاً لأن السنة لا يعترفون بالامامة ولا يقرون الملكية .

الإمام يقتل إخوته

وللإمام الحالي طريقة وحشية لم يتبعها ملك سابق في التاريخ للمحافظة على ملكه فكلما توسم شيئاً من القوة في أحد أخوته سارع إلى قتله حتى لا يفقد عرشه ولذلك فقد قتل من إخوته خمسة هم سيوف الاسلام ابراهيم بالسم ويحيى بالسم وعبدالله بالسيف والعباس بالسيف واسماعيل بالسم ولكن هذا الأخير ، لحسن الحظ ، عولج ونجا إلا أنه يحيا مريضاً هزيلاً مشوهاً ، حياة خير منها الموت .

وأما بقية إخوته فقد طردهم جميعاً من اليمن وهم الحسن والقاسم وعبدالرحمن واسماعيل الذي نجا من السم ، وأما أخوه علي فإنه موجود في اليمن إلا أنه قابع في ظلمات السجن .

فهل رأيت في الدنيا ملكاً مماثلاً لهذا الملك وهل قرأت في التاريخ لذلك مثيلاً ؟ أنا شخصياً لم أر لذلك مثيلاً ولم أقرأ له في التاريخ شبيهاً . فهل رأيت أنت أو قرأت ؟ أغلب الظن أنك مثلي جاهل بأي حالة مماثلة في الماضي والحاضر والمستقبل .

الإمام هو نفسه رئيس الوزراء

يسمع الناس ويقرأون في الجرائد عن فلان الوزير اليمني وفلان نائب الوزير والواقع أنه لا يوجد في اليمن وزارة ولا وزراء على الاطلاق وإن كل ما يكتب هو ذر للرماد في العيون وتغطية لنظام عجيب من أنظمة الحكم في القرن العشرين .

والذي يدعو إلى السخرية أن الإمام إستصدر مرسوماً بأنه هو نفسه رئيس الوزراء بالاضافة إلى شخصيته كإمام وملك ومن المضحك أنه نشر هذا المرسوم في محطة إذاعة صنعاء وأخذته عنها جميع محطات وصحف العالم . إنه ملك وإمام ورئيس وزراء ووزراء وبقي أن يتقلد جميع المناصب حتى يصل إلى مرتبة الخفير . اللهم ارحم الشعب اليمني برحمتك يا رب .

الرهائن

وهذا أيضاً نظام تقشعر له الأبدان فالإمام أحمد ومن قبله والده الإمام يحيى لكي يحكم اليمن بيد من حديد ولكيلا يثور عليه أحد من رؤساء القبائل يأخذ من كل رئيس قبيلة أحد أبنائه الصغار كرهينة عنده . والمفروض أن هذا الطفل البريء الرهينة يربى في القصر ويطعم ويكسى ويتعلم . إنه بريء لا ذنب له إلا أنه يعيش في بلد حاكمه ظالم .

ولكن الإمام بدلاً من أن يفعل ذلك بالأطفال الرهائن الذين هو أمين عليهم امام الله والناس وأمام أهليهم الذين سلموه فلذات أكبادهم ، بدلاً من ذلك كله يضعهم في السجون مع القتلة والسفاكين والمجرمين واللصوص وقطاع الطرق . وتصور أنت أطفالاً صغاراً يوضعون في السجون مع هذه الأصناف من المجرمين . النتيجة المعروفة طبعاً أن الأطفال يفسدون خلقياً ويشذون جنسياً ثم يتحولون إلى مجرمين عتاة وإذا ما قدر لهم أن يستبدلوا بغيرهم كرهائن خرجوا إلى الوطن أعضاء غير صالحين يعيثون فيه الفساد وينشرون فيه الفوضى والشذوذ والدمار .

ولا تعجب إذا عرفت أن بعض الأبرياء من هؤلاء الرهائن يقضون في السجن بغير ذنب أو جريرة ثلاثين عاماً أو تزيد وأن محمد القردعي الذي قاد الحملة التي قتلت الإمام يحيى كان أحد هؤلاء الرهائن واستمر في سجنه ثلاثين عاماً فنذر بينه وبين نفسه أنه بمجرد خروجه لا بد أن ينتقم لحريته المهدورة ولشبابه الضائع ولانسانيته المجروحة ولماضيه السليب وفعلاً انتقم من الرجل الذي سبب له كل هذه المتاعب وقتله . لقد شارك في قتل الإمام يحيى .

أرأيت في الدنيا نظاماً مثل هذا النظام. إن الانسانية كلها لتبرأ من هذه الأنظمة الوحشية ومن هذه الأساليب الموغلة في الظلم والبدائية .

إذا كنت يمنياً وكرهت الحكام في وطنك فرحلت أو هربت إلى بلدة أخرى واشتغلت بالتجارة والأعمال الحرة فأنت لا شك موفق وستقتني ثروات طائلة ذلك لأن اليمني ذكي بطبعه أمين حسن التصرف ، فكثير من اليمنيين هاجروا إلى السودان وارتيريا بل وانجلترا واقتنوا ثروات طائلة وربحوا أموالاً وفيرة .

واليمني رغم سوء الأحوال وفساد أداة الحكم في بلاده لا يلبث أن يحن إلى وطنه الحبيب فيعود حاملاً ثروته كلها إلى أهله وبيته ويقتني الضياع والبساتين ويبني لنفسه بيتاً كبيراً تماماً كما يفعل المهاجرون اللبنانيون حينما يجمعون ثرواتهم في المهجر ثم يعودون إلى بلادهم للاستقرار .

غير أن الفرق شنيع بين حالة اللبناني العائد إلى وطنه وزميله اليمني العائد إلى بلده . إن اللبناني يعيش آمناً مطمئناً يقضي شيخوخته في راحة ويسار وقد يزاول بعض النشاط الذي يضيف ربحاً جديداً إلى ثروته .

أما اليمني فعلى العكس تماماً لا يكاد يعود إلى وطنه وينشد الاستقرار ولا يكاد ينعم بثمرة كفاحه الطويل حتى يفاجأ باستدعاء الإمام له وطلبه أن يتنازل للدولة (والدولة هي الإمام والسيوف) عن نصف أملاكه ، والويل له إذا رفض فيضطر المسكين إلى إجابة الإمام إلى طلبه ، وفي العام التالي يفاجأ بنفس الاستدعاء من جلالة الإمام حيث يطلب إليه في قسوة أن يتنازل له عن نصف الباقي وإلا صودر الجزء الباقي من أملاكه وأودع السجن . فيرضى الرجل بأهون الضررين وأخف الشرين ويتنازل بغير وثيقة ، ويظل الأمر كذلك عاماً بعد عام حتى يصبح المكافح المسكين فقيراً معدماً شأنه في ذلك شأن بقية الشعب ، وإني أعرف أسماء بعينها من هؤلاء المنكوبين وإنما يمنعني من ذكر أسمائهم ما قد يلحقهم من أذى أو ضرر .

ولذلك فإن اليمني المهاجر يحن إلى وطنه ويتحرق إليه شوقاً ولكنه يخشى العبث بأقدس حرياته ومصادرة أملاكه ونهب أمواله التي عاش طول حياته يكافح من أجل الحصول عليها ، فيظل في مهجره سعيداً بماله بائساً لخوفه من العودة إلى وطنه الحبيب .

وأما الرشوة في اليمن فإنها لكثرة ما تفشت نتيجة فساد الحكم تكاد تكون دستوراً معترفاً به ، والموظف اليمني مضطر أن يرتشي لكي يعيش لأن أكبر مرتب في اليمن لا يزيد على عشرة جنيهات ، وأما بقية صغار الموظفين فلا يكاد يتجاوز مرتب الواحد منهم جنيهاً مصرياً واحداً في الشهر وهو مضطر أن يطعم عائلة لا تقل في المتوسط عن ستة أفراد الأمر الذي يدعوه إلى احتراف الرشوة .

ولذلك فإن أي أمر من أمورك أو أي ورقة في ديوان لا تنتقل من موظف إلى آخر إلا بضريبة معلومة وهكذا تتكرر قصة إضاءة مدينة بكين المشهورة .

والعملة في اليمن تسمى الزلط وكنا نحن المصريين نسمع كلمة الزلط هذه دون أن نفهمها أو نفطن إلى المقصود من ورائها، غير أننا رفضنا بشدة أن نسير في طريق قضاء مصالحنا بالرشوة ولذلك كانت كلها معطلة .

وأما نظام الضرائب في اليمن فيقوم على نظام الالتزام وهو النظام الظالم البغيض الذي كان معمولاً به في العهد التركي الأسود ذلك أن الإمام يوكل إلى أحد « العمال » توريد مبلغ كذا من الضرائب لبيت المال في كل سنةَ عن منطقة كذا وتضع الدولة تحت يديه كل الامكانيات من جنود ومحصلين وخيول فينتشر الجنود المحصلون في المنطقة ويقيمون عند الشخص المراد تحصيل الضريبة منه آكلين شاربين عابثين حتى يدفع لهم وإلا كان الجلد نصيبه ومصادرة بيته وتشريد نسائه وعياله .

ولا شك أن الملتزم يتخذ من هذه المهمة تجارة رابحة ، فهو يجبي للدولة ما تطلبه ثم يدخر لنفسه مبلغاً يكاد يكون مساوياً لما حصله للدولة .

غير أن مصير هذا الملتزم يكون أخيراً في كفة القدر فإن تمكن من الهرب في الوقت المناسب بأمواله التي جمعها ظلماً من عرق الشعب واستعمل في جبايتها أخس الأساليب وأبشعها كان سعيد الحظ ، وإلا تنبه الإمام إلى ثرائه وصادر أمواله بغير سابق إنذار وفعل به ما يفعل عادة بالمهاجرين العائدين .

بلد إسلامي وعملته ماريا تريزا

وبمناسبة ذكر العملة في اليمن أعتقد أنه يهمك أن تعرف شيئاً عنها وعن طبيعتها ومفرداتها وإلى أي عهد تنتسب وفي أي بلد ضربت . وإليك القصة الطريفة :

كانت اليمن ولاية عثمانية ثم استقلت عن الدولة العثمانية في العقد الثاني من هذا القرن شأنها في ذلك شأن بقية الدول التي خلفها الرجل المريض وتركها إما مستقلة وإما تركة رابحة للانجليز والفرنسيين ، وكانت العملة السائدة في أيام الحكم التركي هي العملة التركية ، ولكن الامام يحيى رأى بعد الاستقلال أن يبحث لدولته عن عملة جديدة تليق بالبلد العربي الاسلامي المستقل . أتدري ماذا صنع ؟ لقد هداه تفكيره وبحثه إلى أن هناك في النمسا عملة قديمة معطلة ضربت في عهد الملكة ماريا تريزا سنة ١٧٨٥ أي منذ قرنين من الزمان فبعث واشتراها جميعاً وجعلها عملة رسمية في بلاده .

ووحدة هذه العملة هي الريال وهو قطعة نحاسية كبيرة مستديرة مفضضة اللون مرسوم على أحد الوجهين صورة الملكة ماريا تريزا ومكتوب على الوجه الآخر بالحروف اللاتينية عبارة « ضرب في النمسا سنة **١٧٨٥** » وهكذا أصبح البلد العربي الاسلامي المستقل يتعامل إلى يومنا هذا بعملة نمساوية تاريخية مرسوم على أحد وجهيها صور امرأة . حقاً إن اليمن بلد عصري متقدم !!!

وأما بقية قطع العملة فهي ربع الريال والبقشة ونصف البقشة والهللة وهذه الأخيرة تساوي نصف مليم مصري غير أن قيمتها الشرائية لا بأس بها . وأظن أنك قد لاحظت أنه لا يوجد نصف الريال ، وهذه القطع التي ذكرتها أغلب ظني أنها مضروبة في اليمن وأغلب ظني كذلك أن الذي ضربها حداد لأنها منبعجة الشكل غير منتظمة الاستدارة بحيث إذا رأيتها مرمية على الأرض ولم

تكن تعلم أنها نقود يمنية لحسبتها قطعاً من النحاس من مخلفات أحد محلات الحدادة .

وقد ذكرت لك أن الريال اليمني النمساوي كبير الحجم ثقيل الوزن ولذلك لا يمكن لانسان أن يضع في جيبه أكثر من ريالين أو ثلاثة وهو بعد ذلك مضطر أن يشكو العبء الثقيل الذي يشعر به فهو بالفعل يحمل أثقالاً .

قد يسألني سائل ويقول كيف كنتم تتسلمون مرتباتكم والحال كذلك ؟ والإجابة على هذا السؤال مضحكة جداً لأننا كنا نتسلم مرتباتنا الكبيرة نوعاً في « أجولة » يعني زكايب وكنا لا نقدر على حملها من بيت المال إلى المنزل فكان الواحد يستأجر حمالاً في أول كل شهر لكي يحمل له الزكيبة التي بها مرتبه ويوصلها إلى منزله .

وكان منظراً عادياً جداً ولطيفاً جداً أن تجد الموظف المصري منا وهو خارج من بيت المال ممتطياً صهوة جواده ويسير من خلفه حمال يحمل شوالاً كبيراً نوعاً فيه مرتبه من الزلط ، والزلط بالاصطلاح اليمني يعني النقود ولا شك أنها تسمية موفقة لأن النقود اليمنية لثقل وزنها تكاد تكون حجارة أو زلطاً .

وإني لا أكتم قارئي أننا كنا نخجل من هذا المنظر في أول كل شهر لأننا كنا نحس نظرات الحرمان والفاقة في عيون الناس ، ولعل هذه العيون المحرومة قد نفذ سهمها فينا لأن كل ما ادخرناه من أموال نتيجة كفاحنا وعملنا قد سرقه اللصوص من رجال القبائل حينما هاجموا صنعاء ونهبوها في نهاية الثورة الكبرى .

قراقوش اليمن

إن اليمن تحكم على طريقة قراقوش الذي ابتليت به مصر في فترة من تاريخها إذ ليس في اليمن قضاء وإنما القاضي الأول والأخير هو الإمام .

حقيقة أن كل من يقرأ ويكتب يطلق عليه لقب « القاضي » إلا إذا كان من نسل الرسول فإنه يطلق عليه لقب « السيد » ولكن القاضي لقب شرف فهو لا يزاول مهنة القضاء وإن زاولها فإنما يزاولها بطريقة عجيبة مضحكة مبكية ليس هنا مجال لذكر تفاصيلها .

المهم ان الإمام هو الذي يتولى القضاء ويسمع الشكايات ، يسمعها في القصر وفي الشارع وفي الحقل وإليك القصة التالية :

كنت ذات صباح متكئاً في مخدعي ببيت الضيافة في تعز أتصفح كتاباً أستعين به على قتل الوقت الممل الطويل الذي لا أزاول فيه أي عمل ، وإذا بصياح استغاثة متصل مزعج يطرق سمعي بشدة وعنف ، فوثبت من مكاني دون وعي نحو النافذة أستطلع الخبر وأستبين الأمر ، فرأيت منظراً غريباً عجيباً مضحكاً ومبكياً . كان المنظر عبارة عن سيدة يمنية ريفية تركض في الطريق العام وكأنها فرس أصيلة تسابق الريح وهي تصدر هذه الصيحات ، يطاردها أربعة من الجنود يجرون خلفها ما وسعتهم السرعة بغية اللحاق بها ، غير أن الشقة كانت تتسع شيئاً فشيئاً بين الوحوش وفريستهم فظللت أتابع السباق الرهيب ببصري حتى غابوا جميعاً عن الأنظار .

وبحكم غريزة حب الاستطلاع سألت العالمين ببواطن الامور عن حقيقة القصة فعلمت ـ ويا سوء ما علمت ـ أن هذه السيدة المسكينة ذهبت في الصباح الباكر تشكو زوجها الذي ضربها إلى سيف الإسلام أحمد (الإمام الحالي) الذي ارسل بدوره يستدعي الزوج لتأديبه . وجيء بالزوج المسكين

ومثل أمام الأمير الذي كان يقف على قارعة الطريق بجوار بئر عميقة ثم أخذ سمـوه يتولى تأديب الرجل بطريقته الفريدة التي بدأت بالتأنيب ثم الشتم ثم الضرب والزوج المسكين لا يحرك ساكنا ، ثم أكمل سيف الاسلام عملية التأديب بأن دفع الرجل بكلتا يديه إلى حافة البئر فهوى المسكين إلى الاعماق ، الاعماق التي تبلغ ثلاثين مترا على الاقل . وهكذا جيء بالرجل لكي يتأدب أو على أسوأ الفروض يتعذب فإذا به يلقى حتفه والامير غارق في قهقهة طويلة .

غير أن الزوجة التي ترملت في غمضة عين وفقدت زوجها في لحظة قصيرة انفجرت في وجه الأمير صائحة : جئت أشكوه لكي تؤدبه لا لكي تقتله . فما كان من سموه الملكي إلا أن صاح كالاسد الهصور : ألقوا بها في البئر لكي تلحق بزوجها بنت الـ . . . (أرجو من القارئ أن يعفيني من ذكر اللفظ) وهنا رأت المرأة حتفها بعيني رأسها وبحركة غير ارادية اطلقت ساقيها مع الريح وهي تولول وتصيح تلك الولولة التي مزقت سمعي .

ولعلك مشوق ايها القارىء لأن تعرف مصير المرأة . إني مطمئنك فإن الجنود الاباة الشجعان المغاوير البواسل لم يتمكنوا من اللحاق بها لأنها فرت منهم في شعاب الجبال . فهل تشك بعد ذلك أنني رأيت قراقوش العصر الحديث عيانا بيانا جهارا نهارا في اليمن السعيد !! .

٤

العلمونورث

لعلك فهمت من هذا العنوان أيها القارىء اللبيب أنني اقصد الحديث عن طرف من حياة العلم والثقافة في اليمن السعيد ، وما تقوم به الحكومة المتوكلية من سهر على فتح المدارس المختلفة ، والجامعات العديدة والكليات الفريدة لكي تعلم الشعب وتثقفه .

وما كنت لاكتب في مثل هذا الكتاب شيئا عن العلم والتعليم في اليمن محافظة على شعور اخوتي واصدقائي من الشعب اليمني المجيد ولكني لا أرى في شرح هذا الامر اية غضاضة ، فلعل ذلك ينبه المسئولين إلى تلك العورة القبيحة ، عورة شيوع الجهل وتفشي الامية .

ولعل الذي دفعني إلى كتابة هذا الفصل دفعا شديدا هو ذلك التصريح الجريء الكاذب الذي صرح به رئيس وزراء اليمن السابق سيف الاسلام الحسن لمندوبي الصحافة المصرية والاذاعة العالمية حين سئل عن نسبة التعليم في اليمن فأجاب بكل جرأة وفي غير خجل أنها مائة في المائة ، فلما سئل عن نسبة التعليم بين النساء أجاب في جرأة أشد أنها ايضا مائة في المائة ، ومعنى تصريح السيف الهمام أنه لا يوجد في اليمن أمي واحد . وله الحق أن يقول ذلك لأن اليمن مغلق ولا يستطيع انسان ـ مهما بلغ قدره ـ أن يسافر اليه كسائح أو كزائر ، وما دام الامر كذلك وأن احدا لن يتمكن من

كشف النقاب عن هذه الفضيحة الكبرى التي نشرت في جميع الصحف المصرية وكانت مثار الضحك والسخرية والاستهزاء ، ما دامت اليمن مغلقة فلا بأس على الوزير الأمير أن يلقي بأكاذيبه في وجه من يريد ولو كانت الصحافة المصرية والعربية ودور الاذاعة العالمية .

إن هذه الجرأة على الحق والتضليل على الشعوب العربية شقيقة شعب اليمن هو الذي دفعني إلى كشف النقاب عن حالة التعليم في اليمن .

كتاتيب قليلة ومدارس أقل

ينتشر في القرى والمدن اليمنية بعض الكتاتيب التي تلقن بعض آيات القرآن الكريم وتحفظها للاولاد دون تعليمهم القراءة والكتابة ، وليتها تحفظهم القرآن جميعه حتى بدون قراءة أو كتابة ، بل تكتفي ببعض الآيات التي تقرأ بطريقة سقيمة منفرة . ومن العجيب أنه لا يوجد في اليمن كلها حافظ واحد للقرآن الكريم .

اما المدارس فهي ابتدائية وثانوية ومعلمين ، والمدرسة العلمية . والمدارس الابتدائية عددها خمسة موجودة في صنعاء والحديدة وتعز وزبيد وذمار والتعليم فيها لا يتعدى مستوى رياض الاطفال في مصر مع فارق الترتيب والنظافة .

والمدارس الثانوية ثلاث واحدة في صنعاء وأخرى في الحديدة وثالثة في تعز . والمفروض أن تكون مناهج التعليم فيها كمناهج التعليم الثانوي على النظام القديم في مصر ، نظام الخمس سنوات ، ولكن مستوى التعليم في تلك المدارس لا يتعدى مستوى المدارس الابتدائية في مصر . ومن العجيب أن الدراسة تنتهي عند الفرقة الثانية الثانوية وبعد ذلك يتخرج التلميذ ويترك في الشارع أو الحقل لكي ينسى الجزء اليسير الذي تعلمه .

اما مدرسة المعلمين فهي مدرسة واحدة توجد في نفس المبنى الذي به المدرسة الثانوية في صنعاء . ومستوى التعليم فيها كمستوى التعليم في المدرسة الثانوية مع استبعاد اللغة الانجليزية .

واما المدرسة العلمية فهي مدرسة دينية تشبه معاهد الازهر في مصر وفيها يتعلم الطلبة فقه المذهب الزيدي بالاضافة إلى علومه العربية .

التلميذ اليمني مفرط الذكاء

والتلميذ اليمني مفرط الذكاء على جانب كبير من الادب واحترام اساتذته وتوقيرهم والتعلق بهم فضلا عما فيه من فضيلة الوفاء ولا زال تلامذتي من اليمنيين الذين يتعلمون في مصر يتحايلون على الاتصال بي رغم التعليمات الصريحة الصادرة اليهم بأن كل من يتصل بي تقطع بعثته ويعاد إلى اليمن مغضوبا عليه .

والبرامج في اليمن مرتجلة وقد حاولنا اصلاحها ما وسعتنا الحيلة لكي نخلق جيلا واعيا من التلاميذ ولكن السلطات العليا كانت تتدخل لإفساد كل الاصلاحات التي اردنا ادخالها .

ونظام المدارس داخلي وشبه عسكري . والتلاميذ يرتدون الجلابيب الكاكي الصفراء كما يضعون على رؤوسهم عمائم صفراء وينامون في المدرسة على الارض متجاورين ملتحفين بغطاء واحد مما يسبب الفساد الخلقي والصحي .

والاعجب من ذلك أن التلميذ الذي يأتي ذنبا ولو كان صغيرا تقيد قدماه في الحديد كأنما هو مجرم في ليمان طرة أو أبي زعبل في مصر . وقد شاهدت تلميذا عندي في حجرة الدراسة مقيدا بهذا الشكل فنهرت ناظر المدرسة وفككت قيد الصغير البريء وحرّمت هذا اللون من العقاب طيلة فترة وجودي في اليمن .

الإمام ينذرني لخروجي عن الدرس

والتلميذ اليمني تواق لأن يعرف كل شيء عن البلاد العربية بصفة عامة ومصر بصفة خاصة ، فكنت ألقى من التلاميذ طوفانا من الاسئلة اجيب عن المناسب منها وأتخلص بلباقة عن الاجابة عن الاخرى ، فكنت اسأل مثلا عن البرلمان وعن الجامعات وعن الترام ومباني القاهرة وشوارعها إلى غير ذلك .

وذات يوم عدت إلى منزلي من قصر الإمام وكنت اتردد عليه أكثر ايامي بناء على طلبه ، فوجدت مظروفا فضضته وإذا بي أجد انذارا شديدا موجها إليّ من الإمام نظرا لخروجي عن الدرس وتشويش عقول التلاميذ بما لا يفيد من المعلومات . عرفت في الحال أن الإمام يقصد المعلومات العامة التي أزود بها التلاميذ كاجابة لاسئلتهم الكثيرة وعرفت أيضا أن الجاسوسية منتشرة في المدرسة والا كيف يصل إلى سمع الإمام ما يشرح في المدرسة من دروس .

وفي اليوم التالي كنت كالعادة جالسا عند الإمام ففتحت الحديث معه في جد مصحوب بخشونة وأفهمته أنه كان من الممكن أن يناقشني فيما وصل إلى سمعه من خروج على الدرس لا أن يكتب انذارا غير مهذب ويرسل به إلى منزلي في الوقت الذي أنا حاضر فيه مجلسه .

ومنذ ذلك التاريخ وأنا أمعن في تثقيف التلاميذ والخروج بهم عن الدرس فتلاحقت الانذارات وتلاحقت مني الردود العنيفة المكتوبة حتى لقي الإمام مصرعه .

وكان نتيجة طريقتي الخاصة في تربية التلاميذ أن هرب اكثرهم من اليمن رغم صغر اعمارهم وجاءوا إلى مصر مغامرين وهم اليوم يفرحون الفؤاد بعددهم الوفير المنتشر في المدارس الاعدادية والثانوية والجامعات .

امتحنت واعظا للقبائل

كنت جالسا في المدرسة الثانوية ذات يوم وإذا بمدير المدرسة يدخل إليّ حاملا ورقة في يده وقدمها إلي فعرفت أنها مرسوم من الإمام بتكوين لجنة فنية برئاستي وعضوية مدير المدرسة كعضو يمين ومدرس الدين كعضو شمال . وكانت مهمة اللجنة امتحان أحد المواطنين حتى يلحق بعمل واعظ بين القبائل المتنقلة .

دهشت لهذا الاختيار العجيب فما كنت يوما رجل دين خاصة وأن معلوماتي الدينية تكاد تكفيني وحدي لكي أتعبد بها وأتقرب إلى الله .

المهم أني رأست اللجنة مضطرا وجيء بالرجل المرشح لوظيفة واعظ فإذا هو جلف من أجلاف الاعراب قميء المنظر مخيف الشكل ودار بيني وبينه الحوار الأتي :

ـ ما اسمك .

ـ زيد الخولاني .

ـ كم عمرك .

ـ عندي ثلاثة أولاد .

ـ أقول كم عمرك ولا أقول كم عدد اولادك .

ـ ما أدري ولكني تزوجت منذ خمس سنوات تقريبا .

ـ ما علينا ، هل تحفظ القرآن الكريم .

ـ أحفظ بعض الآيات والسور القصيرة .

ـ اسمعني و « الشمس وضحاها » .

فاسمعني الرجل قرآنا جديدا لم ينزل على محمد ولكن لعله القرآن الذي نزل على مسيلمة الكذاب فضحكت واعتبرت الأمر نوعا من الترفيه ، ثم

سألته عن الفاتحة فقرأها والحق يقال قراءة صحيحة سليمة ولم يخطىء فيها غير مرتين .

ثم بدأت أسأله في مبادىء الفقه على اعتبار أنه سيكون واعظا يعلم القبائل أمور دينهم فقلت له : ما هي فرائض الوضوء ففكر قليلا ثم قال : غسل الوجه قلت : عظيم ثم ماذا ؟ قال واليدين حتى المرفقين قلت : لا بأس ، ثم ماذا ؟ قال : والقدمين حتى الكعبين . قلت نسيت فرضا هاما . قال : ما نسيت شيئا قلت : لا بل نسيت المسح على الرأس قال : ليس هذا بالشيء المهم . وبعد ذلك سألته عن نواقض الوضوء ومبطلات الصلاة وغير ذلك من المبادىء التي يعرفها الاولاد الصغار فكانت معلوماته فيها لا تزيد عن معلوماتي في اللغة الكنعانية . كل ذلك والعضوان المحترمان لم ينبسا ببنت شفة .

طلبت إلى الطالب النجيب وواعظ المستقبل أن ينصرف فألح علينا في معرفة النتيجة فصرفته بإحسان وقلت له غدا تعرف إن شاء الله، ثم اتجهت نحو العضوين وسألتهما الرأي فقالا في نفس واحد وكأنهما على اتفاق : ناجح . فكدت أشد شعري غيظا وأصررت على اسقاطه فأصرا على انجاحه ، فما تزحزحت عن موقفي ، وأخيرا عرفت السبب ، إنه أحضر لهما بعض الهدايا من سمن القبائل وعسلها ، وأرادا لكي أسهل المهمة أن يبعثا إليّ بنصيبي فعنفتهما فرفعا إلى الإمام تقريرا مضادا لتقريري أشّر عليه الإمام بالموافقة ونجح الطالب النجيب وعين واعظاً كبيراً، أما تقريري وتقديري فقد ضرب بهما عرض الحائط . واعتقد أن الواعظ الذكي لا يزال يضلل الناس في دينهم حتى اليوم بفضل عضوي اليمين والشمال واعتماد أمير المؤمنين لتقريرهما ورفضه لتقريري الواضح الفاضح .

وقبل أن انتهي من هذا الفصل أعتقد أن في ذهنك سؤالين مهمين تريد أن تستفسر عنهما ، سؤال عن مدى تعليم المرأة في اليمن ، وسؤال عن الصحافة في اليمن .

الواقع أن المرأة اليمنية غير متعلمة ، ونسبة التعليم بين النساء إن وجدت لا تزيد على واحدة بين كل الف امرأة ، وحتى هذه الواحدة لا يزيد تعليمها عن مجرد حفظ آيات قليلة من القرآن الكريم وبعض الشئون الدينية الهامة كالوضوء والصلاة ومفطرات الصيام وهي عادة تلقن هذه المعلومات في منزلها بواسطة احدى النساء أو عن طريق شيخ كفيف .

وأما الصحافة في اليمن فغير موجودة على الاطلاق اللهم إلا صحيفة واحدة حكومية تشبه الوقائع المصرية في أول عهد مصر بالصحافة ويقتصر ما بها من أخبار على ترقية عسكري من رتبة نفر إلى أومباشي أو ترفيع ضابط من ملازم إلى يوزباشي أو نقل عامل من مدينة إلى أخرى . وأما الصحافة بمعناها العام المعروف في البلاد المتمدينة من تناول موضوعات سياسية وأدبية وأخبار دولية فمعدومة تماما ، ويعتمد اليمنيون في معرفة أخبار العالم على سماع محطات الاذاعة الخارجية .

أما محطة الاذاعة اليمنية فإنها تشتغل مرة واحدة كل اسبوع لمدة نصف ساعة وذلك بعد صلاة المغرب من كل يوم خميس ولا تزيد مهمتها عن الاخبار التافهة التي تنشرها الجريدة الرسمية وليس من برامجها الغناء أو الموسيقى أو المشاركة في الثقافة العامة .

وقد عملت مديرا لمحطة الاذاعة اليمنية في اثناء الثورة الشعبية الكبرى فاضطررت لأن اجعل المحطة تعمل يوميا لمدة اربع ساعات وكنت في تلك الفترة أقوم بدور المذيع والمقرىء والمطرب ومؤلف نشرة الاخبار ومذيع الاحاديث ومورد المحاضرين وقد لعبت هذه المحطة الصغيرة دورا عظيما ابان الثورة التي لم يكتب لها النجاح للاسباب التي سنتناولها بالتفصيل فيما بعد .

وبعد فلا تظن أن الشعب اليمني جاهل بطبعه وانما هو محروم من العلم بواسطة مؤامرة عنيفة فرضها عليه حكامه المحدثون ، فليس الشعب اليمني بغريب على العلم والمدنية والحضارة ، وليست الحضارة والمدنية بغريبتين عليه ، بل ان اليمنيين أول من أنشأوا الجامعات أيام كانت اوربا غارقة في

ظلمات الجهل فكانت مدينة زبيد في عهد الرسوليين عاصمة للنور وكان بها جامعة صغيرة وقد كانت تسير على احدث ما هو معروف اليوم في نظم الأستاذية فكانت مراتب المعلمين تبدأ من المعيد إلى الأستاذ، وكذلك كانت مدينة تعز مركز اشعاع للحضارة والنور والعرفان لجنوب اليمن كله ، فإذا ما عاشت اليمن اليوم في ظلمات الجهل البغيض فليس مرد ذلك إلى الشعب اليمني نفسه ، ولكن لنظم الحكم الفاسدة الجاهلة هناك ، التي تعتقد أن تعليم الشعب يسيء اليها وإلى مركزها مع أن العكس هو الصحيح ، فخير للحاكم أن يكون أميرا على شعب من العقلاء المستنيرين من أن يكون أميرا على دولة جاهلة متأخرة .

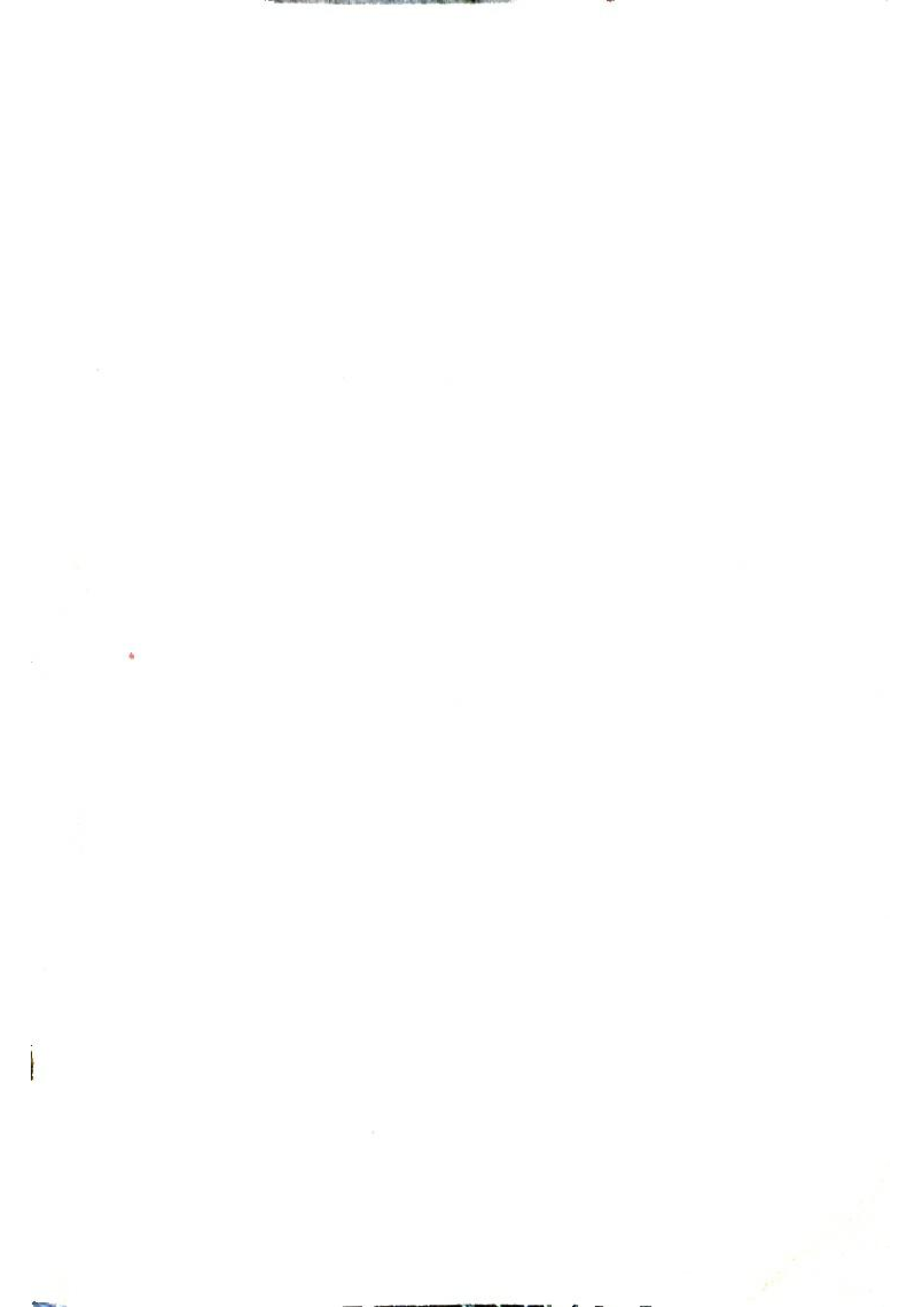
إن مشاعل النور وحملة المعرفة الذين يغترفون من العلم ويعبون مناهل الثقافة في معاهد مصر وجامعاتها عائدون قريبا إلى اليمن المجيد حيث يضيئون الطريق ويحملون المشاعل ويزيحون من طريقهم كل داعية للتأخر وكل زنديق متآمر على تقدم الشعب . إن وعي الشعوب كالطوفان يكتسح كل ما يصادفه من سدود ولو كانت قصور تعز أو قصور صنعاء .

إن الحكومة اليمنية كانت تستورد الاساتذة المصريين ذرا للرماد في العيون وايهاما للسذج أنها ساهرة على تثقيف الشعب وكانت في نفس الوقت تعطل هؤلاء الاساتذة وتحول بينهم وبين أداء مهمتهم ، وإذا كانت قد وفقت في مؤامرتها ضد العلم ورسل العلم القادمين من الخارج ، فإنها لن توفق بأي حال من الاحوال في منع هذه المجموعات الضخمة من الشباب اليمني الزاحف من مصر إلى وطنه الحبيب معلنا راية العصيان على كل داعية إلى الجهل أو سائر في طريق الرجعية .



٥

شعب بلا مواصلات
وبريد يحمل على الإبل



إن علماء الاجتماع لهم مقاييس معينة ، إذا ارادوا أن يحكموا على مدى ما أصابت دولة من خطوات في سبيل التقدم أو ما خطته في سبيل التأخر ، ومن هذه المقاييس طرق المواصلات ، وإذا ما طبقنا هذه النظرية على اليمن الشقيق وجدناه يأتي بكل أسف في مؤخرة الشعوب المتخلفة فليس فيه طريق واحد معبد بالرغم من طول المسافات واتساع الرقعة ، فالمسافة بين عدن وتعز لا تزيد على سبعين كيلومتراً تقطعها السيارة في اربع عشرة ساعة والسبب في ذلك هو عدم وجود طريق معبد يربط بين البلدين ، والمسافة بين تعز والحديدة لا تزيد على مائة وستين كيلو مترا تقطعها السيارة في ثلاثة أيام والمسافة بين الحديدة وصنعاء العاصمة لا تزيد على مائة وعشرين كيلومتراً ومع ذلك فإن السيارة تقطعها في ثلاثة ايام . والسبب في ذلك كله كما ذكرت هو عدم وجود أي طريق معبد ولو كانت الحكومة الحالية التي تستنزف مال الشعب قد عبدت طريقا واحدا لانخفضت المسافة الزمنية إلى ساعة سفر مقابل كل يوم .

ولما كانت الطرق من السوء بحيث تعرض المسافر للهلاك ـ ولعلك قرأت وصفها في الصفحات السابقة ـ فإن الشعب يحجم عن استعمال السيارات في تنقلاته ويفضل الابل استهدافا للسلامة وهربا من التعرض للاخطار التي تؤدي إلى موت محقق . ولذلك فإن عدد السيارات التي توجد

في جميع القطر اليمني مهما تعددت أنواعها ما بين نقل (حمل) وسيارات ركوب لا يتجاوز عددها جميعاً ستين سيارة . ولعل هذا العدد هو أقل عدد لسيارات في أية دولة من الدول . ولو كانت هذه الدولة هي سيام . إن بعض القرى المصرية تقتني من السيارات أكثر مما تقتني الدولة المتوكلية اليمنية . وما ذلك إلا لسوء الطرقات وفساد حالتها . وللفقر المدقع الذي تستهدفه الحكومة المتوكلية نحو السكان .

البريد تحمله الجمال

وما دام الامر كذلك وحالة الطرقات بهذا السوء ، فإن البريد ينقل بالإبل فيصل الخطاب من عدن إلى صنعاء في خمسة عشر يوما ، وكان يجب أن يصل في يوم واحد .

هذا إذا سار الخطاب سيرا طبيعيا وهو أمر شاذ ، إذ الحادث أن أكثر الخطابات تصل في شهرين أو ثلاثة وبعضها لا يصل اطلاقا ، وتفصيل ذلك أن الجمل يقوم من عدن مثلا محملا بالبريد والطرود الخفيفة حيث يستريح في الطريق عدة مرات ، فإذا أحس الجمال أن الحمل ثقيل نوعا ترك جزءا من الحمولة في أحد المحطات وأجله للمرة القادمة ، وفي المرة القادمة إن كان الحمل خفيفا اخذ ما تركه وأوصله إلى الجهة المطلوبة ، أما إذا كانت الحمولة ثقيلة مثل المرة الماضية ترك جزءا آخر بالاضافة إلى الجزء الذي تركه في المرة الماضية .

وهكذا بعض الخطابات تصل في خمسة عشر يوما وهو أسرع وقت لوصولها وفي هذه الحالة يكون صاحب الخطاب سعيدا محظوظا ، فإذا كان حظه أقل درجة تأجل خطابه لضعف المدة ، اما بقية الخطابات فإنها تظل تتراكم في الطريق فيضيق بها الموظف المختص واخيرا يتخلص منها بأن يشعلها لكي يستدفىء بها إن كان الوقت شتاء ، أو يشوي بها بعض الصيد إن كان الوقت صيفا .

ولطالما قاسينا الامرين اثناء اقامتنا في اليمن ، فكانت تنقطع عنا أخبار عائلاتنا بالشهور وكان السر هو تخلف الخطابات في طريق القوافل حيث تصبح آخر الأمر وقودا للشيطان .

والرقابة على الخطابات الواردة من خارج اليمن أمر طبيعي ، فلا يكاد يصلك خطاب من الخارج إلا وتجده مفتوحا . وما ذلك إلا لأن الحاكمين

شاعرون بضعف مركزهم والخطر المحدق بهم نتيجة طغيانهم ولذلك فهم يتوجسون خيفة من كل شيء مهما كان تافها .

وما دمنا قد تحدثنا عن البريد فلا بأس أن نشير إلى التليفون والبرق . فأما التليفون فإنه موجود في اليمن للاتصال بين البلاد بعضها بالبعض الآخر اتصالا حكوميا ، أما التليفون كشبكة داخل المدينة يصل الدواوين والمتاجر والمنازل بعضها ببعض فهذا شيء غير معروف في اليمن ولم يسمع به هناك .

وأما نظام البرق فهو غير معروف إلا في صنعاء وهو مخصص للاتصال الخارجي فقط أي الاتصال بالاقطار الخارجية .

وبهذه المناسبة أذكر أن اليمن تملك طائرة واحدة يستعملها الإمام احيانا في تنقلاته الداخلية كما تستعملها الحكومة في التنقلات الخارجية ، وكان استعمالها إلى عهد قريب مقصوراً على أفراد الاسرة المالكة وحسب ، أما الشعب فكان ممنوعا من ركوبها أو ركوب أية طائرة مهما كانت جنسيتها . والحجة في ذلك أن الشعب ممنوع من أن يطير في السماء في وقت يكون الامراء فيه على الارض لأن مكانتهم لا تعلو عليها مكانة أخرى .

أقسم أن هذا الكلام قد سمعته من أحد سيوف الاسلام في مجا! الحديث عن ركوب الطائرات وقد اضطررت ازاء حماقته وسخافة أفكاره أن أسخر منه واهزأ به أمام جمع من اصدقائه .

إن هذه العقلية هي التي تحكم اليمن ، العقلية التي ترى أن أحدا من الشعب لا يصح أن يركب الطائرة حتى لا يعلو في السماء بينما يكون احد الامراء جالسا على الارض .

وما دمنا قد تحدثنا عن الطائرة اليمنية فإن من الانصاف للقوم أن نتحدث عن يتيمة أخرى تمخر عباب الماء وهي الباخرة الوحيدة التي تملكها الحكومة اليمنية ولا تؤدي عملا ما اكثر من مجرد رمز للبحرية اليمنية .

إن الإمام احمد وجد الدول الكبرى تقتني الطيارات فاقتنى طيارة طياروها من الاجانب ، ورأى أن الدول الكبرى تملك السفن والبواخر فاقتنى

باخرة ورفع عليها العلم اليمني ، فكان بذلك اضحوكة الاضاحيك . أنا افهم أن تملك اليوم اسطولا من الطائرات واسطولا آخر في السفن ، اما أن تملك من كل صنف عينة ، فهذا أمر يدعو إلى الهزء والسخرية .

وعلى كل حال فليست البحرية المنظمة القوية غريبة على شعب اليمن فلقد كان الشعب اليمني في القرنين السابع والثامن الهجريين يملك أقوى بحرية حربية وتجارية في الشرق الاوسط جميعه . وطالما خاضت سفنه المعارك الحربية في بحر العرب والمحيط الهندي . ولطالما سافرت سفنه التجارية حتى وصلت شواطىء الصين وربطت بين البلدين برباط تجاري اقتصادي متين وكان الامبراطور الصيني والملك الهندي يرسلان إلى سلطان اليمن كثيرا من الهدايا اعترافا بقوة شكيمته وعظمة بحريته .

وإن العهد الذي ستملك فيه اليمن بحرية قوية وموانىء مجهزة مستعدة ليس ببعيد فالشعب زاحف في الطريق .

٦

الحالة الصحيّة في اليمن

أمراض متوطنة دائمة

إن إهمال الحكومة اليمنية للحالة الصحية في البلاد إهمال ليس له نظير في أي دولة من دول العالم ، إنها تحارب الشعب بدلاً من أن تحارب الأمراض ، وتكافح المخلصين بدلاً من أن تكافح الميكروبات التي تودي بالآلاف العديدة من اليمنيين كل عام .

فالملاريا والدوسنطاريا تنتشر بشكل وبائي في تعز وزبيد وتهامة كلها والطاعون الدملي ينتشر في الشمال وقد ازداد منذ بضع سنوات ازدياداً رهيباً قضى على الألوف وكاد ينتشر ويزحف إلى جموع الحجيج في الأراضي المقدسة .

هذا فضلاً عن الأمراض التناسلية المتفشية بين كثير من السكان والتي يزداد خطرها ويتسع انتشارها لعدم وجود أطباء أو مستشفيات أو عيادات خاصة .

ولا زلت أذكر بعض المصريين الذين عاشوا فترة في اليمن للتدريس في مدارسها وعادوا جميعاً مرضى بالملاريا الخبيثة حتى أن بعضهم ظل طريح الفراش في مستشفى قصر العيني سنة كاملة .

أما الجدري فلكثرة انتشاره وغزارة ضحاياه قد أصبح شيئاً عادياً في اليمن . إن اليمني يصاب بالجدري كما يصاب المصري بالزكام ، وهكذا تحصد الأمراض عشرات الآلاف حصداً ومن هو على قيد الحياة تراه ممتقع اللون أصفر الوجه نحيل الجسم سقيم التكوين .

العلاج بالتمائم

والحكومة اليمنية لا تؤمن بالأطباء ولا بالعلاج الحديث وترى أن الأطباء يفدون ومعهم الثورة ، كما ترى أن العلاج الحديث رجس من عمل الشيطان ، ولذلك فقد شجعت الشعب على العلاج بالتمائم ، وقد شاهدت بنفسي تمائم كان يكتبها الإمام يحيى ملك اليمن لكي تستشفي بها الرعية ، وحتى يكون العلاج ناجحاً كان يتقاضى عن كل حجاب (تميمة) نصف ريال يمني .

إنه ثمن رخيص ولا شك لأنه يشتمل على الكشف والدواء معاً!!! حبذا لو سارت الدول المتمدينة على هذا المنوال وترسمت خطى الإمام الطبيب العظيم فربما ينزاح الثقلاء من العالم ويعيش الباقون عيشة رخية رغيدة . .

الحكومة تقتل الأطباء

لا يوجد في اليمن أكثر من مستشفيين أحدهما في الحديدة والآخر في صنعاء ولكنهما مستشفيان بلا أطباء بل يستعملان كثكنتين للجيش، فإذا زار اليمن أجنبي كبير سارعت الحكومة إلى طرد الجنود ورصت السراير وصنعت بعض الديكور الداخلي فيعود المبنى بقدرة قادر إلى مستشفى كبير .

وعلى عهدي باليمن كان في الدولة كلها ثلاثة أطباء . واحد في الحديدة وكان اسمه ميروتشي[1] وكان إيطالي الجنسية وإثنان في صنعاء أحدهما إيطالي وإسمه روسي وكان أفاقاً لا يحمل شهادة في الطب ومع ذلك كان يزاول المهنة ويجري عمليات جراحية ، والثاني فرنسي وكان إسمه ريبوليه وكان طبيباً ممتازاً . أما الايطالي فقد ترك اليمن نهائياً بعد أن جمع ثروة طائلة . وأما الفرنسي فقد أرسلت إليه الحكومة من يقتله طمعاً في ماله ثم تبين بعد ذلك أن هذا الطبيب العظيم العجوز المسكين كان يتقاضى مرتباً إسمياً يحسن بأكثره على المساكين والفقراء .

ولقد عرفت هذا الطبيب العظيم عن قرب ولمست براعته في فنه ورقة أخلاقه فقد كان أقرب إلى التصوف منه إلى طبيب وإلى ملاك منه إلى إنسان[2]

---

(١) جرت قصة عجيبة لهذا الدكتور حيث أمره سيف الاسلام الحسين الذي اعتقد أنه قد تأثر بزيارته لروما وطوكيو وأمر الدكتور بتخدير مواطن وقطع يده . فرفض الدكتور لأن اليد سليمة ١٠٠٪ فقال له الحسين إن في هذه العملية تطوراً حضارياً لأن يد المواطن ستقطع بالطريقة البدائية عند الجزار إذا لم تقطعها أنت بالتعقيم والمخدر والنظافة فقال الدكتور بحدة : أنا أصلحها إذا كانت مقطوعة ولا أقطعها إذا كانت سليمة ولا تهمني إجراءاتكم الخاصة .

(٢) الحقيقة أن ريبولي مات بعدن بعد مرض طويل ولم يقتل وكان فاضلاً وقديراً جداً .

وأما معرفتي بهذا الطبيب فترجع إلى أن زوجتي قد سقط على يدها إناء به زيت مغلي فاستغثت بأحد الرسميين اليمنيين ـ وكنت حديث عهد باليمن ـ لكي يرسل لي طبيباً ، وإذا بي أفاجأ بممرضة إيطالية تفد إلينا وهي تعرض خدماتها بناء على طلب اليمني الكبير ، وظلت تعالج الحرق أكثر من شهر حتى كادت يد زوجتي تتشوه تماماً .

وأخيراً طلبت من اليمني الكبير أن يرسل إلينا طبيباً لإنقاذ الجرح غير أنه استنكر مني هذا التصرف ، إذ كيف يرى طبيب زوجتي ، فأفهمته أن تقاليدنا في مصر لا تقف عند حد العلاج ولكن لا يأس عندنا من أن يتولى الطبيب توليد السيدات ، وأفهمته كذلك أن زوجتي لو قدر لها أن تلد في اليمن فلن يولدها إلا طبيب . إستنكر الرجل كلامي فذهبت بنفسي إلى الدكتور ريبوليه وقصصت عليه القصة ورجوته أن يسارع إلى إنقاذ المريضة وفعلاً استجاب الرجل في الحال وكشف على الجرح بعد أن تعفن نتيجة جهل السيدة الايطالية ، وظل الرجل يوالي العلاج يومياً ويتردد علينا في المنزل لمدة تزيد على شهر حتى التأم الجرح التئاماً كلياً .

وأخيراً عرضت عليه مبلغاً من المال كأتعاب له ، فنظر الرجل إلي نظرة كلها عتاب وقال لي بالفرنسية المهذبة : نحن نعالج من لا يستحقون الحياة مجاناً فكيف بي آخذ منكم ثمن واجب كرمتموني بشرف القيام به .

هذا الطبيب العظيم ذو الخلق الكريم قتله أمراء اليمن طمعاً في ماله ولم يكن لديه مال وإنما كان لديه علم وخلق ومدنية وإنسانية .

ذكرت هذه القصة لأبين العقلية الحاكمة في اليمن ومدى إيمانها بالطب وبالأطباء ، إنهم يحاربون الأطباء ويقتلونهم ويمنعونهم من أداء واجبهم المقدس ، فهل تظن بعد ذلك أن حكام اليمن يعيشون في القرن العشرين .

ومن الأمور العجيبة أن الحكومة اليمنية تسمح بالعمل للأطباء القليلين الأجانب الذين لا يتعدى عددهم أصابع اليد الواحدة لعلمها أنهم لن يقوموا بواجبهم على الوجه الأكمل لأنهم لا يعرفون اللغة العربية ومن هنا يكون

تشخيصهم للمرض تشخيصاً غير كامل فيوفقون في العلاج تارة ويخطئون تارة أخرى . فإذا ما بدأ الطبيب الأجنبي في التقاط اللغة العربية وأصبح من السهل عليه التفاهم مع المرضى وسماع شكاواهم ومعرفة آلامهم ، إذا ما تيسر له ذلك سارعت الحكومة إلى طرده كما حدث مع الطبيب روسي أو إلى قتله كما حدث مع الطبيب ريبوليه .

أما الأطباء العرب فغير مسموح لهم بمزاولة الطب على الاطلاق لأنهم سيفلحون في علاجهم وسيرفعون المستوى الصحي للسكان ، وهذا ما تحاربه الحكومة الحميدية لحرصها على إبقاء الشعب في حالة من المرض والسقم والعلل لكي يسهل حكمه ويتيسر إذلاله .

أنا لا أقول هذا الكلام جزافاً لأني أضع أمام عيني القارىء أسماء أطباء بعينهم وقد ذكرت من الأجانب الطبيبين روسي وريبوليه وأذكر من الأطباء العرب الدكتور ممدوح الذي طردته الحكومة من البلاد وهو يعيش الآن في

عدن ، والدكتور طبارة السوري الجنسية وهو يعيش الآن في سوريا بعد أن أفلت من براثن الاغتيال بأعجوبة .

اللهم ارحم شعب اليمن واكتب له السلامة وأنقذه من جلاديه ، إنك سميع مجيب .

٧

الحالة الاقتصادية في اليمن



شعب جائع والذهب تحت أقدامه

الثروة الزراعية

اليمن بلاد غنية منذ فجر التاريخ وهي صاحبة حضارة كبرى منذ طفولة الزمان حتى العصور الوسطى ، فكانت فيها حضارة التبابعة الذين بنوا قصر غمدان الذي يدل على مدى تقدم العمارة في تلك البلاد في فجر التاريخ ، وعاشت فيها حضارة سبأ تلك الحضارة التي ذكرتها الكتب السماوية والكتب التاريخية والتي أنشأت سد مأرب أول مشروع في الدنيا لاستغلال المياه الضائعة إلى البحر وحجزها خلف السدود للانتفاع بها في الري واستنبات الخير ، واليمن مشهورة بخيراتها طول الدهر وهي جنة الجزيرة العربية ولذلك كان يطلق علّيها في الماضي اسم « اليمن السعيد » وهكذا يطلق عليها اليوم باعتبار ما كان .

واليمن كانت دولة صناعية لها خطرها ، ففيها مناجم الحديد التي استغلها العرب القدامى ونجحت فيها صناعات آلات الحرب خصوصاً السيوف والرماح ولا زال القارئون يعجبون بوصف الشعراء للسيف اليماني ، وكانت اليمن من أولى البلاد التي نبغت في صناعة النسيج وخصوصاً الحرير اليماني ولشعراء العرب العظام أبيات كثيرة في ذلك ، وكانت اليمن مصدر خير

ومستودع صناعة لجميع الجزيرة العربية في الأيام الحوالي .

إن اليمن لا تزال محتفظة بخيراتها ولكنها معطلة ، فالتربة الزراعية فيها تعتبر أكثر بلاد العالم خصوبة ، ولا زالت الأمطار الموسمية تغدق عليها الماء العزيز الهتون كل عام وتجري في شكل سيول عارمة تذكرنا بسيل العرم المشهور الذي صدع سد مأرب لما أهملت صيانته في فترة كئيبة كتلك التي يعيش اليمن فيها اليوم .

ومع التربة الخصبة والماء الوفير فإن المحصولات الزراعية في اليمن هي البن وهو شجر لا يحتاج لكثير من العناية لأنه من فضل الله على اليمن أن جوها وطبيعة أرضها تنبت من تلقاء نفسها أعظم وألذ بن في العالم ، ومن المحصولات الزراعية الأخرى ، الطباق ويزرع بطريقة بدائية ، ولو أمكن الاهتمام به وتحسينه لكان أجود أنواع الطباق في العالم ، هذا بالاضافة إلى الحبوب التي تنبتها اليمن وأهمها الدخن (نوع من الذرة) والحنطة والشعير وبعض الفواكه التي تختلف باختلاف مناخ المنطقة التي تنمو فيها ، ففي المنطقة الحارة المنخفضة ينمو الموز والنخيل والدوم والقشطة والمانجو وتباع بأثمان رخيصة جداً ، وثمار القشطة في الحديدة كبيرة الحجم بشكل غير مألوف لدرجة أن الواحدة منها يبلغ حجمها حجم البطيخة الصغيرة ومع ذلك تباع بمليمين أو ثلاثة ، وثمار الموز ضخمة بحيث أن الثمرة الواحدة يبلغ طولها حوالى خمسة وعشرين أو ثلاثين سنتيمتراً وقطرها يزيد على خمسة عشر سنتمتراً ، وتبلغ من ناحية الوزن ربع أقة على الأقل ، غير أن نسبة الحلاوة فيها قليلة لسوء اختيار وقت القطاف أو لعدم استخدام الأساليب العلمية الحديثة ، وأما المانجو فهي كثيرة جداً ورخيصة جداً ، غير أنها مليئة بالألياف التي تفسد الاستمتاع بأكلها .

وأما فواكه المناطق المرتفعة على الجبال في صنعاء والبلاد التي في مستواها من الارتفاع فتكثر فيها كروم العنب الذي يشتهر بجودة ثماره وغزارة إنتاجه . ولما كان الاستهلاك لا يتمشى مع وفرة الانتاج ، ولما كان اليمن قطراً

إسلامياً فلا تتفق شريعته السمحة مع عصيره إلى نبيذ أو خمور ، فقد فطن الأهالي إلى تحويل الفائض من قطوف العنب إلى زبيب جميل كثير وفير يباع في الأسواق بأرخص الأثمان ، ومن الثمار الوفيرة التي تزيد عن حاجة السكان المشمش ويسمى في اليمن (برقوق خوخ) وشجرة المشمش في اليمن شجرة ضخمة يبلغ حجمها حجم شجرة الجميز في مصر وتعطي محصولاً وافراً لدرجة أن ملء صفيحة ماء بالمشمش لا يتجاوز أربعة قروش مصرية . وقد فطن الأهلون إلى تجفيف المشمش الزائد عن حاجتهم ، ومن ثمار المناطق الجبلية في اليمن الجوز وهو وافر الثمر رخيص الثمن هذا بالاضافة إلى الكمثرى والتفاح والليمون الحلو وغيرها من الفواكه .

قد رأيت إذن أن بلاد اليمن بلاد غنية من ناحية الزراعة ولا تحتاج لكي تنهض في هذا الميدان نهضة كبرى إلا إلى حكومة رشيدة مخلصة تبني السدود بين الجبال المتقاربة لتوفير مياه الري وبذلك تصبح اليمن مخزناً للحبوب يمد الشرق الأوسط كله بالخبز والدقيق ، كما تحتاج إلى مهندسين زراعيين وفنيين في تحسين الفواكه ، مثل الموز والمانجو كما تحتاج إلى فنيين في الصناعات الزراعية لتجفيف العنب والمشمش وصناعة قمر الدين الذي نشكو من ندرة وجوده وغير ذلك مما تتفتق عنه أذهان الفنيين فتصبح اليمن مصدرة للحبوب والفواكه والطباق والصناعات الزراعية فيزيد الدخل وتشتغل الأيدي المعطلة ويرتفع مستوى الحياة ، ولكن أين الحكومة التي تصنع ذلك ؟

الثروة الحيوانية

حدثتك عن الثروة الزراعية في اليمن بشيء من الإيجاز ، وطالما أننا بصدد هذا الوضع العجيب أمام هذه الثروات المعطلة فلا بد لي أن أكشف لك النقاب عن الثروات الحيوانية في هذه البلاد المظلومة المنسية ، إن في اليمن ملايين الرؤوس من الضأن ترعى على سفوح الجبال وفي مغاور الوديان ، والضأن اليمني يمتاز بميزتين عظيمتين ، الميزة الأولى أنه مكتنز لحماً وشحماً وهو لذيذ الطعم خفيف على المعدة رخيص الثمن حتى أن الرأس لا يزيد ثمنه على خمسين أو ستين قرشاً مصرياً ، والميزة الثانية هي وفرة الصوف الذي يغطيه وجودة نوعه بحيث ينافس أصواف استراليا وانجلترا وهذه ثروة نفيسة معطلة ، والأعجب من ذلك كله أن اليمنيين يستخرجون من فراء صغار الضأن الحديثة الولادة نوعاً من الاستراخان الفاخر الذي ينافس استراخان القوقاز وسيبريا والأناضول ويمكن أن يصنع منه معاطف للنساء تنافس أرقى أنواع الفرو . وقد رأيت بنفسي معاطف من فراء الاستراخان اليمني تباع في مدينة أسمرة بسعر المعطف سبعين جنيهاً إنجليزياً والمسألة أيضاً تحتاج إلى يقظة وإخلاص من الحكومة واستدعاء بعض الاخصائيين لاستغلال هذه الثروة الغائبة عن الأنظار .

وأما الضأن الوفير فكثيراً ما تتفشى فيه الأمراض التي تودي بعشرات الألوف منه لأنه لا يلقى أية عناية من الحكومة إذ ليس في اليمن كلها طبيب بيطري واحد مع أن هذه الثروة تحتاج إلى عشرات من البيطريين لكي يحافظوا عليها وينموها ثم تصبح اليمن بعد ذلك من أكثر البلاد تصديراً للضأن وتغزو أسواق الشرق العربي والأوسط بألذ وأطيب أنواع اللحوم .

وفي اليمن أنواع ممتازة من البقر والجاموس الآسيوي ولكنه ليس من الأهمية بمكان من ناحية الثروة الحيوانية إذا ما قيس إلى ثروة الضأن .

وهناك ثروة أخرى على جانب عظيم من الأهمية وهي الخيول العربية الأصيلة الكثيرة التي يمكن الاهتمام بها فتملأ اليمن جميع أقطار الدنيا بخيول السباق والزينة التي يصل ثمن الواحد منها أحياناً إلى ألف جنيه خارج اليمن بينما لا يتجاوز ثمنه في اليمن عشرة جنيهات .

بقيت ثروة حيوانية أخرى معطلة وهي الحيوانات المتوحشة كالقردة والضباع والنسور ، ولعل القارىء يذكر وادي رسيان الجميل المليء بعشرات الآلاف من القرود وقد حدثتك عنه في الطريق بين تعز وحيس ، ولعله يذكر أيضاً تلك القافلة الكبيرة من القردة التي قذفتنا بالحجارة ونحن في ثاني أيام سفرنا بين الحديدة وصنعاء .

إن في اليمن ثروة حيوانية من القردة تعيش في غاباتها بمعزل عن البشر وتتكاثر بالألوف . وإن الدول التي لديها مثل تلك الثروة تستغلها في تزويد حدائق الحيوان في العالم وتجعل منها تجارة رابحة تزيد من دخل الدولة .

وأما النسور في اليمن فهي كثيرة وفيرة وهي كبيرة الحجم ضخمة الأجسام وعلى جانب كبير من التوحش حتى أنها تفترس الرجال وتهاجم قطعان الماشية . وإني أعتقد أن اليمن أغنى بلاد العالم بالنسور ، هذا مع العلم بأن النسر من أقل الطيور إنتاجاً وتفريخاً وهو الذي عناه الشاعر بقوله :

بغاث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلاة نزور

فاليمن منجم كبير للنسور التي تعيش وتتكاثر على القمم في مختلف جهاته وإني محدثك بعد قليل كيف هاجمت النسور مدينة صنعاء بعد إخفاق الثورة الكبرى وكيف كانت تختطف جثث الرجال والأطفال .

وما يقال عن القردة وعن النسور يمكن أن يقال عن الغزلان والضباع ، وهكذا نجد في اليمن ثروة حيوانية ضخمة ثمينة لا تحتاج لكي يحسن استغلالها إلا إلى قليل من التفكير وقليل من الاستعداد الأمر الذي يملأ خزينة الدولة بالمال ويملأ جيوب المواطنين بالذهب فيرتفع مستواهم ويعيشون كما يعيش بنو الانسان في الاقطار المتمدينة الأخرى ، ولكن الحكومة اليمنية

المتوكلية لا يرضيها أن تفكر في ذلك لأن سوء النية متوفر لديها وحرصها على إفقار الشعب هو هدفها الذي تسعى إليه ومقصدها الذي ترتبط به وتحافظ عليه[1].

(١) من الأقوال المأثورة عن الامام يحيى سامحه الله حينما فاتحه الزعيم الثائر الاستاذ الشيخ الفضيل الورتلاني ببؤس الشعب وضرورة التفريج عنه فأجابه « أجع كلبك يتبعك » فأجابه الورتلاني رحمه الله ولكن إذا جاع فقد يأكلك .

الثروة المعدنية

وأرض اليمن مليئة بالكنوز الظاهرة على وجه الأرض ولا أقول في باطن الأرض ، وقد ذكرت لك أن اليمن في عهودها الغابرة كانت أم الصناعات وأن صناعة الحديد بصفة خاصة كانت ذات أثر هام خطير وذكرت لك أن السيف اليماني كان أقوى سيف وأمضى حسام ، كما أن صناعة النسيج خصوصاً المطرز بخيوط الفضة والذهب كان مقصوراً على بلاد اليمن وبلاد الشام .

ولا زالت بلاد اليمن غنية بالثروة المعدنية غنى فاحشاً ، فمناجم الفحم الحجري توجد على وجه الأرض والناس يقتطفون منها على الطريقة البدائية ولو أمكن استغلالها بالطرق الحديثة بعد تعبيد الطرقات وإنشاء ميناء على البحر عند الحديدة لكانت اليمن من أوليات البلدان المصدرة للفحم .

« وفي اليمن كميات ضخمة من النحاس تفوق الكميات الموجودة في جبال البرانس فهي مناجم بكر لم تمسسها يد بشر ، بل إنها ليست مناجم إنها جبال نحاسية ترتفع من سطح الأرض سامقة إلى السماء في منتصف الطريق بين الحديدة وصنعاء . ولقد رأينا هذه الجبال من بعيد وقد كستها خضرة جميلة فظننا أنها مغطاة بالأعشاب فلما اقتربنا منها وجدنا أن هذه الخضرة إنما هي كبريتات النحاس أي صدأ النحاس ، وقد سرنا بالسيارة بمحاذاة هذه الجبال أكثر من ساعتين وأخذنا منها بعض العينات ولما عدنا إلى مصر حللناها لنعرف نسبة ما فيها من النحاس الصافي فوجدنا نسبة ما فيها من النحاس خمسة وستين في المائة ٦٥٪ وهي نسبة عالية جداً تفوق مثيلاتها في أكثر مناجم النحاس في العالم ».

وهكذا يمشي الشعب اليمني على أرض من الذهب بينما هو جائع محروم لا يملك أغلبه قوت يومه لأن حكومته تحول بينه وبين استغلال هذه الكنوز .

ولا يقف الأمر عند هذه الكنوز ، بل هناك كنز آخر يربض على شاطىء البحر الأحمر في شكل جبل من الملح ، جبل من الملح الصافي في منطقة غير بعيدة من الحديدة قدر الفنيون أن به مليوني طن من الملح ولا يحتاج بيعه إلى أي مشقة ولقد عرضت شركات كثيرة مراراً شراء هذه الكمية الضخمة من الملح ولكن حكومة اليمن رفضت . لماذا ترفض هذه الحكومة بيع هذه الثروة النازلة عليها من السماء إنها تساوي مليون جنيه مصري لو افترضنا أن سعر الطن نصف جنيه ، مليون جنيه معطلة تماماً ولا يستغرق بيع الصفقة أكثر من دقيقتين ولا يستغرق نقلها أكثر من ستة شهور بأي حال من الأحوال ، فلماذا ترفض الحكومة المتوكلية بيع هذه الثروة ؟ لست أدري . ولكن لعلها تنتظر حتى تأتي حكومة من الشعب فتنتفع بهذه الملايين التي تنفق على رعاية الشعب ورفاهيته . إذ من يدرينا إلى أي مكان ستذهب هذه الملايين لو بيعت في عهد الحكومة الحالية . أغلب الظن أنها ستنفق في محاربة الشعب وإرهابه .

ذكرت لك ثلاثة أنواع من الكنوز وهي الفحم والنحاس والملح ، لا تظن أن الكنوز الكامنة والظاهرة وقفت عند هذا الحد ، إن هناك كنزاً رابعاً ثميناً ، إنه الذهب الأسود ، إنه البترول ، البترول الذي تغلي به أرض اليمن كالمرجل ، البترول الذي إن لم يستغل فسوف يتفجر من باطن الأرض من تلقاء نفسه ويجري أنهاراً إلى البحر فلا ينتفع به تماماً كما تفقد مياه الأمطار الغزيرة التي تضيع هباء دون أي نفع .

كالعير في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

لقد قامت بعض الشركات الأجنبية من ألمانية وأمريكية تضم علماء البترول الذين أكدوا أن بلاد اليمن أغنى من الكويت والظهران بما يكمن فيها من بترول خام متحفز إلى التفجر والانطلاق إن لم يستخرج بالآلات فسيندفع من تلقاء نفسه وحينئذ قد يصعب السيطرة عليه فيضيع بلا ثمن ولا نفع .

ما السبب في تعطيل هذه الثروات الكامنة ؟ اسأل الحكومة المتوكلية فعندها الخبر اليقين .

اليمن والصناعات الكبرى

لا يخطرن على بالك وقد قرأت هذا العنوان أن باليمن صناعات كبرى ، إن اليمن خالية من أي نوع من أنواع الصناعة ، غير أن هذا العنوان أمل في نفسي وفي نفس كل يمني وفي نفس كل عربي ، إنـه أمل من السهل تحقيقه ، اليمن هذه البلاد الغنية ليس فيها إلا مصنع واحد بدائي لصناعة النسيج والجوارب ،إنـه مصنع يتيم لا يزيد انتاجه الشهري عن عشرات الامتار من الاقمشة الشعبية وعشرات الازواج من الجوارب الرخيصة .

وقد ذكرت لك أن باليمن مناجم ضخمة للنحاس ومناجم ضخمة للفحم وما دامت المعادن موفورة والفحم موفور على سطح الارض حتى أن الاهالي يقطعونه بالفؤوس فمن السهل جدا أن تصبح اليمن دولة صناعية كبرى تعيش في رغد من العيش ويسر وحضارة ، وقد ذكرت لك قبل ذلك أنه من الممكن انشاء آلاف من الصناعات طالما وجد الفحم وتيسر المعدن .

بل إنـه من الممكن الانتفاع من الفحم بتصديره ، وبناء سدود ضخمة لحجز الماء خلفها والانتفاع به في توليد الكهرباء التي تدار بها المصانع فضلا عن ري الاراضي المقفرة المترامية الاطراف .

إن الشعب اليمني شعب ذكي ولا ينقصه إلا التدريب على الصناعات الكبرى تحت اشراف الخبراء الذين يمكن استدعاؤهم من البلاد العربية ، فإذا تعسر ذلك لعدم توفرهم ، أمكن استدعاؤهم من البلدان الصديقة أو الدول المحايدة التي ليس لها مصالح استعمارية .

غير أن الاداة الحاكمة التي تهوى التأخر في مضمار الحياة هي المسؤولة عن ذلك وأخشى أن يكون حسابها عسيرا يوم يزحف طوفان الشعب طالبا الحياة .

تجارة اليمن

ذكرت في صفحات سابقة أن الشعب اليمني شعب ذكي يجيد التجارة وشبهته بالشعب اللبناني في حبه للهجرة ونجاحه في المهاجر التي ذهب اليها وصادف توفيقا كبيرا في تجارته ومشروعاته ، وأن الكثير منهم جمعوا ثروات طائلة في البلاد التي نزحوا اليها ، فلما عادوا بها إلى وطنهم صادرتها السلطات الحاكمة بالتدريج واعادتهم إلى حالة من الفقر المدقع .

واليمن كما ذكرت بلد غني بمحصولاته الزراعية والحيوانية والمعدنية ، ولكنها ثروات كامنة لم يقدر لها أن تستخرج بعد ، ومن هنا تعطل الشعب عن مزاولة نشاطه التجاري إلا في حدود ضيقة جدا لا تكاد تدر عليه ما يسد رمقه .

والتجارة تعتمد اول ما تعتمد على المواصلات المنتظمة والطرقات الممهدة ولكن التأخر الذي تعانيه هذه البلاد والتخلف الذي تعيش فيه قد حال دون وجود وسائل حديثة للمواصلات ودون انشاء طرقات ممهدة يسهل بواسطتها نقل البضائع من مكان إلى آخر ، ولذلك فإن الشعب لكي ينقل خيراته من البن والطباق والحبوب إلى موانىء التصدير مثل عدن والحديدة يضطر إلى استعمال الابل كوسيلة من وسائل الانتقال ، غير أنه إن صح أن الابل كانت تصلح كوسيلة للنقل منذ عشرة قرون ، فإنها لا تصلح لهذا الغرض في القرن العشرين الذي أصبح النقل فيه يتم بواسطة الطائرات بعد أن كان منذ عشرة أو عشرين عاما يتم بالبواخر والقطارات والسيارات ، ومن ثم تأخرت التجارة في اليمن بل ماتت وأصبح تصدير محصولات اليمن الرئيسية واستيراد الخامات الضرورية مثل السكر والشاي والاقمشة مقصورا على بعض الشركات الاوربية مثل شركة جيلاتلي هانكي وشركة متشل كوتس ، وبعض النشيطين من الحضارمة الذين يعيشون في الحديدة اما بقية الشعب فإنه يعيش

على الكفاف والتجار اليمنيون الوطنيون عاجزون عن مجاراة الشركات ذات الامكانيات الضخمة ولذلك فهم يرضون بالفتات ويعيشون على الكفاف .

وقد أريد في يوم من الايام تعريب التجارة اليمنية الخارجية أي جعلها محصورة في شركة عربية كبرى تساهم فيها اليمن بستين في المائة من الاسهم ولكن الحكومة الحميدية المتوكلية حاربتها بعد أن أصابت نجاحا كبيرا ولفقت ضد كبار موظفيها التهم الخطيرة حتى منيت الشركة بالفشل وضاع المجهود الضخم واندثر الامل الكبير والحلم الجميل الذي راود خاطر كل يمني ، وانقضى مع حل الشركة الامل الكبير في اصلاح حال اليمن من انشاء المشروعات الكبرى وتعبيد الطرق وانشاء اسطول بحري تجاري يجوب البحر الاحمر الذي ينبغي أن تكون سيادة الملاحة فيه للدول العربية دون غيرها .

الثروة المائية

تمتد سواحل اليمن الغربية إلى أكثر من الف ومائتي كيلومتراً على البحر الاحمر من طرف بوغاز باب المندب الجنوبي حتى حدود الحجاز شمالا موازية لصحراء تهامة . والبحر الاحمر مليء بالخيرات غني بالاسماك الكثيرة الانواع والاشكال خصوصا اسماك الاستاكوزا الغالية الثمينة التي يزيد سعر الواحدة منها على جنيه مصري وتباع في الحديدة بقرشين لا غير والناس هناك لا يعرفون قيمتها واسماك القرش الغنية بالزيوت والدهون وتظهر في جماعات منتظمة قرب الشاطىء اليمني .

وقد ذكرت لك في صفحة سابقة أن الاسماك في سوق الحديدة كثيرة وفيرة رغم أنها تصاد بالطرق البدائية وأن ثمن أفخم وأرقى أنواع السمك لا تزيد الأقة منه على قرش أو قرش ونصف .

ومن المفارقات العجيبة أنه بالرغم من هذه الوفرة الغزيرة من الاسماك في الحديدة وبالرغم من رخص اثمانها فإن السكان داخل اليمن في أطراف تهامة وفي صنعاء وتعز واب وذمار وغيرها لا يعرفون شيئا على الاطلاق عن السمك ولم يذوقوه طوال حياتهم ، بل انهم لم يروه إلا مرسوما على صفحات الكتب ، يحدث ذلك الحرمان من هذا الغذاء الطيب المفيد الدسم في الوقت الذي يتلف فيه السمك ويتعفن في اسواق الحديدة لا يجد من يأكله ، وما ذلك إلا لسوء المواصلات او بالاحرى لانعدامها .

أما إذا اراد الإمام أن يأكل السمك وكثيرا ما يأكله فإن سيارة خاصة مليئة بالسمك المحاط بالثلج تأخذ طريقها بدون توقف من الحديدة إلى صنعاء أو إلى تعز ، فلما اقتنى الإمام طائرة خاصة أصبح يستخدمها في نقل اكلة أو اكلتين من سمك البحر الاحمر ، طائرة بربانها وملاحيها تشتغل يوما كاملا لكي يأكل أمير المؤمنين اكلة سمك والشعب يتضور جوعا ولم يسمع عن اكثر

انواع الاطعمة .

هذه الثروة المائية السمكية الضخمة يمكن استغلالها لو حسنت النيات بشراء اسطول للصيد واليمنيون بحريون ماهرون ، يباع من صيده ما يباع وينشأ بعد ذلك مصنع أو اكثر لتعليب الاسماك الباقية وتصديرها إلى الاقطار الخارجية كسلعة رابحة ترفع من مستوى الشعب اليمني من الناحية الاقتصادية .

اما اسماك القرش النادرة في بحار العالم الوفيرة في البحر الاحمر وخصوصا بجوار شواطىء اليمن فإنها بزيتها ودهنها لو اعد لصيدها اسطول ولو صغير تدر على اليمن ارباحاً طائلة وأموالاً وفيرة .

اما المصدر الثاني من مصادر الثروة المائية فهو مشروع الملاحات ، فاليمن ناحية الساحل حارة المناخ ، والساحل منبسط إلى مسافات طويلة الأمر الذي يسهل فيه انشاء ملاحات واسعة ضخمة ، ومشروع الملاحات قليل التكاليف وافر الارباح ، وأن اليمن لو قامت بهذا المشروع فإنها ستضارب جميع ملاحات الشرق الاوسط لعدة اسباب منها سرعة نمو زرعة الملح لحرارة الجو ومنها قربها بالنسبة إلى غيرها إلى جهات الاستهلاك في اليابان وكوريا والصين ، ومنها رخص اليد العاملة في اليمن دون غيرها من البلاد المنتجة للملح ، كل ذلك يدخل إلى خزينة اليمن وإلى جيوب الشعب ثروة وفيرة بالعملة الصعبة ، وانشاء هذه الملاحات لا يحتاج لاكثر من خبير أو خبيرين ويصبح المشروع حقيقة واقعة مـربحة ايما ربح .

اما المصدر الثالث من مصادر الثروة المائية ، فهو ميناء الكثيب أو كما يسمى الآن خليج الكثيب ، إن هذا الخليج ميناء طبيعي خلقه الله عميقا هادئا ذا فتحـة على البحر ضيقة لدخول المراكب وخروجها وقدمه هدية لليمن ، لكن حكومة اليمن « الرشيدة » لم تعر هذه الهدية الربانية اي اهتمام ، إن الانسان لجحود كفار ؟ !!!

هذا الخليج لا يحتاج لاكثر من آلاف قليلة من الجنيهات لاقامة بعض

الارصفة ومنارة وشمندورات تحمل العلامات الضوئية ليلا ، وبعد ذلك يصبح اكبر واوسع وأضخم واعمق ميناء في البحر الاحمر وهو لا يبعد عن الحديدة بأكثر من أميال قليلة ، وسيكون هذا الميناء لو انشيء ثغر اليمن الباسم ووجهها المشرق وسيدر على البلاد دخلا كبيرا من رسو السفن وسيدر على الاهالي مالا وفيرا من الشحن والتفريغ وسهولة تصدير خيرات البلاد واستيراد احتياجاتها ويساعد البلاد على انشاء اساطيل تجارية وصيدية وحربية في الوقت المناسب حيث يفيء اليه وتحتمي فيه إذا هاج البحر وتلاطمت امواجه .

بل يمكن انشاء منطقة حرة في هذا الميناء لتوسط موقعه بين الجنوب والشمال وحينئذ يقضي على ميناء عدن الاستعماري وميناء جيبوتي الحبشي وميناء مصوع الانجليزي الحبشي الايطالي .

هذه بنود ثلاثة فقط للثروة المائية اليمنية أضربها على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر لكي أنبه الاذهان المغلقة والعقول الصدئة في أدمغة الحكام ، ولكن هل من سميع ، هل من مجيب ، إن سوء النية متوفرة لقتل الشعب اليمني المسكين فقرا ومرضا وفاقة وسجنا .

وإلى لقاء قريب يوم تصبح هذه المشروعات الضخمة حقيقة واقعة ينفذها شعب ابيّ شجاع كريم بإذن الله .

اليمن ثروة سياحية معطلة

إن السياحة في عصرنا الحديث مورد هام من موارد الدول التي عرفت أهميتها ولمست فائدتها، إن فرنسا مثلاً وايطاليا تجني كل واحدة منهما من وراء الموسم السياحي ثلاثمائة مليون جنيه في السنة ، أرايت ضخامة هذا المبلغ ، أرأيت الارباح الطائلة التي تدخل جيوب المواطنين وخزانة الحكومة من وراء السياحة .

إن اليمن لو فتحت أبوابها للسائحين وقامت ببعض الاصلاحات الخفيفة كاصلاح الطرق وبناء بعض الفنادق لكانت من أعظم البلاد السياحية في العالم .

إن الشرق دائماً محاط بالأسرار والألغاز التي تستهوي السائحين، واليمن بصفة خاصة كله ألغاز ، الأمر الذي سيدفع اليه السائحين من جميع أقطار الدنيا حيث يفرغون ما في جيوبهم من الذهب في جيوب الشعب اليمني .

ذكرت لك أن صنعاء وإب من اجمل بلاد الشرق مناخا في فصل الصيف وفي تلك الحالة يمكن أن تكون جبال اليمن في صنعاء ومعبر وإب وغيرها مصيفا لمناطق عدن والمحميات وحضرموت والكويت والسعودية وغيرها ، الأمر الذي يدر الأموال الوفيرة .

واليمن بلاد أثرية فيها آثار سبأ والتبابعة وسد مأرب وقصر غمدان ومناطق الآثار القديمة البكر التي يتعشقها الاجانب مما سيجلب اليها السائحين من جميع بلاد العالم فتختلط الحضارات والافكار ويجري الذهب انهارا في جيوب اليمنيين .

واليمن مليئة بالحيوانات البرية من غزال وقردة ووحوش الأمر الذي يشجع هواة الصيد في جميع بلاد الدنيا أن يفدوا اليها سائحين صائدين .

وإذن فاليمن بلاد سياحية معطلة يمكن بغير كثير من النفقات أن تصبح بلادا سياحية كبرى تجني الأموال الطائلة ويرتفع فيها مستوى الحياة ، ولكن العقول المغلقة والاذهان المتحجرة والافكار الرجعية تقف حائلا قويا وسدا منيعا ضد كل ما هو نافع للامة وكل ما هو مفيد للشعب كأنما هذه المؤامرة ضد الحريات وضد انسانية الشعب ليس لها من مخرج ولا نهاية ، غير أن المخرج قريب والنهاية وشيكة .

لقد عرضت على القارىء الحياة الاقتصادية المعطلة في اليمن وعرضت عليه الوان الفقر التي يقاسيها السكان ومتاعب الحرمان الذي يعيشون فيه ، وفي نفس الوقت عرضت عرضا سريعا للكنوز التي تكمن في هذه البلاد ، من ثروة زراعية تتمثل في البن والطباق والفواكه وإمكان توفير الماء لزيادة المساحة المنزرعة وامكان تجفيف الفواكه التي ترمى على الارض وتفسد وتضيع هباء منثورا لعدم حفظها وتصنيعها .

وعرضت للثروة الحيوانية الضخمة من لحوم وفراء وحيوانات برية ووحشية تعيش في الغابات ولكنها معطلة ، وعرضت للثروة المعدنية وخصوصا جبال النحاس الخام ومناجم الفحم التي يقطع منها الاهلون حاجتهم على وجه الارض والبترول الذي ينذر بالتفجر أنهارا ، وجبال الملح الرابضة على شاطىء البحر قرب الحديدة ، وخرجت من ذلك إلى امكان تصنيع البلاد طالما أن فيها الفحم والمعادن واشرت إلى امكان بناء سدود ينتفع بمائها في توليد الكهرباء التي تدير المصانع وتضيء المدن من مساقط الماء خلفها ، وعرضت للثروة المائية ممثلة في اسماك البحر الاحمر الوفيرة النادرة الغالية الاثمان خصوصا زيت القرش وسمك الاستاكوزا وكيف يمكن لليمن بواسطة اسطول صيد صغير أن تجني من البحر الاستاكوزا ، وكيف يمكن لليمن بواسطة اسطول صيد صغير أن تجني من البحر ارباحا وفيرة واموالا طائلة ، كما اشرت إلى مشروع الملاحات ومشروع ميناء الكثيب الذي يكون خير ثغر لليمن وأعظم ميناء في البحر الاحمر وذكرت كيف أن اليمن بلاد سياحية بطبيعتها فمدنها الجبلية تصلح مصايف جميلة ومناطقها الاثرية وغاباتها وحيواناتها كل ذلك يغري السائحين من جميع بلاد العالم على الاقبال عليها وانفاق الاموال الكثيرة التي تملأ جيب الحكومة وجيب الشعب .

ما هو السبب الرئيسي في حرص حكومة الإمام احمد وحرص رئيس وزرائه الذي هو الإمام نفسه وحرص وزراء الدولة الذين هم ايضا الإمام نفسه ، ما هو السبب في تعطيل كل هذه المشروعات والانتفاع بها ، قد يقول قائل ان السلطات اليمنية قد لا تكون شاعرة بهذه الكنوز عالمة بها ، وأنا اجيبه أن هذه السلطات تعلم كل شيء عن اليمن وطالما قدمت لها المشروعات الكبيرة فكانت ترفضها .

إن السلطات اليمنية متآمرة على حياة شعب اليمن وعلى هناء شعب اليمن وعلى صحة شعب اليمن ، وعلى مستقبل شعب اليمن ، إن السلطات الحاكمة في اليمن تعلم أن هذه المشروعات وهذه الكنوز لو استغلت ، فإنها ستنقل الشعب اليمني من حالة الفقر البشع التي يحياها إلى مستوى رفيع من الحياة الكريمة الرغيدة وهو ما لا تحرص عليه الحكومة ، بل هو ما تحاربه الحكومة ، إن الحكومة اليمنية تحارب كل محاولة لرفع مستوى الشعب ، إنها تحارب اي مواطن مهاجر لو عاد إلى اليمن غنيا ، إنها تهدف إلى ابقاء الشعب العظيم فقيرا مريضا جاهلا حتى تظل قابضة على ناصية الامور بيد من حديد ، وتظل تجلده بسياط الظلم وتلهب عطفيه بعصا الطغيان .

إني أتهم حكام اليمن بقتل الشعب اليمني وتأخيره عن ركب الحياة الحرة الكريمة والحيلولة دون زحفه المقدس مع بقية الشعوب العربية .

إن العملاق اليمني في طريقه إلى اليقظة ، إن الشعب اليمني بسبيله إلى الانتفاض ، والويل يومئذ لجلاديه ، الويل لظالميه ومحطميه ، الويل لمن أمرض الشعب وأفقره وحال بينه وبين الحياة الكريمة .

إني مشفق عليهم من يوم شره عليهم مستطير وطوفانه زاخر زاحف كاسح عنيف .

٨

الثورة اليمنيّة الكبرى

ابطالها

للثورة اليمنية الكبرى التي اندلع لهيبها فريقان من الابطال ، فريق ساعد على قيامها واشتعالها ، وفريق قادها ونظمها وحدد معالم أهدافها .

فأما الفريق الاول من أبطال الثورة الكبرى فهو الإمام يحيى حميد الدين وأولاده سيوف الاسلام الثلاثة عشر وبقية أفراد اسرته .

إن الاستبداد الذي كان يحكم به الإمام شعبه والرجعية البغيضة التي كانت تظلل الحكم واغتيال اموال الشعب وقتل أفراده ومصادرة أموالهم وحرياتهم وإغلاق الأبواب في وجه أي حركة اصلاح، والوقوف في وجه موجات التحرر ، والرجوع باليمن إلى حالة من الجهل والفقر والمرض والحرمان ، واثقال كاهل الشعب المريض الفقير بالضرائب ، وجلد ظهور المواطنين بالسياط لو امتنعوا عن الدفع وهم ممتنعون مرغمين لأنهم غير قادرين على الدفع ، إذ أنهم لا يملكون شيئا على الاطلاق ، كل هذه الامور وغيرها جعلت من الإمام يحيى نفسه بطلا من ابطال الثورة الكبرى فلولا سياسته الغاشمة واساليبه الحمقاء وتخلفه بشعبه عن ركب الحضارة لما ثار الشعب عليه وقتله .

وإن انحلال سيوف الاسلام خلقيا واجتماعيا واغراقهم في الملاذ من خمر ونساء وغلمان في الوقت الذي يتضور فيه الشعب جوعا ويتوجع مرضا ويتألم جهلا ، وإن احتقارهم للمواطنين ووضعهم في السجون لأتفه سبب واقل هفوة بل بغير اسباب وبدون هفوات ، وإن سوء سمعتهم في الداخل والخارج وسطوهم على الأعراض، اعراض الناس واعراض بعضهم البعض ، وإن تحديهم لمشاعر الشعب الفقير ذي العزة الكامنة والمروءة المخبوءة ، كل ذلك وغيره وغيره قد دفع الشعب إلى الانقلاب عليهم ومحاولة التخلص منهم والقضاء على عهدهم ، فثار عليهم وقتل أباهم الإمام وذبح آخرين من السيوف أنفسهم ووضع الباقي في السجون حتى يحاكموا بما أثمت أيديهم الراجسة وما اقترفت قلوبهم الظالمة .

وبهذا يكون الفريق الاول من أبطال الثورة هي العائلة المالكة الظالمة المنحلة .

واما الفريق الثاني من أبطال الثورة فهم اليمنيون انفسهم ، اليمنيون الذين ثاروا لكرامتهم المسلوبة وحرياتهم المسروقة وأعراضهم المستباحة وكرامتهم الممرغة في الطين ، هؤلاء اليمنيون أصحاب الحضارات القديمة ، والاخلاق القويمة ، هذا الشعب الأبي المغلوب على أمره من طغمة ظالمة ، زاد به الغضب وفاض به الكيل وعيل منه الصبر فقام منفجرا كالبركان الثائر يقذف اعداء حريته بالحمم ، فكانت الثورة اليمنية الشعبية التاريخية الكبرى لسنة ١٩٤٨ .

كان من الممكن تفادي الثورة

كان الإمام يحيى يحكم اليمن حكما باطشا بيد من حديد من غرفة صغيرة في قصر يقال له دار السعادة في صنعاء وقد سبق وصفه في أول هذا الكتاب ، وكان سيف الاسلام احمد (الإمام الحالي) يحكم جنوب اليمن بعقلية مهتزة واساليب بدائية تزيد على فظاعة اساليب القرون الوسطى من قصر منيف أسمه قصر صالة في تعز ، وكان سيوف الاسلام الحسن والحسين والمحسن والمطهر والقاسم ويحيى وعلي واسماعيل وعبد الرحمن يعيثون في البلاد الفساد ينهبون ويخطفون ، يخطفون الاموال والحريات والاعراض تحت سمع أبيهم وبصره دون أن يردعهم أو يؤنبهم وكيف يردعهم أو يؤنبهم وهو مستن هذه الشريعة ، شريعة الغاب ، شريعة الظلم والبغي والرجعية والعدوان .

ومع ذلك كله جاء إلى اليمن في مهمة اقتصادية زعيم كبير من زعماء العالم الاسلامي هو الفضيل الورتلاني ، وشاهد بنفسه فساد الحكم وتعفنه ولمس بثاقب بصره المرجل الثائر الذي يغلي في نفوس المواطنين فرأى أن من واجبه أن يحول دون وقوع الكارثة وجلس من الإمام يحيى وابنه سيف الاسلام أحمد مجلس المعلم الواعظ يبصرهما بنتيجة سياستهما ويطلب منهما العدول عنها ، فكان يقضي اياما طوالا في صنعاء بجوار الإمام يحيى يحاضره وينبهه وأياما أخرى في تعز بجانب سيف الاسلام احمد يبصره ويحاضره وينبهه .

غير أن نصائحه لم تلق قبولا وانما لقيت اعراضا وسخرية وانتهى الامر بأن أصبح الزعيم الاسلامي الكبير غير مرغوب فيه محاصرا في بيته لا يمكنه الانتقال منه وأحيط بجيش كبير من الجواسيس في صورة اصدقاء أو مرافقين ، ولكن من المدهش حقا أن هؤلاء الذين عينهم الإمام جواسيس ما لبثوا أن اصبحوا من كبار قادة الثورة .

تنفيذ الثورة

كان للثورة اليمنية ثلاثة أجهزة متناسقة أو بالاحرى كان لها جهاز ذو ثلاث شعب ، الجهاز الاول كان يعيش أبطاله في عدن بعد أن فروا من اليمن نجاة بأرواحهم بعد أن كشفوا للإمام عن حقيقة مطالب الشعب ، والواقع أن هذا الجهاز كان كتلة من النشاط الكاسح وكان يرأسه الامير سيف الحق ابراهيم ابن الإمام يحيى ، وقد ذكرت أن الإمام قد حرم ابنه هذا من لقب سيف الاسلام فاطلق الشعب اليمني عليه لقب سيف الحق ، وكان هذا الفريق يتخذ من عدن مسرحا لنشاطه لقربها من اليمن وكانوا يثيرون الشعب على ظالميه ويداومون الاتصال بالشعبة الثانية التي كانت تشتغل داخل اليمن نفسه وبخاصة في صنعاء وتعز ، أما الشعبة الثانية فكان افرادها من الصفوة الممتازة من شباب اليمن ، والطبقة التي قد نكبها حكم أسرة حميد الدين ، ومن رجال القبائل الذين كان الإمام يختطف ابناءهم كرهينة لديه حتى لا يخرجوا عليه ، وكان يضع هؤلاء الابناء الاطفال في السجن فيفسدوا ويشبوا مجرمين عتاة بدلا من أن يشبوا مواطنين صالحين ، وأما الشعبة الثالثة فكانت تمثل مجموعة من شباب اليمن الواعي الذي يتعلم في القاهرة .

كانت هذه الشعب متسقة متفاهمة تسير على خطة واحدة مدروسة واجتمعوا عدة مرات لبحث الحالة واشعال الثورة وتنفيذ الانقلاب .

الإمام أحمد يعجل بقتل أبيه

اجتمعت كلمة رجال الثورة وقادتها على التخلص من حكم أسرة حميد الدين مهما كان الأمر وبأسرع وقت ممكن ودرسوا وسائل التنفيذ ونوقشت عدة اقتراحات كان منها اعتقال الإمام يحيى وتنحيته بواسطة الجيش والقبض على أفراد الأسرة جميعاً وتشكيل محكمة علنية يشهدها الشعب لمقاضاتهم على جرائمهم في حق الشعب الذي نهبوه وأذلوه، غير أن هذه الفكرة استبعدت ورؤي التريث قليلاً لأن الإمام كان مريضاً مشلولاً يحتضر كل ليلة، فإذا أصبح الصباح عادت إليه صحته، وهكذا عيل صبرهم فالإمام العجوز المريض لا يريد أن يموت والحالة تزداد سوءاً فما العمل؟

تردد على سمع قواد الثورة خبر مؤكد مؤداه أن سيف الإسلام أحمد الذي يطلق على نفسه لقب ولي العهد والذي يعيش في تعز منذ اثنتي عشرة سنة بدأ يجري بعض اصلاحات في قصره بصنعاء المسمى «بستان الخير» وأنه بسبيل التخلص من والده بواسطة السم حتى يغتصب الملك اغتصاباً لعلمه أن الشعب يكرهه وأنه إن لم يستول على الملك عنوة وبحيلة ماكرة ضاع منه ومن أسرته إلى أبد الآبدين.

إزاء هذه المعلومات قرر مجلس الثورة اغتيال الإمام والسيف أحمد في وقت واحد وفي ساعة واحدة، أما الإمام فقد لقي مصيره المعروف، وأما سيف الإسلام أحمد فقد حدث له ما حدث لعمرو بن العاص حينما نجاه نومه من القتل، ذلك أن أحد المقربين إليه قد تعهد بقتله، وفي اليوم المعين غط السيف في نوم عميق وقد أغلق حجرته برتاج سمين ولم يستيقظ إلا على خبر مقتل أبيه فنجا من القتل بأعجوبة.

ومن المدهش أن الشخص الذي كلف بقتله لا يزال حتى الآن من أقرب المقربين إليه.

كيف قتل الإمام يحيى

اليوم ١٧ فبراير سنة ١٩٤٨ والجو عاصف مكفهر والريح جبارة عاتية تقصف أشجار البن على السفوح فتكاد تقتلعها، وقد آوى أكثر الناس إلى منازلهم بعد أن فرغوا من أعمالهم فراراً من الجو الرهيب، وكان منزلي على بعد خطوات من دار السعادة مقر الإمام. ولم تكد عقارب الساعة تشير إلى الثالثة والنصف بعد الظهر حتى سمعت عدة طلقات نارية كان دويها يصم الآذان فأرسلت على الفور من يأتيني بالخبر وبعد قليل علمت أن الطلقات المدوية قد استقرت في صدري سيفي الإسلام الحسين والمحسن عندما قررا اقتحام قصر أبيهم بعد أن علموا بمصرعه في الصباح.

أما كيف قتل الإمام يحيى فإنه كان قد خرج في الصباح مستقلاً سيارته وفي معيته رئيس وزرائه القاضي عبد الله العمري وأحد أحفاده وخادمه الخاص متوجهين إلى إحدى ضياعه لكي يشرف على إنشاء مضخة ماء آلية، وبينما هم عائدون ظهرت أمامهم سيارة نقل تضم من وكل إليهم تنفيذ الإعدام في الإمام، وقطعت السيارة عليهم الطريق فأفرغ الثوار طلقاتهم في صدر الإمام ومرافقيه فقتلوهم جميعاً، وما علم سيف الإسلام علي وهو أشجع أبناء الإمام الصريع بوفاة والده حتى سارع إلى حيث جثته فنقلها في سيارة نقل وعاد بها إلى صنعاء حيث دفنت بعد يومين في احتفال صغير.

الشعب اليمني يبايع عبد الله بن الوزير

ما أن علم الشعب اليمني بمصرع الإمام يحيى حتى دقت الطبول وساد الابتهاج وسارع الجميع إلى مبايعة أفضل رجال اليمن إطلاقاً وهو السيد عبد الله بن أحمد الوزير فأصبح إماماً شرعياً وتوجه نحو قصر غمدان التاريخي المشرف على صنعاء وأخذ يوالي مهمته العسيرة ويستقبل المهنئين من الشعب وشيوخ القبائل الذين وفدوا إليه في مجموعات ضخمة كما انهمر عليه سيل عرمرم من برقيات التهنئة والمبايعة من جميع عمال (حكام) اليمن من أقصاه إلى أقصاه.

مجلس الثورة يجتمع

وفي الحال اجتمع مجلس الثورة اليمني برئاسة الإمام الجديد واتخذ قرارات تتعلق بمستقبل الشعب اليمني ورفاهيته كان أهمها:

١ ـ المسارعة إلى إنشاء مجلس شورى حتى تتخلص اليمن من حكمها الاستبدادي.

٢ ـ اعتماد مبلغ ضخم لإنشاء مجموعة من المستشفيات تكون كشبكة طبية في جميع أنحاء البلاد واستدعاء مجموعة ضخمة من الأطباء العرب لإدارتها بمرتبات مغرية.

٣ ـ اعتماد مبلغ آخر لإنشاء أكبر عدد من المدارس الابتدائية والثانوية والصناعية واستقبال المدرسين من جميع أنحاء العالم العربي وإرسال البعوث الكبيرة من أبناء اليمن وشبابه لإتمام تعليمهم في مصر.

٤ ـ إنشاء شبكة من الطرقات الممهدة تصل جميع أطراف الدولة بعضها ببعض وتختصر المسافات الطويلة التي يقطعها المسافر وذلك بإنشاء الكباري والجسور فوق الأودية في الطرق الرئيسية.

٥ ـ إقامة محطات كهربائية في المدن العامة مثل صنعاء والحديدة وتعز لإضاءتها بالكهرباء لأول مرة في التاريخ.

٦ ـ الاتفاق مع شركات عربية وأجنبية لاستغلال مناجم الفحم والنحاس التي توجد بوفرة في بلاد اليمن.

٧ ـ التعاقد مع إحدى الشركات لخلق ميناء كبير في خليج الكثيب المجاور لمدينة الحديدة.

٨ ـ إطلاق سراح الرهائن من أبناء شيوخ القبائل الذين كان يحتفظ بهم

الإمام يحيى في السجن حتى لا يخرج آباؤهم على طاعته.

٩ - سن تشريع سريع للقضاء على استعمال السم الأخضر المعروف بالقات واقتلاع جميع أشجاره.

وكان إذ ذاك بعض قادة الثورة لا زالوا في عدن، فأرسل في استدعائهم على عجل.

الطيارون المصريون يسودون الطيارين البريطانيين

استقل بعض زعماء الثورة الذين كانوا في عدن طائرة أثيوبية يقودها طيارون إنجليز وحلقت الطائرة فوق مطار صنعاء الصغير الواقع في جنوب المدينة والذي يحده من الجنوب شعبتان من الجبال غير أن الطيارين الإنجليز عجزوا عن الهبوط واضطروا إلى العودة بالطائرة وركابها القادة إلى عدن مرة أخرى.

قامت الطائرة بعد ذلك بعدة محاولات فكانت تجيء من عدن وكلما حاولت الهبوط أخفقت وظل الأمر كذلك لمدة يومين إلى أن وصلت طائرة مصرية تقل بعثة من الجامعة العربية يقودها قائد السرب عبد اللطيف البغدادي (الوزير الحالي) وما هي إلا تهويمة وأخرى حتى كانت تنساب على أرض المطار بخفة ورشاقة.

وفي اليوم التالي جاءت كالعادة الطائرة الحبشية بطياريها الانجليز وبركابها من الثوار ولم تستطع النزول إلا بإرشاد البغدادي العظيم الذي وقف على أرض المطار يعطيها التعليمات والارشادات، وكان منظرا لطيفا ان ينزل القائد الانجليزي لكي يهنىء القائد المصري ويشكره ويشيد ببراعته، وبذلك اكتمل مجلس الثورة اليمني. وفي الحال اتخذ قرار بتعيين سيف الحق ابراهيم رئيسا للوزراء والسيد علي الوزير رئيسا لمجلس الشورى (مجلس النواب).

مقابلتي لابن الوزير

في اليوم الثاني من الثورة وقفت سيارة أمام منزلي ونزل منها من يستدعيني لمقابلة الإمام الجديد فصدعت للأمر وتوجهت إلى قصر غمدان في طرف صنعاء الشرقي ووجدت بعض زملائي من المصريين في انتظاري، فلما انتظم عقدنا دخلنا إلى الإمام الجديد العظيم فوجدناه جالساً في حجرة متواضعة وقد صفت فيها الحشيات (الشلت) بينما تصدر المكان رجل في الحلقة السادسة من عمره أسمر الجبهة معقوف الأنف هادىء النظرات وقور الطلعة كبير قبضة اليد من كثرة امتشاق الحسام في الحروب الكثيرة التي خاضها توطيداً لملك الإمام يحيى في أول عهده بالإمامة، والرجل بادي الطول فارع القامة ذو لحية امتزج الشيب فيها بالسواد يضع على رأسه عمامة بيضاء ذات عذبة تنسدل على مؤخرة رأسه، وهذه العذبة لا يرسلها إلا الإمام يحيى وأبناؤه، وكان ابن الوزير هو الوحيد من الشعب الذي سمح له بإرسالها في عهد الإمام يحيى.

ابتدرنا الرجل بتحية رقيقة ثم قال لنا إنه طلبنا لمقابلته باعتبارنا الصفوة الممتازة التي تربي النشء بحيث يسهل فهمنا للحقائق بأسرع مما يفهمها غيرنا واستطرد قائلاً إنه آسف لمصرع الإمام يحيى وأنه ما تمنى الملك يوماً ولا سعى إليه، ولكنه قبل البيعة نزولاً على إرادة الشعب وشيوخ القبائل، وأشار بيده إلى بعض الجالسين من عقال القبائل، واستطرد قائلاً إنه سوف يبذل قصارى جهده لإسعاد هذا الشعب البائس المحروم.

وما أن انتهى من كلامه حتى أشار إلي اخواني أن أرد على تحية جلالته، والحق أن الموقف كان في منتهى الحرج فكيف أبدأ؟ وما هي الألفاظ التي أنتقيها في مثل هذا الموقف الغريب، وأخيراً استجمعت أطراف بياني وسألت الله لليمن الخير والاسعاد وذكرت له أنه راعٍ وكل راعٍ مسئول عن رعيته، وأن هذا الشعب فقير يريد الغذاء، وجائع يشتهي الشبع، وعار يود

الكساء ومريض يهوى الشفاء، وسألت الله أن يرحم الإمام الفقيد وأن يغفر له فالرحمة دائماً مطلوبة للأموات ، وما انتهيت من كلمتي حتى التفت إلينا محيياً فرداً فرداً وانصرفنا .

وفي المساء كانت محطة الإذاعة اليمنية تذيع خبر المقابلة بشيء من الإسهاب إلى حد أن ذكرت نص الكلمتين رغم أنهما كانتا من البديهة ولم تكونا مكتوبتين وكان آخر خبر في نشرة الأخبار أن تفضل الإمام وعين أحد المصريين مديراً للإذاعة اليمنية والباقي مذيعين.

غير أننا لم نقبل الأمر بسهولة إذ أن مهمتنا كانت ثقافية فقط ولكن ما الحيلة وقد أغلقت المدارس وجند الطلاب وأصبحنا بدون عمل، توكلنا على الله وتقبلنا المهمة الشاقة الخطيرة.

الثورة في مهب الرياح

اهتز العالم كله لهذه الثورة، فالأحرار في كل بلد يرحبون بها ويرقصون لها طرباً، والرجعيون والاقطاعيون وعملاء الاستعمار بدأوا يحاربونها، واهتزت الجامعة العربية للحالة، فأرسلت وفداً مكوناً من ثلاثة من رجال الخارجية المصرية هم الدكتور حسن إسماعيل والأستاذ عبد المنعم مصطفى والأستاذ محمد مصطفى يس وقد جاءوا إلى اليمن على متن طائرة حربية مصرية يقودها الطيار عبد اللطيف البغدادي (الوزير المصري الثائر عبد اللطيف البغدادي حالياً) وأخذوا يتقصون الأمر ويكتبون تقاريرهم التي أثبتت أن الثورة ناجحة وأن الملك عبد العزيز بن سعود يساندها مساندة فعالة ويشجعها من صميم إحساسه.

فجع فاروق وعبد الله بن الحسين ملكا مصر وشرق الأردن ولا زلت أذكر نص البرقية التي أرسل بها إلى صنعاء الملك عبد الله يعزي سيف الإسلام أحمد الذي كان طريداً في ذلك الوقت في حجة يقول فيها «أعزيكم في العم الشهيد وأهنئكم بالملك الجديد» ولم يكن إذ ذاك ملكاً على الإطلاق، فقد كان سيف الإسلام أحمد في ذلك الوقت يفد إلى القبائل ويذبح الكلاب تقرباً إليها واستجداء لنصرتها على عادة أهل اليمن.

بدأ ملوك العرب يتجمعون وهم لا يجتمعون إلا على شر. أما في الخير فهم متنابذون متخاذلون، واتفقوا على إرسال الدكتور حسن حسني سكرتير فاروق الخاص إلى الملك عبد العزيز لإبلاغه خطورة الثورة على عروش الأسر الحاكمة في البلاد العربية وأنها إرهاص بخلع باقي الملكيات وأن الدائرة القادمة قد تدور عليه شخصياً، فاضطر الملك عبد العزيز أن يقلب للثورة المجيدة ظهر المجن وبدأت تسوء الأحوال وبدأت المساعدات الفعلية تقدم إلى سيف الإسلام أحمد في حجة وبدأ الملك عبد العزيز يضع تحت إمرته

جميع المساعدات المالية والأدبية، وجعل محطة اللاسلكي بمنطقة جيزان السعودية تحت أمره يتلقى بواسطتها التوجيهات ويرد عليها .

ثلاثة أئمة في وقت واحد

ساءت الأحوال وأصبحت الإمامة غير مقصورة على عبدالله بن الوزير في صنعاء، بل ان سيف الإسلام أحمد سارع فأعلن نفسه إماماً بعد أن شجعه ملوك العرب وكان هناك رجل ثالث له خطره في قبيلته وهو السيد علي بن حمود الذي أعلن نفسه هو الآخر إماماً وجعل مقره في قبيلته كوكبان وبذلك أصبح في اليمن أئمة ثلاثة كل منهم يريد أن يستأثر بالإمامة دون الآخرين، غير أن علي بن حمود كان خالاً لسيف الإسلام العباس ابن الإمام يحيى الذي لم يجد كبير عناء في إقناع خاله بالتنازل لأخيه سيف الإسلام أحمد وانضمت القبائل المناصرة لابن حمود إلى القبائل التي اشتراها سيف الإسلام أحمد وبدأوا يشدون النكير على صنعاء.

الإمام أحمد يستبيح صنعاء

حشد الإمام أحمد رجال القبائل الذين هددهم بمساعدة الدول العربية له على تأديبهم إن لم يهبوا لنجدته وإسقاط صنعاء، ثم وزع عليهم أموالاً كثيرة تقدر بأكثر من عشرة ملايين ريال يمني، ثم أباح لهم مدينة صنعاء بأموالها ونسائها إن هم فتحوها.

ومن الأخطاء التي ارتكبها رجال الثورة أنهم اعتقلوا سيوف الإسلام في قصر غمدان، وفي نفس الوقت لم يغيروا حراس القصر الذين كانـوا إلى حين قريب يدينون لهؤلاء السيوف بالولاء، فكان من السهل على السيوف المعتقلين أن يستميلوا حراسهم ويسخروهم في أمور خطيرة ويرسلوهم إلى قواعد القوات المحاصرة لصنعاء.

أما نحن المصريين وكنا قد رأينا الخطر الماثل أمام أعيننا فلم نجد بدا من أن نطلب سلاحاً بحجة التمرين عليه ولم نكن نعني في الواقع إلا الدفاع عن أنفسنا إذا حدث ما هو متوقع، ولم نكتف بذلك بل تجمعنا في منزل واحد وجعلنا منه حصناً منيعاً. وبعد يومين من هذا التحصين شاهدنا بالليل نيراناً مندلعة من كل بيت من بيوت صنعاء ثم سمعنا أصواتاً عجيبة تنطق جملاً غير مألوفة ثم ما لبثت آذاننا أن وعتها، فإذا هي استغاثات على الطريقة اليمنية، وخطر ببالنا أن هذه النيران بفعل القبائل الغازية وحل الرعب والفزع بالسيدات والأطفال من أبنائنا وأخذنا نستعد لإخماد النيران الآخذة طريقها إلينا، غير أننا عرفنا بعد قليل أن هذه النيران إنما هي بفعل الأهالي أنفسهم كعلامة استسلام للجيش الغازي حتى لا يوقع بهم الأذى ويعمل فيهم التقتيل والتمثيل، وعرفنا أن عملية النيران هذه تسمى عملية «التنصير»

الليل رهيب مخيف، وصنعاء لم تنم منذ يومين فاطلاق الرصاص لم

ينقطع لحظة واحدة حتى تحطمت الأعصاب الفولاذية فضلاً عن الأعصاب المرهفة وها نحن جالسون ننتظر ما يأتي به القدر في البقية الباقية من الليل والسيدات في هلع شديد والأطفال ساهرون في شبه ذهول وكأنهم رغم براءتهم وطفولتهم يفهمون كل شيء ويدركون جلية الموقف، وليس بيننا من يهدىء روعهم فنحن مشغولون بالاستعداد لساعات رهيبة من ساعات العمر، وانقضى الليل طويلاً وبدأت خيوط الصباح تزحف متثائبة متثاقلة وبدأنا نرى عجباً .

نهب وجثث ووحوش

إن الرجل القبلي وحش آدمي وقد رأى صنعاء الجميلة في نظره لأول مرة في حياته ثم هو لم يحارب ويعرض حياته للخطر دفاعاً عن عرض أو اعتناقاً لعقيدة إنما جاء لكي يسلب ويغنم البلد الذي أباحها له مؤجره، وبالفعل بدأ رجال القبائل ينقضون على العاصمة وينتشرون في أرجائها مستميتين وهم يعتقدون أنها جنة الله في الأرض، صنعاء التي لا تزيد مساحتها وسكانها على عشر معشار أصغر حي في القاهرة، ولكن الرجل القبلي معذور في ذلك لأنـه لم يخرج من حظيرة القبيلة طوال عمره، يعيش حياة غليظة جافة طبعت أخلاقه بطابعها فعاش كالحيوان المتوحش الغدار.

وفي الليلة المشؤومة ليلة ١٣ إبريل سنة ١٩٤٨ تمكن رجال القبائل الذين ظلوا محاصرين صنعاء مدة عشرة أيام من تسلق أسوار المدينة واندفعوا إلى الداخل كأنهم السيل الجارف من القبائل الشرسة المختلفة الأسماء والأنواع أذكر منها قبائل خولان والحدأة وذو حسن وذو محمد وكوكبان وآنس وغيرها وقد هتك هؤلاء الوحوش أعراض الحرائر من نساء صنعاء ولست مبالغاً على الإطلاق إذا سجلت أن ثلاثة أرباع نساء صنعاء قد انتهكت أعراضهن وفحش بهن في هذه الغزوة الوحشية المشؤومة، وكثيراً ما كان يتجمع مجموعة من هؤلاء الوحوش حول امرأة واحدة يتناوبونها بالفحشاء حتى تسلم الروح شاكيـة إلى الله من تسبب في إباحـة عـرضهـا وإزهـاق روحها، وكانت المرأة تتشبث في كثير من الأحيان بطفلها الصغير فتضمه إلى صدرها لعله يكون شفيعاً لها فترق قلوب مفترسيها ولكنهم - وافزع معي أيها القارىء - كانوا يمسكون بالطفل من قدميه ويتجاذبونه حتى ينفسخ نصفين ثم يلقون به إلى عرض الشارع طعاماً للكلاب، وأما الأزواج فكان مصير من يحاول أن يدافع عن شرفه القتل البشع.

ولم يقف الأمر عند حد هتك الأعراض بل أعمل القبليون السلب والنهب في المدينة فنهبوا كل شيء في المنازل حتى أنهم خلعوا جميع أبواب البيوت ونوافذها. وكـان رجال القبائل أنفسهم يعتدي بعضهم على بعض طمعاً في الغنائم والاسلاب فكنت ترى رجلاً قبلياً يسير في الشارع محملاً ببعض ما وصلت إليه يداه فيفاجأ بزميل له يطعنه من الخلف بخنجره فيرديه قتيلاً ثم يغتصب منه أسلابه ويمضي في طريقه غير أن هذا لا يكاد يقر عيناً بهذه اللقمة السائغة التي أزهق روح أخيه من أجل الحصول عليها حتى يفاجـأ برصاصة تخترق صدره أو رأسه أو أحشاءه من زميل قبلي آخر فيخر صريعاً ويفوز بالغنيمة هذا المغامر الجديد، فكانت الغنيمة الواحدة لكي تستقر عند صاحبها الأخير لا بد أن يموت بسببها ثلاثة أو أربعة وهكذا امتلأت شوارع صنعاء بآلاف الجثث، جثث الأطفال الأبرياء وجثث الشهداء وجثث المغيرين المتوحشين من رجال القبائل وظلت هذه الحال لأيام طويلة حتى تعفنت الجثث وتفشت منها رائحة الموت وكان منظراً طبيعياً جداً أن ترى كلباً يجرجر أحشاء رجل لعدة أمتار أو ترى نسراً ـ وصنعاء منطقة نسور ـ يحمل رأس طفل أو فخذ قتيل ولم يبق في صنعاء على قيد الحياة إلا رجل منكوب في عرضه أو طفل حسن الحظ أو امرأة ثكلى رزئت في أغلى وأثمن ما تملك.

وقد يحسب القارىء أن حالة النهب والسلب قد استمرت ثلاثة أيام فقط وهي الأيام التي حددها الإمام للقبائل نظير إسقاطهم صنعاء بل ان نشوة الظفر ولذة النهب قد استمرت عند القبليين فعجزت كل الجهود القليلة التي بذلت في كبح جماحهم وثنيهم عن الاستمرار في غيهم حتى قضوا على صنعاء في خلال أسبوعين وتركوها قاعاً صفصفاً بعد أن انقضوا عليها كما ينقض الجراد على الأرض الخضراء فيتركها جرداء بلقعا.

كل ذلك حدث من أجل ملكية ظالمة غاشمة استعبدت شعباً واستذلت أمة ومزقت نهضة ولا زالت حتى الآن تستعبد وتستذل وتمزق إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

معركة حربية بين المصريين ووحوش القبائل

إن القبليين المتوحشين لم يتركوا ركناً في صنعاء إلا عاثوا فيه فساداً فسرقوه ونهبوه واستباحوا نساءه وقتلوا أطفاله وذبحوا شيوخه وظلوا هكذا كالكلاب المجنونة إلى أن واجهوا البيت الذي نحتله وعرفوا أننا أجانب فبدأوا ينظمون صفوفهم لصيد سمين وقد صمموا على سبي نسائنا وقتل أطفالنا والتمثيل بنا ، غير أننا كنا قد جعلنا من هذا البيت قلعة مسلحة محكمة الغلق بالمتاريس وكان أحد زملائنا له دراية عسكرية ، فقد كان ضابطاً إحتياطياً في الجيش فدربنا على استعمال المدافع الرشاشة وإحكام التصويب وانتقاء الأماكن الأمينة لاصطياد العدو .

ونشبت معركة رهيبة بيننا وبين الوحوش استمتنا فيها حرصاً على أعراضنا وفلذات أكبادنا . وقد قتلنا منهم عدداً وفيراً ولم يصب منا إلا إثنان برصاصات سطحية واحد أصيب في ذراعه والآخر في كتفه وقد ضمدنا جراحهما في الحال ليستأنفا الرماية والضرب من جديد إذكانت كل دقيقة لها ثمن من حياتنا .

واستمرت المعركة ثلاثة أيام كاملة كانت جماعات من القبليين الوحوش تتبادلنا بالهجوم ونحن صامدون لم نلن أو نستكين ولم يهجع لواحد منا جفن ، حتى النساء الأبطال كن يقفن خلفنا ويمددننا بالذخيرة كأشجع ما يكون الأبطال أما الأطفال فقد هداهم الله فلم يصيحوا ولم يبكوا وإنما كانوا في ذهول .

وظل الأمر على هذه الحال إلى أن خاف المسئولون عاقبة موتنا فاضطروا أن يرسلوا أحد السيوف لكي يفك الحصار عنا ويسعف الأطفال بالماء إذ أنهم كانوا قد أشرفوا على الهلاك عطشاً .

عودة إلى حصار رهيب

في صبيحة سقوط صنعاء وقبل أن ينتشر رجال القبائل في الطرقات دق بابنا أربعة أبطال من قادة الثورة وهم المرحوم أحمد الحورش والمرحوم محمد صالح المسمري وبطلان آخران لا أحب ذكر أسميهما محافظة عليهما لأنهما لا زالا على قيد الحياة ، وطلبوا منا إيواءهم ، غير أن ذلك كان يبدو مستحيلاً لأننا أنفسنا عرضة للقصاص والسجن ، غير أن الوقت كان يجري بسرعة ففوجئنا ببعض ضباط الإمام يدقون بابنا بحثاً عن الأبطال الأمر الذي جعلنا نتصرف بسرعة ونغلق عليهم حجرة في البيت فلما أراد الضباط تفتيش الحجرة منعناهم بعنف بحجة ان بها سيدات .

وما أن انصرفوا حتى خرج الأبطال من الحجرة وانصرف المرحوم الحورش متنكراً في زي سيدة ، ثم خرج بعده بطلان آخران غير متنكرين ، أما الحورش فقد قبض عليه غير بعيد من المنزل وأما الآخران فقد كتبت لهما النجاة .

أما الاستاذ المسمري فقد ظل معنا لأنه وإن كان يمنياً إلا أنه بعيد عن اليمن منذ أكثر من عشرين عاماً عاشها جميعها في مصر طالباً ومعلماً .

وفي ليلة بشعة نكراء وبعد منتصف الليل بساعتين وقد ساد صنعاء سكون رهيب يشبه سكون القبور لاحظ إخواننا المكلفون بالحراسة أن حول البيت هرج ومرج فأنعموا النظر من خلال الطاقات الصغيرة ولشدما فزعوا حين وجدوا أن المنزل محاصر بأكثر من مئتي جندي مدجج بالسلاح وأدركوا أننا سنصبح في ذمة التاريخ بعد قليل وتولوا أيقاظنا بشكل مفزع وحاول كل منا أن يقبض على بندقيته ولكن كيف السبيل إلى سحق هذا العدد الضخم ، لم نحاول نحن أن نبدأ بإطلاق النار إما بدافع الرعب وإما بدافع الحكمة والتريث، وزاد من حرجنا أن السيدات وهن يقمن في الطابق الذي تحتنا قد

تنبهن إلى ما نحن فيه من محنة وحاولن في فزع الاستفسار عن جلية الأمر فأومأنا إليهن بالتزام السكون وصممنا على القتال المرير مهما كان الأمر. وبعد فترة قصيرة طرق الباب فسكتنا فازداد الطرق شدة فأجبنا من بالباب فرد صوت أجش أن افتحوا بأمر الإمام قلنا ما الذي جاء بك الآن في هذا الهزيع الأخير من الليل قال: عندما تفتحون ستعرفون السبب فبدأنا نفهم أن هذا الهجوم ربما يكون المقصد منه هو الشيخ المسمري المختبىء عندنا وكان المسمري واقفاً بيننا رابط الجأش إلى حد ما، إشترطنا أن يدخل من المائتين إثنان فقط وكادت تحدث ملحمة بيننا وبينهم، ورأى المسمري نفسه أن نسلمه حتى لا تحدث الكارثة فنقتل جميعاً، وكان أن استلموه وحاولوا وضع يديه وقدميه في الاغلال فاستنكرنا منهم هذا التصرف أمامنا ومشى الرجل معهم وهو غير مذنب وودعنا الوداع الذي لا لقاء بعده لأن عنقه قد ضرب في صبيحة اليوم التالي دون محاكمة.

الاعدام بضرب الرأس بالساطور

قبض على أكثر قواد الثورة وأرسلوا إلى بلدة حجة وهناك دون محاكمة كان يؤتى بالواحد منهم تلو الآخر إلى ميدان عام حيث يشد وثاقه ويميل برأسه قليلاً سانداً إياه على عمود ذي شعبتين ثم يأتي السياف الوحيد في اليمن شاهراً سيفاً قصيراً أقرب إلى الساطور أو إلى البلطة منه إلى السيف ويظل يتمايل ويتراقص قليلاً ثم يهوي بسيفه على عنق الضحية فتطير الرأس بعيداً وقد أخذت عيناها تغمضان وتفتحان في سرعة غريبة كل ذلك والجموع واقفة تشاهد الرأس الطائرة في الفضاء ثم لا تلبث أن تستقر في ركن من الأركان .

أما ابن الوزير فقد ضربت رأسه في وسط حشد كبير بعد صلاة الجمعة ولم تكفها ضربة واحدة من يد السياف فنظر الإمام الشهيد إلى سيافه بعد الضربة الأولى وقال له إضرب طيب يا عاق والديك ، فظل السياف يضرب عنقه عدة مرات إلى أن فصل الرأس عن الجسد ، ولذلك يقال في اليمن إن ابن الوزير قد ذبح كما تذبح الشاة .

وهناك أحمد البراق الذي سيق إلى هذه المقصلة البدائية وبينما هو على وشك الاعدام إذ تقدم شخص يريد التقاط صورة له ، فنظر البراق إليه في سخرية وقال له إن الصورة تكون أفضل عندما يطير الرأس في الهواء .

وهذا محيي الدين العنسي البطل الذي رأى بعض الهمج يصفقون وهو في طريقه إلى المقصلة فنظر إليهم نظرة احتقار وقال لهم : لعنة الله عليكم من شعب أردنا له الحياة فأراد لنا الموت .

وكانت الجثث بعد القتل يمثل بها شر تمثيل ثم تصلب لفترة طويلة أما الرؤوس فكانت كل رأس ترسل إلى البلد التي ينتمي إليها صاحبها ، ولقد

صلبت رأس ابن الـوزير في صنعـاء في ميدان اسمـه ميدان شـرارة سبعة أيـام وعلى مقربة منها رؤوس أخرى بـادياً عليهـا إمارات العبث والتمثيـل مما يـدل على أن ابن الوزير قد مثل به بعد مـوته وظلت الـرؤوس معلقة على الحيـطان حتى أصابها التعفن فدفنت في مكان مجهول .

زاولت الشحاتة في صنعاء

انقلب الحصن الذي اعتصمنا فيه إلى سجن رهيب وبدأت سلسلة من المتاعب والهوان شربنا خلالها كأس العذاب حتى الثمالة ووضع على بابنا حراس شداد غلاظ يمنعون الناس أن يلجوا بابنا ومن حاول ذلك كان عرضة لاطلاق الرصاص عليه . طلبنا من السلطات الحاكمة إطعامنا ولكن لم يلتفت أحد إلينا وكان كل ما يقدم إلينا في بعض الأوقات لا يزيد على وجبة غلام صغير فكنا نلوذ بالصبر ونعصب بطوننا ، فقد كان نصيب الفرد لا يزيد على كسرة صغيرة في كل أربعة وعشرين ساعة ، وما لبث الهزال أن دب في أجسامنا وأبداننا فلم نر بدأً من السؤال ، وهكذا قدر لنا والعين تدمع أن نعيش بما يجود علينا به المحسنون وكان لدينا خادمان صغيران أبت عليهما نفسيتهما الطاهرة إلا أن يرافقانا في أشد الأيام سواداً فكان كل منهما يحمل كيساً صغيراً من القماش ويتسلل من المعتقل دون أن يراه الحراس ويذهب إلى البيوت التي كانت تربطنا بها صلة طيبة في الماضي ويسألهم بعض الأرغفة فمنهم من كان يجود بما عنده وقد تندت عيناه بالدموع ومنهم من كان يرده بالحسنى خوفاً على حياته أن يصيبها مكروه إذا ما عرف أنه يساهم في إطعامنا ، ثم لا يكاد يدخل الليل بستاره حتى يهل علينا الخادمان كما يهل الغيث على الأرض المجدبة ثم تقسم الغنيمة بيننا بالعدل والقسطاس مع قليل من الملح أو الفجل أو الكرات .

وما أن شاع خبر جوعنا في صنعاء حتى تأثر الكثيرون خصوصاً تلاميذنا الأوفياء الذين كانوا يتسلمون غذاءهم ثم يهربونه إلينا سراً وهذا ضرب من الوفاء لا أنساه لهم رغم أن غذاءهم هذا كان مكوناً مما يسمى في اليمن « بالكدم » والكدم عبارة عن خبز متكور مكون من التراب والحصى والردة وقليل من الدقيق ، والذي يدعو إلى الدهشة حقاً أن أكثر الأهالي عطفا علينا

في هذه المحنة هم اليهود الذين تفننوا في تهريب الطعام إلينا .

ولا أحدث القارىء الكريم عن حالنا وكيف اتسخت ملابسنا وطالت لحانا وتشعث شعر رؤوسنا حتى أصبحت ملامحنا أقرب إلى قطاع الطرق منها إلى ملامح أساتذة ، ومن الطريف أن بعضنا كان يحلق للبعض الآخر شعر رأسه بمقص الأظافر الوحيد الذي كنا نملكه .

ولم نكن رغم ما نحن فيه من بلاء مطمئنين على أرواحنا كل الاطمئنان فما يكاد يجن الليل حتى نقتسم الحراسة بحيث يقضي كل ثلاثة منا ساعتين من الزمن واقفين « زنهار » مدججين بالسلاح على أكمل أهبة للذود إذا حدث ما ليس في الحسبان .

٩

عودة إلى الحياة

نسور مصر في سماء صنعاء

لما بدأت سحب الفشل السوداء تهدد الثورة بالذبول والفناء وأخذت القبائل الغازية تتجه نحو صنعاء بعد أن أبيحت لهم أصبح مركزنا نحن المصريين في منتهى الحرج وزاد حرجاً بوصول القبائل فعلاً إلى أسوار صنعاء وكانوا يطلون من خلف السور بعمائمهم السوداء ووجوههم المخيفة ويصدرون أصواتاً منكرة مرعبة كأنها أصوات الحيوانات المتوحشة في الغابة حينما تتأهب للانقضاض على فريسة .

أحسسنا أن مصيرنا المحتوم واقع لا محالة فقمنا بنداءات واستغاثات إلى مصر والدول العربية على أمواج الأثير لكي يعملوا على إنقاذنا من الوحوش الضارية ، وكانت إذاعاتنا مثيرة متكررة مثل : نحن المصريين في خطر . الوحوش الآدمية في الطريق إلينا ، إنهم سيأكلون أطفالنا . إن الضباع والنسور تنتظر جثثنا في ظاهر صنعاء . وهكذا استغاثات مثيرة متقطعة على موجات الأثير إلتقطها السفير المصري في جدة فسارع واتصل بمصر فأجابته أنها مسارعة إلى إنقاذنا ، فاتصل بنا الرجل العظيم ببرقية قال فيها : «طائرتان حربيتان مصريتان في الطريق إليكم ، إستعدوا للسفر» فكان وقع البرقية علينا وقوع الماء الغزير على الأرض المجدبة وافترت ثغورنا وفرحنا بالحياة ، غير

أن الفرحة لم تطل إذ فوجئنا بعد ساعات بالهجوم الهمجي على صنعاء فسارع كل مصري حاسر الرأس حافي القدمين هو وزوجته وأولاده إلى المنزل الذي كنا قد اتفقنا على التجمع فيه لكي نتخذ منه قلعة حصينة ، وقضينا ليلة أسود من رأس الغراب نترقب الهجوم وننتظر الطائرات ، وفي تمام العاشرة من الصباح كانت طائرتان مصريتان تحلقان في سماء صنعاء بغية النزول لانقاذنا ، حاول النسور المصريون الهبوط في المطار الصغير الذي حدثتك عنه ، غير أن رجال القبائل كانوا قد ملأوه بالحفر ووضعوا فيه الخوازيق المتقاربة حتى يحولوا بين الطائرات وبين النزول ولم يكتفوا بذلك بل صوبوا إلى الطائرات مئات الآلاف من طلقات الرصاص ورغم كل ذلك ظلت الطائرتان محلقتين حوالى الساعتين على ارتفاع بسيط تحاولان النزول رغم ما في ذلك من مخاطرة شديدة . وكنا نلوح لهم من الشبابيك بالطرابيش الحمراء الأمر الذي ألهب مشاعر النسور الأبطال وكانوا مجهزين بالأسلحة لكي يشقوا طريقهم إلينا وإنقاذنا مهما كان الأمر ، غير أنه لسوء الحظ اصيبت إحدى الطائرتين إصابة خطيرة قريبة من خزان البنزين فاضطر النسور المصريون إلى الانسحاب من جو صنعاء إلى أقرب مطار لرأب الصدع الذي أصاب إحدى الطائرتين . ومن مطار « كمران » طاروا إلى جدة حيث أبلغوا السفير المصري بما حدث وأيقن الجميع أننا استشهدنا وأن نساءنا قد سبيت وأن أطفالنا قد أكلتهم الوحوش البشرية ، وانتقل الخبر إلى مصر فنشرته الصحف المصرية بالخط العريض على صفحاتها الأولى ، ففزع أهلنا وأقاموا في كل بيت مأتم ولبسوا علينا السواد وامتثلوا لأمر الله أحكم الحاكمين .

مولد طفلة مصرية في السجن

طالت مدة سجننا وطال معها عذابنا وجوعنا وكان أشأم يوم علينا هو يوم عجز الطائرات عن إنقاذنا ، فاضطررنا إلى الدفاع عن أنفسنا وأرواحنا وأعراضنا بشراسة وعنف ووحشية وتصميم ، إننا معتدى علينا ولسنا معتدين ، إن قانون الغابة فضلاً عن قانون المدينة يبيح لنا قتل من يحاول الاعتداء علينا ، فخضناها معركة رهيبة يشيب لهولها الولدان ، وبعد المعركة تحولت قلعتنا إلى سجن رهيب ضمنا ضم لئيم لكريم ، وسارت الأيام وإذا بنا في إحدى الليالي نسمع في الطابق الأسفل هرجاً بين السيدات فساورنا الجزع غير أننا ما لبثنا أن عرفنا أن ضيفاً جديداً صغيراً قادم إلينا في الطريق من العالم المجهول لكي يزيد عدد المسجونين المصريين واحداً .

بعثنا نستنجد بواسطة الحراس الغلاظ بطبيب أو قابلة ولكن أي طبيب يجرؤ على السير في صنعاء في هذا الوقت إنه عرضة للسلب والنهب والقتل لا من اللصوص ولا من رجال القبائل بل من رجال الشرطة أنفسهم الذين يذهبون لاستدعائه .

وأخيرا اضطرت السيدات المصريات بمعلوماتهن المحدودة وكلهن صغيرات غير ذوات خبرة كافية إلى القيام بعملية الولادة التي تمخضت عن طفلة جميلة جاءت إلينا بغير احتفال أو استعداد ، وأخيراً عقدنا مؤتمراً صغيراً لاختيار اسم للطفلة الجديدة . وقد عرضت أسماء كثيرة اختير من بينها اسم « سلوى » فكانت للجميع أنساً وسلواناً .

ايامنا جميلة كايام « طره »

أخذت الأيام تمر والليالي تكر ونحن على هذه الحال من الجوع والخوف والحرمان ولم يكن هناك بد من أن نتحايل لكي نبلغ حكومتنا المصرية بحالنا مهما كلفنا الأمر ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك .

زارنا أحد السيوف ذات يوم وكانوا يكثرون من التردد علينا لعلهم يستفيدون شيئاً من معلوماتنا عن الأحرار المختفين فعرضنا على الأمير المذكور أن يساعدنا في إرسال برقية إلى أهلينا في مصر لكي نطمئنهم أننا لا زلنا على قيد الحياة فأجابنا أن الحكومة اليمنية ستقوم بذلك ، فتوسلنا إليه أن تكون البرقية منّا شخصياً لا من حكومة اليمن حتى ندخل الطمأنينة على قلوب أهلينا فوافق بعد مشقة على أن يراجع البرقية بنفسه ، قلنا لا بأس واستعملنا في كتابتها جميع أساليب المكر والدهاء وكتبنا برقية هذا نصها :

« وزير الخارجية القاهرة

نحن المصريين في صنعاء بخير ، نجونا من الأحداث بفضل رعاية أصحاب السمو سيوف الاسلام الأماجد حرسهم الله تعالى وعلى رأسهم أمير المؤمنين حفظه الله وأيد ملكه . أيامنا جميلة كأيام طره وليالينا طيبة كليالي الزيتون سلموا على أهلينا وطمئنوهم » .

وهكذا كتبت البرقية بألفاظ كلها مدح في السلطات الحاكمة مما أطرب الأمير المغفل وجعله يفرح بها ، ويوافق على إرسالها في الحال دون أن يدري ما بها من اصطلاحات لا يفهمها إلا مصري مثل ألفاظ طره والزيتون . ومن المعروف أن طره تضم سجناً رهيباً والزيتون تضم معتقلاً شهيراً .

مضت ثلاثة أيام على البرقية ولم تظهر لها نتيجة حتى خشينا أن نكون قد أوهمنا بإرسالها بينما لقيت طريقها إلى سلة المهملات ، غير أنه في اليوم

الرابع فوجئنا بالسلطات الرسمية تأتي إلينا مهنئة مباركة بالافراج عنا مدعين أن الأمور قد استقرت وأن لا خوف على حياتنا من العودة إلى منازلنا ، وكان الواقع أن البرقية عملت عملها في مصر فقد استدعى رئيس الحكومة المصرية وكان النقراشي باشا سيف الاسلام عبدالله وعنفه وهدده وطلب إليه الاتصال بأخيه الإمام فوراً لاطلاق سراحنا ومساعدتنا على العودة إلى مصر وإلا اضطر إلى اتخاذ إجراءات عنيفة ضد اليمن ، ولم يكتف بذلك بل حدد إقامته في مصر ومنعه من الخروج منها حتى يصل جميع المصريين من صنعاء .

وهكذا خرجنا من السجن الرهيب إلى بيوتنا التي وجدناها قاعاً صفصفاً فقد سرق لصوص القبائل كل ملابسنا وأموالنا وحاجياتنا فلم نهتم وإنما أخذنا نعد العدة للسفر .

الطوفان الرهيب

حان موعد السفر فأحضرت لنا السلطات سيارتين من سيارات النقل ووضعتنا فيها فاضطررنا لركوبهما ـ والمضطر يركب الصعب ـ بعد أن احتججنا على هذه المعاملة في طريق رهيب عرفنا مخاطره وخبرنا متاعبه ، وبدأت القافلة تتحرك وقد ألقى كل منا نظرة إلى الخلف يشاهد مغاني صنعاء التي اخضرت غصونها وطابت فاكهتها واعشوشبت مراعيها وغردت طيورها إذ نحن في فصل الربيع الذي تكثر أمطاره وينهل غيثه في ربوع اليمن ، غير أن منظر تلك الربوع المهدمة المنزوعة الأبواب العارية من النوافذ كان يحز في نفوسنا ويفسد علينا تأملنا ، وسار الركب متجهاً نحو الجنوب .

وكان الوقت أصيلاً والنسيم عليلاً وما هي إلا لحظات حتى احتجبت الشمس وتجهمت السماء وساد ظلام رهيب وأخذ المطر ينهمر مدراراً كأنه أفواه القرب وبدأ الرعد يزمجر زمجرة رهيبة مخيفة تصم الآذان وسيوف البرق اللامع تخطف الأبصار والألباب والطريق شديد الوعورة بين مسالك الجبال .

وبعد صبر ولأي وخوف وخطر ونصب وصلنا إلى بلدة معبر حيث قضينا فيها الليل وأشرق الصباح فإذا الجو جميل صحو والشمس مشرقة الطلعة والسماء صافية الأديم . وكان علينا أن نجتاز في هذا اليوم أصعب مسالك الطريق وأخطر القمم وأوعر الجبال التي حدثتك عنها في أول هذا الكتاب ، وتعرضت السيارة ونحن نجتاز نقيل المصنعة إلى الانقلاب في هاوية الوادي السحيق . غير أن عناية الله تداركتنا فقفزنا منها حتى تمكن السائق أن يعود بها إلى جادة الطريق .

إنتصف النهار وبدأت السماء تتجهم من جديد وتتلبد بالغيوم الكثيفة والسحب المطيرة إذ أن الأمطار في اليمن ـ وهذا شيء عجيب ـ لا تنزل إلا بعد

الظهر وفي الليل ، وكان يوماً عبوساً قمطريراً وأرسلت علينا السماء الماء مدراراً وقصف الرعد واشتد البرد وانسدت المسالك وبدأ الطوفان يدفع أمامه الحجارة الضخمة وجذوع الأشجار الغليظة ويرمي بسيارتينا إلى عشرات الأمتار دون أن نعرف درءاً لهذا الخطر المفاجىء فتارة نتوقف عن المسير وطوراً نجازف ونعبر الأودية المليئة بالماء الذي كان يغطي أكثر من نصف السيارة ، كل ذلك والسماء لا تكف عن إرسال هذا البلاء ، فاضطررنا أن نقضي الليل في العراء تحت الأمطار في منطقة يقال لها « عبال » مقفرة إلا من الوحوش خالية إلا من الهوام وكانت ليلة أصابنا فيها من أصناف الرعب والفزع ما يعجز القلم عن وصفه ، كنا نرى الوحوش على سطح الطوفان فنظن أنها سابحة في الطريق إلينا لكي تفترسنا ثم لا نلبث أن نتبين أنها غارقة طافية ، من كل ذلك لم يغمض لنا جفن ولم يرفأ لسيدة دمع ولم يهدأ لطفل صراخ . ظللنا هكذا حتى مطلع الفجر وهبط الطوفان فبدأنا نسير متخبطين حتى وصلنا إلى الحديدة في ظهر اليوم الثالث وشتان الفرق بين جو صنعاء المعتدل الجميل وبين الجو في الحديدة الحار الرطب الفظيع .

السندباد البحري

نزلنا في الحديدة في بيت الضيافة نزولا غير كريم وعوملنا معاملة غير كريمة وطلب الينا أن يكون سفرنا إلى تعز ومنها إلى عدن ومن عدن نركب البحر إلى مصر ، ومعنى ذلك أن نجتاز الطريق الرهيب الذي حدثتك عنه مخترقين بيت الفقيه وزبيد و « حيس » التي حدثتك عن عاملها الجلف اللئيم البخيل كل ذلك في أشد فصول السنة حرارة فعرفنا أن هناك مؤامرة جادة للتخلص منا فلن ينجو واحد منا من ضربة الشمس باي حال من الاحوال . وحينئذ تكون الحكومة اليمنية قد تخلصت منا دون مسئولية ، فإذا نجونا من صحراء تهامة تعرضنا للملاريا الخبيثة في تعز ولحماقة ساكنها « العظيم » ، فإذا نجونا من تعز ابتلينا بحرارة عدن وسوء معاملة الانجليز لنا ، وكنا لم ننس بعد كيف طردونا منها بدون ذنب وكيف هددونا بالسجن إن لم نغادرها في خلال ساعتين من ابلاغنا بالإنذار .

مرت بنا كل هذه الاطياف سريعة متعاقبة ، وبينما نحن كذلك إذ شاهدنا في مياه الحديدة في الافق البعيد باخرة صغيرة لا تزيد حمولتها على مائة طن ، أو هي بالاحرى زورق بخاري صغير ، وخطر لنا أن نبحر على هذا الزورق إلى أي مكان يتجه اليه هربا مما نحن فيه ، وعلمنا أنه متجه إلى مصوع واذن فسنعبر عليه البحر الاحمر من اوسع منطقة بين شاطئيه وهي مغامرة خطيرة غير أن الخطر المتوقع خير من الخطر الكائن فعلا ، فاتصلنا بوكيل الشركة الملاحية سرا ونقدناه ما اراد . وفي لمح البصر كانت الزوارق الشراعية (السنابيك) تشق عباب الماء متجهة نحو الزورق البخاري « لمبارديا » .

بدأ الزورق الصغير يتحرك بركابه من الرجال والاطفال والسيدات الهاربين من جحيم اليمن مهللين مكبرين . وكنا قبل الغروب فاستمتعنا



بانعكاس الشفق على صفحة الماء واقبل الليل وتوسط القمر كبد السماء وأخذ يرسل اشعته الفضية على الزبد الشارد فيبدو كسبائك اللجين وهكذا قضينا ليلة جميلة ثم صباحا جميلا .

وجاءت الليلة التالية ، وما كاد ينقضي الثلث الاول منها حتى بدأت الماكينات تحتضر والمحركات تتوقف ودينامو الاضاءة يتعطل وإذا هرج ومرج بين البحارة قليلي العدد عديمي الخبرة وكانت ليلة من أشد ما رأينا هولا وأخذت الامواج تتقاذف الزورق الصغير بركابه . وكان البحر نصف هائج ونحن لا نملك الا الاستسلام لقضاء الله وقدره ، فكان كل واحد منا كالسندباد البحري الذي ما يكاد يخرج من مأزق حتى يقع في مهلكة ، وكنت تسمع مناجيات كثيرة بين كل منا وبين الله ، وكانت وحوش القرش تبدو لنا قريبة جدا في جماعات تقفز على صفحة الماء وكأنها متحفزة للهجوم علينا ، وهكذا مأزق رهيب وليلة من أسود ليالي العمر .

كان الوجوم يكسو وجوهنا والذعر يملأ جوانحنا والسكون ينشر لواءه علينا انه سكون الفزع والاستسلام ، ثم لا يلبث أن يقطع ذلك ضراعة متضرع أو تنهيدة مرتاع أو نكتة يائس حتى بدت في الافق تباشير الصباح وعلى ضوئها اصلح البحارة الآلات والمحركات وبدأ الزورق ينساب عن صفحة الماء من جديد ثابت العزم قوي الضربات . ولكن الحظ العاثر اوقعنا في مأزق آخر إذ تبين أن الزورق يدور حول نفسه في دائرة واسعة قطرها حوالى ثلاثة كيلو مترات وإذا بنا نكتشف أن البوصلة قد توقفت عن العمل ، فطلبنا من الربان أن يتوقف عن المسير لئلا ينفد الوقود ونضل الطريق ونموت على صفحة البحر فانصاع الرجل للأمر وكان شيخا عاقلا ، وبعد ساعتين تقريبا لمحنا في الافق البعيد باخرة ضخمة فاتجهنا اليها في سرعة فائقة حتى اصبحنا على مقربة منها وأفهمنا الربان أنها متوجهة نحو الشمال فترسمنا خطاها ثم جاءتنا اشارة منها بعد ساعتين تقريبا أن نتجه نحو اليسار حيث لاح لنا الشاطىء الافريقي من بعيد ، وعلى هداه وصلنا إلى مصوع وفيها قبلنا الارض لله شكرا وصدقنا انفسنا أننا قد بعثنا إلى الحياة من جديد .

اريتريا الساحرة

إن مصوع هي ميناء اسمرة عاصمة اريتريا ، ولعل القارىء حين يسمع عن مصوع يتبادر إلى ذهنه على الفور أنها بلدة متأخرة يسكنها قوم متخلفون ، ولكن الحقيقة غير ذلك إذ هي بلدة ساحرة فاتنة مكونة من بضعة جزر صغيرة متقاربة جدا حتى أن كل بيت فيها إن لم يكن يطل على البحر مباشرة فإنه يراه عن قرب . ولذلك فهي فينسيا الشرق دون منازع وسكانها قوم على جانب كبير من النشاط بين وطنيين وعرب وطليان وقد ادخل هؤلاء الاخيرون على المدينة كثيرا من المباهج والتقدم .

مضى علينا يومان في مصوع نزلنا خلالهما في فندق جميل اسمه المنظر الجميل وفي اليوم الثالث ابحر زملائي على باخرة ايطاليا إلى مصر مباشرة وكانت فرحتهم لا تقدر ، اما انا فقد اضطررت إلى البقاء في مصوع لادخال زوجتي المريضة إلى المستشفى فقد قاست في الرحلة كثيرا من التعب وكانت في شهورها الاخيرة من الحمل فلقيت نصبا قاتلا وتعبا مميتا .

ولا يمكننا أن ننسى بحال تلك الامسيات الجميلة التي قضيناها على شاطىء البحر الاحمر في كازينو الليدو حيث تناولنا لاول مرة الاطعمة الشهية وسمعنا لأول مرة الموسيقى الساحرة من كبار الموسيقيين الطليان وموجات البحر تتراقص من حولنا طربا ، إنها الحياة التي بعثنا اليها من جديد نشرب من نعمائها ونعب من خيراتها ونستمتع ببسماتها . ألم نبعث إلى الحياة من جديد ، ألم ننج من السجن الرهيب .

ولقد راق لنا بعد أن شفيت زوجتي أن نزور اسمرة ما دامت غير بعيدة عنا فركبنا سيارة ضخمة فخمة أخذت تتسلق بنا الجبال الخضراء في طريق ممهد ينساح بين القمم السندسية والقرى المبنية في أحضان الجبال الساحرة على نسق القرى الاوربية . وفي الطريق كثير من الاستراحات التي تستلقي

بين الخمائل الوارفة الظلال فلا تكاد نظن إلا انك في رحلة سياحية جميلة في سويسرا مثلا اللهم إلا ما يصادفك بين حين وآخر من الوطنيين ذوي البشرة السوداء .

وبين مصوع وأسمرة طريق آخر بواسطة الديزل العجيب الذي يتحرك بك ويتلوى بين الجبال في الصعود والنزول مخترقا سبعة عشر نفقا .

إنه من العجيب أن المساقة بين مصوع وأسمرة هي نفس المسافة التي بين الحديدة وصنعاء والتضاريس واحدة والجبال واحدة ، غير أنك تقطع الاولى في أربع ساعات بينما تقطع الثانية في ثلاثة أيام ، ولكن ذلك فرق الحضارة من التأخر .

وأسمرة مدينة جميلة فاتنة والجو فيها بارد صيفا شديد البرودة شتاء نظرا لارتفاعها فوق سطح البحر باكثر من الفي متر ، ومبانيها ضخمة بيضاء وشوارعها فخمة فسيحة والمحال التجارية فيها لا تقل عن أجمل المحال في روما وباريس وأغلب سكانها من الطليان ولذلك يطلقون عليها اسم « روما افريقيا » .

قضينا في أسمرة اياما جميلة طيبة عدنا بعدها إلى مصوع عن طريق الديزل الذي ينساب بين الجبال في طرق حلزونية كأنه الثعبان وهكذا عدنا مرة ثانية إلى مصوع وقمنا حولها برحلات قصيرة كثيرة وعشنا فيها اياما جميلة .

وصلت إلى ميناء مصوع الباخرة المصرية « زمالك » وكنت قد ازمعت الابحار عليها إلى الوطن العزيز وما كدت ارتقي سلمها حتى فوجئت بالبطل المجاهد الفضيل الورتلاني على ظهرها ، كانت مفاجأة عجيبة ، فلقد ترك الرجل صنعاء قبل سقوطها بثلاثة ايام ليتفاهم مع وفد الجامعة العربية في جدة ، ثم انقطعت عني أخباره منذ ذلك الحين ، وكانت السلطات اليمنية جادة في طلبه ، واصدرت عليه حكما بالاعدام وكانت مفاجأة غريبة كل الغرابة ، سارة كل السرور ، غير أن هذا السرور ما لبث أن انقلب إلى وجوم وأسف حينما علمت من الرجل أنه على ظهر هذه السفينة منذ أكثر من شهرين يجوب البحرين الأبيض والأحمر من عدن إلى بيروت ومن بيروت إلى عدن عدة مرات دون أن يسمح له بالنزول في اي ميناء مع أنه يحمل اذن دخول إلى الاراضي اللبنانية ، ولكن السلطات اللبنانية تحت ضغط ملوك العرب الذين يخافون على عروشهم والذين اعتقدوا أن الورتلاني مسئول عن الشرارة الاولى التي اطلقت فقتلت أول ملك ، هؤلاء الملوك وخاصة الملك عبد الله وفاروق قد أستماتوا في منع الرجل من النزول في اي بلد عربي ، ولعلهما كانا يحسان بما ينتظرهما نتيجة تنبيه الورتلاني لفريق من شعب العرب في اليمن ، فلم تمض بعد ذلك سنتان حتى قتل الملك عبد الله ، ولم تمض سنتان اخريان حتى طرد فاروق واسرته من مصر والبقية تأتي إن شاء الله .

المهم أن الفضيل الورتلاني كانت هذه حاله وقد اتخذ من « زمالك » جزيرة متنقلة يسكن فيها غير مرغوب فيه ، فكان أغرب سجن شهده انسان في هذه الحياة ، من المفهوم أن يسجن انسان في سجن أو معتقل اما أن يسجن على ظهر باخرة وقد حرمت عليه الارض فلا يرى الا الماء والامواج والنجوم والسماء فهذا أمر مضحك مبكي .

تعانقت والرجل عناقا طويلا وشعر كأنني قد نزلت اليه من السماء ، وفعلا بدأنا نتخذ العدة لانقاذه من هذا السجن وهي قصة طويلة عريضة مليئة بالمغامرات والاسرار لم يحن الوقت لنشرها ، ولكن لا بد من اذاعتها في الوقت المناسب. وعندما تذاع عليك ايها القارىء ـ وأرجو أن يكون قريبا فقد اهتزت لها عروش وارتعد بسببها رؤساء جمهوريات ولعب فيها اشخاص كبار عظام ادوارا كبيرة كما لعبت المصادفات ايضا ادوارا اكبر وأعظم ـ المهم أن هذه القصة عندما تذاع سترى ايها القارىء أنها لا تقل غرابة عن هذه المغامرات التي أظنك في بحر من العجب والتعجب بل في بحر من الهوس وانت تقرأها .

اقلعت بنا الباخرة من ميناء مصوع وكنت وزوجتي نركب الدرجة الثالثة لأن القليل الذي كان معنا من النقود دفعناه ثمنا للعلاج بمستشفى مصوع وثمنا للاقامة الطويلة في فندق المنظر الجميل ، وظللت ملازما للورتلاني المجاهد الذي كان يدخل الرعب إلى قلوب السلطات المحلية في كل ميناء ترسو عليه الباخرة التي تحاط بالجنود البحريين من كل جانب لمنعه من النزول .

في جدة

كانت أول ميناء نصل اليها بعد مصوع هي ثغر بور سودان وقد ذكرت لك أن السلطات منعت الاستاذ الورتلاني من النزول فيها فقضينا بها يومين للشحن والتفريغ ثم أبحرت الباخرة منها في جو بديع وبحر هادىء كأنه بساط من زبرجد ، وبعد يومين على ظهر الماء لاحت لنا الاراضي المقدسة من بعيد وأخذت جدة تقترب منا رويدا رويدا . وكان لا بد لي من النزول إلى جدة لاقتراض مبلغ من المال من سفير مصر أصلح به حالي وأنتقل به من الدرجة الثالثة إلى الدرجة الاولى ، فقد ذقنا التعب الوانا في نومنا على الخشب وبخاصة أن في رفقتي زوجة مريضة زادت عليها العلة ونحن نمخر عباب البحر حتى اشفقنا عليها من العطب .

ما كادت الباخرة ترسو في مياه جدة إذ لم يكن في جدة ميناء في ذلك الوقت ، بل كانت الباخرة تقف على بعد كيلو مترين من الشاطىء ثم ينقل الركاب بواسطة الزوارق الشراعية أو البخارية إلى الشاطىء .

أقول ما كادت الباخرة ترسو في مكانها حتى أحيطت بقوة ضخمة من الجنود لحراستها ومنع جميع الركاب من النزول إلى الشاطىء ولم يقتصر الامر على الورتلاني وحده ، وكان لا بد لي أن أنزل إلى البر للسبب الذي ذكرته آنفا ولسبب آخر لا يقل عنه أهمية ، ولكن ما العمل والكل ممنوع من النزول ، كان عليّ أن ارسم خطة محكمة الاطراف وإلا فإن النتيجة تكون في منتهى الخطورة .

كانت الليلة مقمرة زاهية وقد فرشت الصحراء المقدسة من بعيد ببساط من نور مما بعث في نفسي شعور بالثقة والايمان فبدأت اشارك الحراس المحيطين بنا على ظهر المركب سهرهم واتودد اليهم وأقص عليهم نادرة لطيفة أو مغامرة طريفة أو قصة مليحة . كل ذلك والركاب نائمون ولم تمض ساعات

قليلة حتى كنت قد استوثقت من اني استوليت على قلوب الحراس وملكت نواصي عواطفهم وأصبحوا تحت إمرتي جميعا آنسين إليّ متسابقين إلى اكرامي ، في ذلك الوقت بدأت أضرب ضربتي بادئا بتوجيه اللوم والعتاب اليهم إذ كيف يمنعونني من النزول إلى الارض المقدسة التي يهفو اليها قلب كل مسلم وأنا على بعد امتار منها . ولم أكن في حاجة إلى الاسترسال في هذا العتاب إذ سرعان ما دبت فيهم النخوة العربية وتعهدوا أن ينزلوني معهم في صبيحة اليوم التالي بطريق التهريب لأن نزولي علنا مخالف للأوامر التي صدرت اليهم .

وفي تمام الساعة الخامسة صباحا كنت مرتديا ملابسي مستعدا للنزول إلى الارض فصحبني الجنود في زورقهم البخاري بعد أن خبأوني في ركن منه ، وبعد فترة قصيرة كانت قدماي تطأ الارض المقدسة لاول مرة ، واتخذت طريقي فورا إلى السفارة المصرية بارشاد احد الحراس الاوفياء .

وفي السفارة كان السفير في استقبالي مرحبا وأصر على ارسالي إلى مكة المكرمة للعمرة ، ثم عدت مع الغداء حيث تناولته لذيذا هنيا شهيا ، طعاما مصريا في ارض مصرية ، فالسفارة المصرية ارض مصرية ولو كانت في شيلي وأخذت من السفير مبلغا من المال وعدت إلى الباخرة بنفس الطريقة التي نزلت بها حيث أخذت مكاني في الدرجة الاولى .

العودة إلى الوطن

ابحرت الباخرة في ظهر اليوم التالي وقلبي يخفق فإن أول ميناء لنا هو ميناء السويس المصري . اضطرب البحر اضطرابا شديدا خطيرا فلم نأبه له ، وثارت الامواج ثورانا مجنونا ، فلم نعبأ بها ، ولعبت الباخرة واهتزت اهتزازا ينذر بالموت غرقا فلم نعرها اي اهتمام ، السنا في الطريق إلى الوطن ، السنا قد خلقنا من جديد ، ألسنا بعد قليل سنكون في أكرم ارض وأطيب وطن وأعز أهل .

لاحت السويس من بعيد وقد أخذ الشوق اليها كل مأخذ ولشدة الشوق كانت تبدو الباخرة كأنها متاقلة في سيرها والواقع غير ذلك فكنا نستحثها الخطى ونقفز هنا ونجري هناك حتى رست الباخرة على الميناء فوجدنا أهلي وأهل زوجتي على الرصيف ينتظروننا في لوعة وشوق ، الم يفتقدونا قبل ذلك واحتسبونا عند الله في دنيا المغفورين ، إننا نهبط السلم اليهم ، إننا نتعانق إنني اقبل الارض ، ارض الوطن الطاهرة ، إن السيارة تقطع بنا الارض وتنهب بنا الطريق الصحراوي إلى القاهرة حيث الوطن والأهل والأصدقاء حيث الحرية والأمان . . . والحياة .

خاتمة

ما رأيك أيها القارىء في هذه المغامرات ، إنها حقيقة مغامرات ، ولكنها في نفس الوقت حقائق ، لا شك أنك ضحكت كثيرا وأسفت كثيرا ، وبكيت كثيرا فكل صفحة من صفحات هذا الكتاب فيها ما يضحك وفيها ما يؤسف ، وفيها ما يبكي .

هذا الشعب العظيم السليب الحرية المقطوع الرزق المريض الجاهل العاري في الوقت الذي يمكن أن يكون فيه صحيحا عالما كاسيا غنيا .

هذه الاسرة الحاكمة الظالمة المخلة التي تعيث في الارض فسادا تمتهن المواطنين وتعتدي على أموالهم وأعراضهم وحرياتهم ومقدساتهم ، بل تعتدي على اعراض افرادها ، الرجل وابنته ، والشاب وأخته ، والاخ وأخيه .

هذه الاسرة غير العربية ، الاسرة الفارسية التي اشترت لنفسها نسبا وفرضت نفسها على الرسول وعترته وعلى العرب واحسابهم والرسول وعترته منها براء والعرب واحسابهم منها غرباء .

وهذه الإمامة الباطلة المخالفة للشرع التي أخذت اغتصابا بغير بيعة ولم تتوفر فيها شروط النسب الشريف ولا الاستقامة أو العدل أو الايمان أو التفقه في الدين .

وهذا الاهمال للثروات الكامنة من زراعية وصناعية ومعدنية ومائية وتجارية امعانا في افقار الشعب وحرمانه والقضاء على حيويته حتى يظل خاضعاً لهم مغلوبا على امره .

وهذا التأخر الشنيع الذي يساعد عليه حكام تلك البلاد بدلا من أن يسيروا بها قدما إلى الأمـام .

وهذه الثورة الكبرى التي خاض الشعب اليمني غمارها بايمان لولا ما احاط بها من خيانات جاءت من الخارج ولم تأت من الداخل بالاضافة إلى الاسباب الاخرى التي ليس من صالح الشعب اذاعتها في الوقت الحاضر والتي يحتفظ بها المسئولون عن حرية الشعب في صدورهم لكي ينتفعوا بها في المستقبل عندما يجد الجد ويـدوي النفير .

وهؤلاء الابطال الذين خاضوها كريمة عزيزة إلى آخر قطرة من دمائهم وآخر لحظة من حياتهم .

وهذه الدماء الزكية الغزيرة التي روت ارض اليمن كعربون لثمر الحرية ، دماء سيف الحق ابراهيم ، ودماء عبد الله بن الوزير ، ودماء علي بن الوزير ومحمد بن الوزير ، ودماء حسين الكبسي واحمد البراق واحمد الحورش ومحمد المسمري ومحيي الدين العنسي وعبد الوهاب النعمان وعلي القردعي وغيرهم من الابطال العظام الفدائيين الذين لم تسمع عنهم ايها القارىء ولكن لكل منهم قصة ضخمة سأكتبها في المستقبل القريب وأقدمها هدية لشباب اليمن والناشئة من ابنائه حتى لا يستكينوا ولا ييأسوا ويعلموا أن في أمتهم ابطالا خالدين ضحوا بدمائهم على مذبح الحرية الكبرى التي ينشدها كل يمني اينما كان سواء في اليمن أو خارج اليمن .

أيها القارىء

لا تظن أن اليمن عار عن الحضارات بعيد عن التاريخ ، إن تاريخه مشرق ، وحضارته خالدة ، ومدنيته اضاءت اركان الدنيا .

إن اليمن بلاد عريقة وشعبها عظيم وسيعيش عظيما وسأقدم لك قريبا كتابا عن تاريخ اليمن حتى تؤمن بما اقول وتشد معي على يد كل يمني حتى نبعث فيه القوة والنشاط والايمان بمستقبل كريم حر يليق بذكائه واخلاقه وماضيه المشرق ومستقبله المأمول .

انتهى في ١٤/٥/١٩٥٦

الانقلاب الاخير في اليمن

راشد البراوي



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ظل العالم العربي يجهل الكثير عن اليمن ولا يعنى بأمورها بسبب العزلة التي عاشت فيها سنين طوالا، والستار الكثيف أو الحديدي المضروب عليها. فلما حدث مصرع الإمام يحيى ووقع الانقلاب أثير الاهتمام في مختلف البلاد العربية بوجه خاص، وأخذ الناس يتتبعون في شغف وتلهف الأنباء الواردة وكانت جميعها تتصف بطابع التناقض إلى حد ليس بالقليل، أما وقد أسدل الستار على الحادث فإنا نقدم هذا المقال محاولين فيه الإلمام ببعض جوانب الموضوع بقدر ما توافر لدينا من مصادر قليلة، وقد حرصنا أن نبرز وجهات النظر المختلفة وألا نأخذ برأي فريق دون رأي الفريق الآخر.

وإنا لنرجو أن نكون قد وفقنا إلى تحقيق هدفنا وهو عرض موضوع الانقلاب وتحليل أسبابه ومقدماته وبيان عوامل إخفاقه والنتائج التي قد يسفر عنها.

كلية التجارة — راشد البراوي

٨ أبريل سنة ١٩٤٨

الفصل الأول

معلومات أولية عن اليمن

بلاد اليمن عبارة عن إقليم واسع الأرجاء يقع في القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية. وهي تجاور الحجاز ونجد من ناحية الشمال، وتمتزج من جهة الشرق بالصحراء المترامية الأطراف، وتتاخم من الجنوب منطقة حضرموت، أما في الغرب فهي تطل على البحر الأحمر، ومن هذا تبدو أهميتها من حيث الاعتبارات الاستراتيجية فهي مجاورة لعدن ومدخل البحر الأحمر حيث لانجلترا مصالح كثيرة ولذا كانت سياسة هذه الدولة منذ استقلال اليمن تقوم على إبعاد أي نفوذ أجنبي عن ذلك القطر العربي، وفضلاً عن هذا فإن موقعها على الساحل الشرقي للبحر الأحمر يفسر اهتمام إيطاليا الفاشية بشأنها وهي ذات أملاك في أفريقيا تشمل أرتيرية والصومال الإيطالي، ولها أطماع في الحبشة حققتها في منتصف العقد الرابع من القرن الحالي، ولا شك كذلك أن مصير اليمن مما يهم المملكة السعودية التي تحرص كل الحرص على إبعاد أي نفوذ أجنبي عن هذه المنطقة حفاظاً على كيانها واستقلالها.

وتنقسم اليمن إلى أقسام ثلاثة:

١ ـ المرتفعات وتعرف باسم الجبال وتهطل الأمطار على سفوحها المعرضة للرياح الموسمية.

٢ ـ سهول تهامة وتمتاز على وجه العموم بحرارة الجو والجفاف، ولكن الزراعة فيها ميسورة لوجود الواحات وبسبب المجاري المائية التي تنساب من فوق الجبال.

٣ ـ الصحراء الشرقية وتمتاز بالجفاف.

وتربة اليمن على جانب كبير من الخصب واشتهرت بالإنتاج الزراعي منذ أقدم العصور حيث قامت حضارات يحدثنا التاريخ عن تقدمها ولا تزال آثارها قائمة تدل عليها، وأهم الغلات البن والذرة والقمح والشعير، ولكن البلاد تصلح بوجه عام لزراعة محصولات الأقاليم الموسمية، وتشتهر اليمن كذلك بتربية الخيول والأغنام. وتحتوي هذه البلاد على ثروة معدنية دفينة في حاجة إلى الاستغلال والاستثمار، فهناك الذهب، كما يقال بوجود مقادير كبيرة من البترول ويزعم البعض أن صخور اليمن تنطوي كذلك على معدن اليورانيوم ذي الأهمية القصوى في إنتاج الطاقة الذرية، ومن هذا نستطيع أن نتبين أهمية هذه البلاد وبخاصة من وجهة نظر الدول الكبرى، غير أن من أكبر العوائق التي تحول دون استغلال الثروة المعدنية وتنمية الاقتصاد القومي بوجه عام صعوبة المواصلات في تلك الأنحاء. وأهم الحرف التي يشتغل بها الناس الزراعة والتجارة كما أن الظروف الجغرافية تجعل من غير الميسور وجود الطابع الرعوي أو البدوي.

وينقسم الشعب الذي يبلغ عدده أربعة ملايين من الأنفس إلى طبقات أو طوائف أربع، فهناك السادة أو الأشراف الذين يرجعون بنسبهم إلى الرسول عن طريق فاطمة زوج علي بن أبي طالب. وهؤلاء يمثلون الأرستقراطية الدينية ومنهم الحكام على تلك البلاد، ويليهم في السلم الاجتماعي القبائل ومنهم المحاربون والجند، وهناك طبقة التجار التي تزاول هذه الحرفة ذات الشأن في البلاد منذ أقدم العصور وتجني من وراء ذلك أرباحاً طيبة، وفي أسفل التركيب الاجتماعي للسكان نجد الطبقة الدنيا وهي خليط من أجناس من أصل أفريقي، فضلاً عن جالية يهودية يبلغ عدد أفرادها خمسين ألفاً.

والمذهب الديني السائد في البلاد هو الزيدية، وهي إحدى فرق الشيعة. وعاصمة البلاد مدينة صنعاء البالغ تعدادها ١٥٠٠٠٠ من الأنفس وتقع في مركز متوسط بالبلاد تحيط بها منطقة جبلية وموقعها هذا أكسبها أهمية من الوجهة التجارية.

ولقد كانت اليمن جزءاً من الامبراطورية العثمانية، ولكن اعتلاء الإمام يحيى عرش البلاد شاهد تخلصها من النير العثماني، وقد كان والده المنصور مفتياً لمدينة صنعاء، وعند وفاة الإمام شرف الدين بويع المنصور خلفاً له وظل يشغل ذلك المنصب حتى مات في سنة ١٩٠٢. وحدث نزاع على الإمامة غير أن نجله يحيى استطاع أن يفوز بها واستمر يحكم البلاد حتى اغتيل في مستهل العام الحالي. وكان أول عمل له عند توليه الإمامة أن جمع الجيوش والقوات لمحاربة الأتراك وما زال بهم يطاردهم من مكان إلى آخر منذ سنة ١٩٠٤ حتى أرغمهم على الجلاء عن سواحل البلاد وتوقيع معاهدة في سنة ١٩١١ تكفل له الاستقلال التام. وعلى أثر هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى أصبحت اليمن مستقلة تمام الاستقلال. ولكن ظلت علاقتها غير ودية مع انجلترا وكذلك مع المملكة السعودية بسبب الخلاف على تخطيط الحدود، وأخيراً في ١١ فبراير سنة ١٩٣٤ وقعت معاهدة صنعاء التي اعترفت فيها انجلترا باليمن دولة مستقلة ذات سيادة، أما العلاقات مع السعوديين فظلت متوترة ودارت رحى حرب بين الطرفين أسفرت عن هزيمة القوات اليمنية، وأخيراً ساد جو من الصداقة بين البلدين ووقعا معاهدة الطائف في شهر يونية من عام ١٩٣٤ لتعيين الحدود ولم تفرض المملكة السعودية شروطاً شديدة على جارتها بل تركت لها أملاكها على ما هي عليه. وتتضمن هذه المعاهدة نصوصاً خاصة بالتحالف والمساعدة المتبادلة في حالة الحرب.

وكانت إيطاليا الفاشية ترنو بأبصارها إلى اليمن وتطمع في نيل الامتيازات الاقتصادية أو السياسية فيها، وبعبارة أخرى في بسط نفوذها على ذلك القطر العربي بصورة غير مباشرة. وفي الثاني من سبتمبر سنة ١٩٢٦ وقعت معاهدة عقدت غيرها في أول يونية سنة ١٩٢٧ مع الإمام يحيى اعترفت

فيها باستقلاله كما تعهدت أن تزوده بالأسلحة والذخائر وبالموظفين الخبراء الذين قد يرى ضرورة الاستعانة بخدماتهم وخبرتهم في أعمال الاصلاح. ومقابل ذلك تعهد ملك اليمن أن يجعل للرعايا الايطاليين الأولوية في كافة المشاريع الاقتصادية في بلاده. وعلى أثر معاهدة ١٩٢٦ أرسل الاتحاد السوفيتي بعثة تمكنت من عقد معاهدة ذات أغراض تجارية واقتصادية بحتة. وتأسست مكاتب لتوزيع المنتجات السوفيتية في اليمن.

ولقد أحدث هذا التدخل الروسي الذي جاء على أثر عقد المعاهدة اليمنية الايطالية رد فعل في حكومة عدن التي أوجست خيفة من كل هذه الجهود الأجنبية برغم طابعها الاقتصادي. ولما شاهدت إيطاليا الفاشية هذا التدخل السوفيتي، وأدركت هواجس انجلترا بشأن مصالحها في البحر الأحمر، رأت من الأفضل التفاهم مع الدولة البريطانية وتبودلت مذكرات بين المفوض البريطاني والممثل لوزارة الخارجية البريطانية والسر جيلبرت كلايتون من جهة وبين السنيور جاكوغا سباريني حاكم أرترية من جهة أخرى، وكان الغرض من هذه المباحثات بث الطمأنينة في نفوس الانجليز.

وفي ٤ سبتمبر سنة ١٩٣٧ عقدت اليمن وإيطاليا معاهدة أخرى لتأييد العلاقات التي أقامتها المعاهدات السابقة، ومدة المعاهدة خمسة وعشرون عاماً وفي الوقت ذاته عقدت إنجلترا وإيطاليا اتفاقاً بمقتضاه تعهدت الدولتان بضمان استقلال اليمن وسيادتها، وعدم نيل أية امتيازات ذات صبغة سياسية فيها. ونص الاتفاق كذلك على عدم حصول أية دولة أخرى على مركز ممتاز باليمن.

وفي السنوات القلائل الأخيرة بدأت اليمن تقيم العلاقات مع البلاد العربية الأخرى فعقدت إتفاقية مع مصر لتوثيق العلاقات التجارية والسياسية في ديسمبر ١٩٤٥، وأخرى تجارية مع العراق في عام ١٩٤٦. واشتركت بشكل جزئي في المفاوضات الدائرة لتأليف جامعة الدول العربية وحضر مندوبها في المباحثات التي أسفرت عن بروتوكول الاسكندرية بصفة كونه

مستمعاً ولكن ما لبثت الحكومة اليمنية أن قررت الانضمام إلى جامعة الدول العربية. وأخيراً في سنة ١٩٤٧ قبلت عضواً في هيئة الأمم المتحدة.

هذه لمحة موجزة لا بد منها لتقديم اليمن إلى القارىء، ولقد استطاع ملكها المحافظة على استقلالها إلى أن وقعت الواقعة التي انتهت باغتياله على تلك الصورة التي تنم عن الجبن.

وكان الملك يحيى يرى أن الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ باستقلال بلاده تنحصر في إبعادها عن كافة المؤثرات الأجنبية، كما يبدو لنا أن تربيته الدينية الشرقية كانت تجعله ينظر بعين الشك إلى كل مظاهر الحضارة الغربية ويراها لا تتفق وأحوال الشعب اليمني. ومن المشكوك فيه أن العالم الغربي كان يدع اليمن تنعم بهذه العزلة المجيدة، ونحن في عصر سهلت فيه وسائل الانتقال، وأصبحت الدول الكبرى تبحث عن موارد المواد الأولية والأسواق لسلعها في كل جزء من أجزاء الكرة الأرضية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالعزلة في نظرنا ليست السبيل الوحيد أو السليم للمحافظة على الاستقلال. إن الطريق القويم إنما هو بالأخذ بالمظاهر النافعة من الحضارة الغربية كاستغلال الأراضي الزراعية وإقامة الصناعة ومد شبكات المواصلات بمختلف أنواعها ونشر التعليم والثقافة والعمل على رفع مستوى معيشة الشعوب. هذه الحقائق أدركها ونادى بها المصلحون المسلمون كالسيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه الإمام محمد عبده، لأن الابتعاد التام عن أساليب الغرب مصدر ضعف لا عنصر قوة. ولعل المملكة السعودية مثل لتأييد هذه الدعوى ذلك أن بعض الناس هناك أساءوا فهم ما أقدمت عليه حكومتهم من استخدام السيارات والطائرات وغير ذلك فما كان من الملك عبد العزيز إلا أن قال إن هذه الوسائل هي إحدى الأسس التي تقوم عليها نهضة الشعوب، وهذا حق تماماً.



الفصل الثاني

أسباب الانقلاب وبواعثه

فوجىء الناس في البلاد العربية بذلك الانقلاب الذي أسفر عن اغتيال الإمام يحيى وزوال عهده وقيام نظام جديد أو حكومة جديدة، وخيل إليهم أن الانقلاب من وحي الساعة أو وليد أطماع شخصية عاونتها دسائس أجنبية. ولا شك أن الدهشة مردها إلى العزلة العميقة التي عاشت فيها اليمن، وإلى ذلك الغموض الذي كان يكتنف تلك البلاد وأحوالها ونظم الحكم والحياة فيها، ولكن سرعان ما أخذت الأمور تنجلي وتوالت الأحاديث والتصريحات من جانب زعماء الانقلاب وأنصارهم محاولة إلقاء الضوء على البواعث الحقيقية والقوى الباطنية التي تجمعت تدريجاً حتى بلغت ذروتها ووصلت إلى تلك النتيجة التي شهدناها.

على أثر قيام العهد الجديد أدلى عبد الله بن الوزير بتصريح لمندوب صحيفة المصري جاء فيه «كانت اليمن قديماً في مقدمة الشعوب رقياً وثقافة وعلماً ونبلاً وفضلاً. ثم عراها ما عرى وتأخرت الأحوال فيها وحل الفقر بالناس وأخذ يفتك بهم». ولما وصل سيف الحق إبراهيم إلى صنعاء ورأس المجلس العسكري ألقى خطاباً يستوقف النظر فيه العبارات التالية «لقد تقدمناكم بالتضحية بالمناصب في سبيل الصالح العام ودسنا تحت أقدامنا سلطة الفرد وسلطان الطغيان والجبروت ورسمنا لكم المثل العليا لجمع كلمة

الأمة لتأخذ مكانها الممتاز بين أمم العالم. . . إنكم تنظرون بأعينكم وتحسون بأنفسكم الفرق بين العهدين، العهد الذي خلق الله منه الأمة فخرجت إلى نور الحرية والكرامة والعهد الذي انطلقتم فيه من معتقلات السجون» (الأهرام في ٢ مارس ١٩٤٨) وقال المستنيرون ممن تلقوا علومهم في المعاهد المصرية «لقد كنا نعيش في سجن كبير أشبه بسجون القرون الوسطى، لا حرية في القول ولا حرية في التجارة ولا حرية في الكتابة، كنا نعيش في عهد إستبدادي إقطاعي. . لقد عاشت اليمن في ظلام دامس وازدادت فقراً وبؤساً بينما ازداد بضعة أشخاص بالذات غنى وبذخاً».

هذه المقتطفات التي أوردناها تزيح الستار بوجه عام عن الصورة التي علقت بأذهان الناقمين على العهد القديم. وبالرغم مما قد يؤخذ عليها من بعض الإغراق أو المغالاة في التصوير ورسم الحالة، إلا أن جوهرها وهو بطء معدل التقدم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي أمر ثابت لا ريب فيه إعترف به أنصار ذلك العهد مع التماسهم المعاذير له، بل حدثتنا الأنباء أن اللجنة السياسية التابعة لجامعة الدول العربية حين أشارت بالاعتراف بالإمام الملك الناصر لدين الله ألمحت إلى ضرورة التوافر على تنفيذ الإصلاحات المختلفة التي لا بد منها حتى تأخذ اليمن بأسباب النهوض والارتقاء وحتى لا تظل متخلفة في ركب الحضارة عن بقية الأمم العربية، وإذا خرجنا من نطاق الأقوال العامة إلى تفصيل نظام الحياة والحكم في تلك البلاد خلال العهد الذي سبق الانقلاب فمن الواضح أن جملة خلفيات قد مهدت لذلك الانقلاب بغض النظر عن العنصر الذاتي لدى نفر من الطامعين في الحكم أو السلطان .

سوء حال الزراعة

ما من شك أن جانباً كبيراً من الأراضي اليمنية على درجة عالية من الخصب والصلاحية للإنتاج الزراعي على ما أوضحناه من قبل، ولكن الأساليب المتبعة في الزراعة كانت ولا تزال بدائية بسيطة، كما لم تقم الحكومة بتنفيذ مشروعات الري وما إليها الأمر الذي حال دون تقدم الزراعة وازدياد الإنتاج، وتبدو خطورة هذا الأمر إذا تذكرنا ارتفاع الضرائب المفروضة مما لا يدع لأهل الزراعة من الدخل إلا القدر الضئيل الذي لا يكاد يشبع أبسط مطالب الأفراد المادية، وهو قدر يتضاءل باطراد مما كان له أكبر الأثر في انحطاط مستوى المعيشة وانتشار الفاقة بين صفوف أهل الزراعة مما أشارت إليها المقتطفات التي اقتبسناها في مقدمة هذا الفصل. ومن هذا يتبين لنا بوضوح أنه كان من الضروري العمل على القيام باصلاح حاسم يشمل الزراعة وأساليبها ونظمها وحياة الذين يمارسونها.

الاحتكار التجاري

تشغل اليمن مركزاً له أهميته وقد اشتغل أهلها بالتجارة في مختلف العصور وجنوا من ذلك أرباحاً طائلة. وبالرغم من مساوىء العصر العثماني فقد قامت الإدارة العثمانية ببعض الاصلاحات العمرانية مثل شق الطرق وتعبيدها في الجبال العالية والسهول المنخفضة، والعمل على إيجاد شبكة من الخطوط الحديدية تصل مناطق البلاد النائية فتسهل الأسفار والانتقال والشحن والتصدير والاستيراد وقد بدأ العمل فعلاً في مد خط حديدي من ميناء الحديدة إلى الداخل لمسافة خمسين كيلو متراً. وكذلك سبق ذلك مد بعض الخطوط التلغرافية.

ويبدو أن التجارة كان لها شأن يذكر في خلال العهد العثماني فاستطاع الكثيرون من أهل البلاد تكوين ثروات ضخمة واجتناء أرباح وفيرة وقام فرع البنك العثماني في ميناء الحديدة بأعمال ساعدت إلى حد ما على انتعاش الحياة الاقتصادية بالقياس إلى بقية أنحاء شبه الجزيرة العربية، هذه الظروف ساعدت دون ريب على وجود طبقة وفيرة العدد والثراء من الذين يزاولون حرفة التجارة، وهي طبقة كانت ترى أمامها احتمالات كبيرة للتوسع والازدهار وازدياد الثراء وتعلق آمالاً كباراً على عهد الاستقلال لتحقيق هذه الأهداف وإدراك تلك الغايات المادية، غير أن سياسة العزلة البعيدة الطور التي جرت عليها حكومة الإمام يحيى أشاعت شعور الخيبة في نفوس أفراد هذه الفئة القوية ذات النفوذ فتضاءل نشاطهم وأخذت أرباحهم تقل تدريجاً، فمن جهة زادت الضرائب والمكوس المفروضة على التجارة، ولم تبذل الحكومة شأناً في تيسير سبل النقل والمواصلات في داخلية البلاد، ومن جهة أخرى زادت الحالة سوءاً بسبب اشتغال رجال الحكومة بالأعمال التجارية ومنافستهم لأربابها بحيث ترامت الأنباء بأن تجارة الصادرات والواردات كانت احتكاراً

لفئة صغيرة العدد من رجال العهد القائم سواء منهم أفراد أسرة الإمام أو كبار الموظفين، وفي هذا طلب علماء صنعاء في عريضتهم التي رفعوها إلى الإمام (البند ٤) «منع كل ذي سلطة من سيوف الإسلام والأمراء والعمال عن الخوض والتدخل بالتجارة في الرعية وزحمة الناس بالمناكب في معيشتهم ومكاسبهم ومهنهم فقد استاء لهذه الحال الحاضر والباد ونهى عن ذلك وحذر الشارع الحكيم ﷺ حيث نهى عن تجارة ذي السلطان في الرعية وتوعد وأنذر من لم ينته عن الإضرار بالمسلمين بما ليس يخفى على سعة معلوماتكم وهذا من أهم الضروريات التي يجب الالتفات إليها».

هذا الاحتكار التجاري ملأ قلوب طبقة التجار بالحقد والبغضاء بحيث اضطر عدد كبير منهم إلى الرحيل عن بلادهم والهجرة إلى الأقطار الأجنبية حيث يتيسر لهم كسب العيش وهم قوم لهم نشاط معروف موروث، وهناك في تلك المهاجر أخذوا يدركون ضرورة العمل على القضاء على ذلك الاحتكار وفتح أبواب بلادهم من الناحية الاقتصادية، وإنماء العلاقات التجارية بينها وبين البلادالأخرى.

وما من شك أن المصالح المالية الأجنبية كانت تحبذ مثل هذا الاتجاه وتؤيده نظراً للفوائد التي تعود عليها من وراء ذلك، ونستطيع أن نتبين ناحية من هذا الأمر إذا ذكرنا أن الكثيرين من أفراد الجاليات اليمنية المشتغلين بالأعمال التجارية خارج اليمن كانوا يؤيدون سراً أو يعطفون على كل حركة ترمي إلى إخراج بلادهم من عزلتها، ولعل المثل الذي نورده كفيل أن يلقي قدراً من الضوء على ما نريد تبيانه، فقد ذكرت مجلة «أخبار اليوم» في عددها الصادر بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٩٤٨ في معرض الحديث عن أحد الشخصيات التي ينسب إليها دور خطير في الحركة الانقلابية ونقصد بذلك السيد الفضيل الورتلاني أنه كان تاجراً مغربياً أقام بالقاهرة زمناً طويلاً ثم قصد إلى اليمن حيث ألف شركة تجارية كبرى ضمت شخصيات كثيرة من مختلف البلاد العربية برياسة حسن نشأت باشا وجميل مردم بك وتحسين بك العسكري وسامي الخوري بك وسواهم، وكانت الشركة قد أعلنت عزمها على إنشاء بنك

مركزي في صنعاء ودعيت الشركة باسم «الشركة اليمنية المصرية»، ولكن الإمام يحيى وقف من الشركة موقفاً لا يحقق أهدافها فحقد عليه الورتلاني وراح يتقرب إلى سيف الحق إبراهيم وقام في أغسطس من عام ١٩٤٧ برحلة إلى بيروت ودمشق وبغداد ثم عاد إلى القاهرة ومنها إلى اليمن ولعله في تلك الرحلة أراد توثيق صلاته بأصحاب المصالح المالية التي يرجو تأييدها في مشروعاته، وإذا كان أصحاب الأسماء السالفة الذكر قد أنكروا أي اتصال لهم بالورتلاني أو بمثل هذه الشركة، إلا أن النبأ في حد ذاته كفيل بأن يوضح لنا أهمية الدور الذي كانت المصالح التجارية تلعبه في الخفاء لزحزحة العهد القديم وتمزيق حجاب العزلة الاقتصادية والاحتكار التجاري في بلاد اليمن.
ولسنا نرتاب لحظة في أن المصالح المالية الأجنبية سواء في البلاد العربية أو في انجلترا وغيرها كانت تأمل الخير من الانقلاب لأنه يفتح أبواب البلاد أمام رؤوس الأموال التي تتدفق عليها لاستغلال مختلف مواردها وثرواتها الطبيعية الظاهرة والدفينة.

الاضطراب المالي

إن انتظام الأحوال المالية مقياس لمدى التقدم الاقتصادي واطراده في البلاد ويحمل الكثيرون من أعضاء الجمعية اليمنية الكبرى على حكومة العهد القديم من هذه الناحية فيقولون إنه خلال العصر العثماني كانت صنعاء تضم إدارة عامة منظمة لها فروعها العديدة في مختلف الأقاليم والألوية ويتولاها موظف يعرف باسم «الدفتردار» الذي يتبعه المحاسبون ومديرو المال والصيارفة ومأمورو التحصيل والمحصلون. وليس لنا بطبيعة الحال أن نستنتج من هذا أن الحالة المالية في ذلك العهد كانت طيبة تمتاز بالعدالة والاستقرار وبخاصة لما نعرفه عن أساليب الحكم العثماني وفوضى إدارته المالية مما لمسناه في مصر في القرن الثامن عشر وفي تركيا ذاتها وبخاصة خلال حكم السلطان عبد الحميد الثاني، ولهذا نعتقد أن تلك الصورة البراقة التي يعرضها علينا المخالفون لحكومة الإمام يحمي فيها قدر كبير من الإسراف والغلو والابتعاد عن جادة الحق، ولكن المصادر المختلفة التي وقعت في أيدينا تؤكد من جهة أخرى أن الحكومة المتوكلية لم تكن لديها إدارة مالية منظمة على الأساليب العلمية المعروفة في البلاد العربية الأخرى، ولم تكن هناك ميزانية تحدد مختلف الإيرادات ووجوه الانفاق. ولا ريب أن اليمنيين المثقفين كانوا يوازنون بين هذه الحال وبين ما هو كائن في المملكة السعودية مثلاً حيث فيها وزارة للمالية يتولاها وزير مسئول أمام حاكم البلاد ومجلس الشورى، أو ما هو قائم في بلد مثل مصر أو العراق حيث للسلطة التشريعية سلطانها على الأموال العامة وما إلى ذلك. ومن مظاهر القصور في الإدارة المالية أن حكومة اليمن لا تعمل على سك عملة قومية وطنية لها اعتبارها المالي في الداخل والخارج وكان الناس يتعاملون بمختلف العملات الأجنبية، ويقول الذين لهم معاملات مع اليمن إنها ظلت تتعامل بالريال المسمى « ماريا تريزا » ومن الطبيعي أنه لم يكن بالبلاد بنك مركزي يشرف على الحياة الاقتصادية أو ينظم الشؤون المالية. ويبدو أن الضرائب والمكوس كانت كثيرة متعددة ومرهقة وليس هناك

نظام ثابت في تقديرها أو جبايتها الأمر الذي أتاح المجال لموظفي الدولة في استغلال مراكزهم. ومما أخذه المعارضون ما عمدت إليه الحكومة من تعيين سيوف الإسلام أولاد الإمام يحيى على المقاطعات المختلفة يحكمونها ويجبون ضرائبها ويتصرفون في أموالها ومصائرها. ومن الضرائب التي كانت مبعث الشكوى الضريبة المعروفة باسم «حق الضيافة» ويبدو كذلك أن حال موظفي الدولة - وبخاصة صغارهم - لم تكن داعية إلى الرضاء بسبب ضآلة رواتبهم مما أفسح المجال للرشوة والفساد. ونستطيع أن نلمس حقيقة هذه المسائل جميعها من مراجعة العبارات التالية وقد وردت في العريضة التي رفعها أعضاء هيئة كبار علماء صنعاء إلى الإمام الراحل..

١ - جعل الواجبات المالية أمانة على أربابها كالواجبات البدنية يؤديها الرعايا والملاك طيبة بها نفوسهم ويحلف ذوو التهم.

٢ - إسقاط الجبايات الجمركية والمطالب المعتبرة غير شرعية والمنهي عنها مثل المكس وزكاة الباطن والضرائب التي كنتم تنأون وتنهون عنها وهي التي يسمونها (عائدات بيت المال) ويلزمها الجلادون أقلاماً معدودة ويؤذون بها خلق الله باسمكم وقد أغناكم الله عنها.

٣ - .. النظر في تحسين أحوال أرباب الدوائر الحكومية كلها بلا استثناء بزيادة المعاشات سداً لباب ذريعة الرشوة ونهب الضعفاء وليخلصوا لكم ولدولتكم في أعمالهم وينصحوا فيما يرفع ويعلي كلمتكم.

وفي الرسالة التي قدمها الشيخ محمد بن سالم البيجاني نقرأ العبارة التالية: «يا أمير المؤمنين - إن دخول الجندي في بيوت الرعية لجباية الأموال أو لأي شيء آخر أمر لا يقره دين ولا ترضى به شريعة ولا يقبله أي قانون أو ذوق سليم».

ولقد كانت الحكومة تجني الأموال الطائلة غير أن بطء حركة الإصلاح وإهمال الأعمال العامة أدى إلى تراكم الأموال في خزائن الدولة أو خزائن الإمام الراحل عاماً بعد آخر حتى أصبح يملك ثروة طائلة لا تعلم حقيقتها وإن

قدرها البعض بنحو أربعين مليوناً من الجنيهات من مختلف العملات الذهبية، وهنا يأخذ الكثيرون على الحكومة القديمة هذه السياسة ويرون أنه كان في المستطاع استخدام هذه الأموال الضخمة في تنفيذ سياسة إصلاحية واسعة من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية وغيرها فالأمة لا ترقى ولا تنهض بمقدار الأموال المختزنة وإنما تنهض عن طريق المشروعات الإصلاحية التي تعود بالخير على الجميع وقد أثارت هذه الثروة التي احتفظ بها الإمام الراحل الكثير من التساؤل وفي هذا يقول البيجاني في الرسالة التي أسلفنا الإشارة إليها «والعالم أجمع يعلمون أو يظنون أن في اليمن مالاً كثيراً وثروة عظيمة لا يستهان بها ولكن كيف يكون أمرها ومن الذي سيتولاها؟ وما هو المراد من جمعها وتكديسها في الخزائن والمغارات والكهوف كما يشيعون ذلك؟ ولأي شيء تدخر سوى إصلاح البلاد وإسعاد بنيها؟ فما أجمل أن تحصوها وتضبطوها ضبطاً تاماً ثم تجعلوها تحت إشراف الجامعة العربية التي يهمها أمر اليمن كما يهمكم. فإن لم تثقوا بها وتعتمدوا عليها فما أسهل أن تؤلفوا هيئة من رجال العلم الصالحين والموثوق بدينهم وأمانتهم لحفظها وتسليمها إلى من يتولى الأمر من بعدكم من أبنائكم الغر أو من الذين ترضاهم الأمة لدينها ودنياها وبذلك تكونون قد أبرأتم ذمتكم وحفظتم المسلمين في بيت مالهم وأنتم المعروفون بزهدكم وورعكم وأنكم لم تبددوا ثروة الشعب وأمواله في سبيل ملذاتكم والمصالح الشخصية...»

وللجملة الأخيرة أهمية بالغة لصدورها عن مثل هذا العالم الصالح لأنها تنفي التهم غير الصحيحة التي كان خصوم الإمام يرمونه بها من حيث تغليب مصالحه الذاتية وإشباعها عن طريق أموال الدولة. إن الملك الراحل كان يختزن المال لعله يستفيد منه في المستقبل ولكنه لم يستغله لأهواء ذاتية، فالنقد السليم إنما ينصب على سياسة العزلة والابتعاد عن الإصلاحات الجديدة التي تتطلب المال الوفير.

انحطاط المستوى الثقافي

ليست لدينا إحصائيات أيا كان نوعها لبيان مستوى الحياة الثقافية في البلاد اليمنية، وبالرجوع إلى المقالات المختلفة التي نشرتها صحف الجمعية اليمنية الكبرى وأقوال الرحالة الزائرين الذين تمكنوا من ارتياد تلك البلاد بصورة جزئية، والأحاديث التي أدلى بها بعض من خدموا في اليمن أو احتكوا بها نستطيع القول إن الحياة الثقافية كانت على جانب كبير من التأخر والجمود واقتصر التعليم على الكتاتيب البسيطة من النوع الذي كان مألوفاً في مصر وغيرها من البلاد الشرقية. وهذه الكتاتيب لا تقدم للأطفال إلا قدراً ضئيلاً من التعليم والثقافة، وظلت اليمن تنأى عن إرسال البعوث العلمية إلى البلاد الأخرى من شرقية أو غربية أو تستقدم البعثات التعليمية من الخارج، ولم تعمد إلى شيء من هذا القبيل إلا في عهد قريب جداً وعلى نطاق محدود إلى درجة تبعث على الدهشة، الأمر الذي يتجلى مثلاً من الموازنة بين عدد المصريين الذين استعانت بهم الحكومة اليمنية ولا يتجاوز عددهم أصابع اليدين وبين تلك الأعداد الوفيرة التي أعارتها مصر للحكومة العراقية مثلاً ـ على طلبها وفي مختلف العلوم والفنون، بل إننا نستطيع إجراء مثل هذه الموازنة بين عدد الطلاب اليمنيين الذين يتلقون العلم في المدارس والمعاهد والكليات المصرية وبين المئات من زملائهم الذين وفدوا من الأقطار الشرقية الأخرى، وها هي المملكة العربية السعودية خطت خطوات واسعة في هذا الميدان بالقياس إلى جارتها وشقيقتها اليمن، ولهذا لا عجب إن كانت الأمية ضاربة أطنابها في ذلك القطر العربي الأمر الذي يعد من الظروف التي تفسر تأخره الاقتصادي والاجتماعي، ويبدو أن هذا التخلف من جانب المسئولين عن شئون اليمن راجع إلى شدة تمسكهم بحضارتهم وتقاليدهم ونفورهم من الحضارة الغربية وخوفهم من تأثيرها على الأنظمة السائدة إلا أن هذه النظرة

تبدو في نظر الكثيرين مما لا يتفق مع التطور العلمي في العصر الحديث، كما أنه من السهل أن يوفق البلد بين تقاليده من جهة والنواحي الطيبة في الحضارات الأخرى من جهة ثانية .

لا يختلف مركز الحاكم عما كان عليه حال الخلفاء المسلمين من حيث أنه كان يجمع في يديه السلطتين الزمنية والدينية أي كل ما يتصل بالرعية في دينها ودنياها. ويرى المدافعون عن نظام الحكم في اليمن حتى اليوم أنه قائم على أساس الشرع وهذه في نظر البعض عبارة مطاطة لا حدود لها ويمكن إساءة استغلال معناها ولهذا كان الكتاب الإسلاميون في القرن التاسع عشر مثل جمال الدين الأفغاني يرون أن الدين الإسلامي يأمر بالشورى ولهذا دعوا إلى إقامة الأنظمة الشورية أو الدستورية لأن الصالح يقتضي عدم تركيز السلطات في يد فرد أو مجموعة قليلة من الأفراد، وإذا نظرنا إلى حال البلاد الإسلامية الأخرى لوجدنا أن مصر مثلاً دولة دينها الإسلام على ما قرر الدستور غير أنها إلى جانب ذلك ذات نظام دستوري وفق الأساليب الغربية الحديثة، ولكن اليمن يختلف أمرها عن هذا الأسلوب فالحاكم هو الذي يعين الوزراء والموظفين ويقيلهم وهم مسئولون أمامه ومعنى هذا انتفاء الأخذ بمبدأ سيادة الأمة التي تنص القواعد السائدة في معظم بلدان العالم على أنها مصدر السلطات روحاً ونصاً.

وقد سبق أن ذكرنا عبارات سيف الحق إبراهيم أمام المجلس العسكري وذكرت الأهرام في عددها الصادر في ٢ مارس ١٩٤٨ أنه منذ قيام الحكومة الوزيرية تم الإفراج عن ٣١٠٠ من المعتقلين وهو رقم كبير إن كان ذلك صحيحاً. وفي العريضة المرفوعة من علماء صنعاء طالب أربابها (البند الخامس) «العفو منةً وتنازلاً عن المعتقلين في حجة، فقد نالت منهم العقوبة منالها وأصبحوا في حالة يرثى لها ولئن أحسنتم إليهم وجبرتم ما تصدع من قلوبهم فستجدونهم كعادتهم من خيرة رجالكم» بينما طالبوا كذلك (البند الثالث) «العفو تفضلاً عن البقايا المزمنة التي أرهقت الرعايا إرهاقاً وألجأتهم

إلى الخروج من أوطانهم راغمين لما حل بهم والتحنن على البقية الباقية والرفق بهم هو الركن الركين لاستجلاب القلوب واجتذاب الذين ودعوا اليمن». وتحدثت إحدى نشرات الجمعية اليمنية الكبرى قائلة «فقد جرد الحاكمون عليهم أساليب التجسس، وجندوا لهم المأجورين ومن خربت ذممهم وماتت وطنيتهم، واضمحل شعورهم الإنساني، ليواصلوا إرهاقهم وعقابهم إذا ما لمسوا فيهم شجاعة تهدف إلى خير المجتمع، أو جرأة على قول الحق والجهر به، أو رغبة في نقد الحاكمين بأمرهم ومحاولة العمل على عدولهم عن أساليبهم وخططهم» ونعلم كذلك أن سيف الحق إبراهيم اختلف مع والده فاعتقله حيناً، فلما أطلق سراحه غادر البلاد على ما سنوضح بعد. وكانت عدن بوجه خاص مكاناً يضم الكثير من اليمنيين الذين آثروا الهجرة من بلادهم.

وقالت صحيفة النداء في عددها الصادر بتاريخ ٢ مارس ١٩٤٨ إن الحكم كان استبدادياً، وإن بطانة الحاكم كانت تسرف في جباية الأموال من الشعب بلا رقيب ولا حسيب، وإن الإمام كان ينفر من كل حركة تقدمية في البلاد، وإن السجون كانت ملأى بالأحرار والمتعلمين. وليس لنا أن نأخذ هذه الأقوال جميعها على ما هي عليه أو بقيمتها الإسمية كما يقول الاقتصاديون ولكنا نستطيع أن نلمس من خلال سطورها حقيقة بارزة وهي عدم توافر حرية الرأي بالمعنى المفهوم في البلاد الديموقراطية، وبخاصة إذا ما تعلق الأمر بنقد الحكومة وأعمالها وتصرفاتها، وليس معنى هذا أن نقول إن الإمام الراحل كان ظالماً، فالواقع أنه كان رجلاً طيب القلب محباً لبلاده، ولكن بالطريقة التي يراها مؤدية إلى إدراك غاياته، ومن هنا ربما جاز أن يفسر الحركات التقدمية الرامية إلى تحقيق مظاهر الحكم الشوري بأنها من مظاهر الانتفاض، أو أنها تسير بواسطة أيد خفية بعضها أجنبي، أو كان يعتقد أنها لا تلائم ظروف اليمن وشعبها، ويخيل إلينا أن بعض رجال الحاكم وبطانته مسئولون عن الكثير من هذه التصرفات من حيث الاعتقال والسجن والإبعاد واتباع نظام الرهائن.

ومن المسائل التي تؤخذ على الحكومة السابقة إغفالها إنشاء علاقات دبلوماسية مع البلدان الأخرى، وعللوا ذلك بالخوف من تسرب النفوذ الأجنبي مما قد ينطوي على خطر بالنسبة إلى وضع البلاد واستقلالها، غير أن هذا الانزواء الدبلوماسي جعل البلاد العربية لا تدري كثيراً أو قليلاً عن شئون اليمن، كما جعل اليمن بمعزل عن إدراك طبيعة وعمق التطورات المختلفة التي انتابت شقيقاتها العربية. ونحن نعلم كذلك أن انضمام اليمن إلى جامعة الدول العربية أحيط بالصعاب، وها هو بروتوكول الاسكندرية يحدثنا بأن مندوب اليمن كان مستمعاً أو مراقباً دون أن يشترك اشتراكاً فعالاً في المباحثات والمقترحات، ولم يشأ التوقيع على البروتوكول إلا بعد عرض الأمر على حكومته. ولليمن وزارة خارجية ولكنها لم تكن منظمة تنظيماً دقيقاً، وكانت تعوزها فئة المتخصصين في المسائل الدبلوماسية والسياسية، والمطلعين على مجريات السياسة الدولية، وإن كان الإمام الراحل نفسه كان على إدراك كبير لهذه السياسة، وعرف كيف يقود سفينة بلاده وسط الأنواء والمنازعات، ويحفظ استقلالها وسيادتها. وليس معنى هذا كله أن اليمن لم تكن ذات علاقات مع الدول الأخرى، فالواقع أنها عقدت المعاهدات مع إيطاليا والمملكة السعودية، وانضمت إلى معاهدة الأخوة والتحالف العربية المعقودة بين العراق والمملكة السعودية. ولقد أثارت المعاهدة المعقودة مع إيطاليا الاستياء إذ خيف أن تكون مقدمة لتدخل الفاشية في شؤون اليمن، كما أنها أثارت مخاوف انجلترا والمملكة السعودية، وكل منهما كان يدرك تمام الإدراك مبلغ الأطماع الإيطالية في البحر الأحمر وبلدانه، واليوم نسمع بعض المعارضين لابن الوزير بأنه هو وحده المسئول عن تلك المعاهدة ويحملونه وزرها، غير أن النقد الموجه إلى المعاهدة فيه قدر كبير من الاسراف لأنها لا تتضمن أي خطر على اليمن كما أنها بعثت الاطمئنان إلى نفسها بسبب اعتراف الدولة الايطالية باستقلال القطر اليمني وسيادته.

المؤثرات الخارجية

مهما حاولت اليمن أن تعيش بمعزل عن العالم فإن العصر الذي نعيش فيه وما شهده من تطورات وأحداث بالغة الخطر، لابد وأن يكون لها صدى في ذلك القطر بالرغم من السياج المفروض حوله. ولعل أول المؤثرات الهزيمة التي مني بها الجيش المتوكلي في حربه مع قوات السعوديين، لأن هذه الهزيمة أظهرت ضعف أسس ذلك الجيش وتنظيمه، وأبانت الحاجة إلى القيام بإصلاحات واسعة النطاق متشعبة الجوانب. وشاهدت الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين نهضة شاملة في بلاد الشرق العربي، تمثلت في تحسين أساليب الزراعة إلى حد يتفاوت من بلد إلى آخر، والاهتمام بنشر وتعبيد طرق المواصلات الداخلية، وإقامة الصناعات التي تلائمها ظروف البلاد، واتساع ميدان التجارة الداخلية والخارجية، وإقامة الأنظمة الدستورية في مصر والعراق، والمطالبة بها في غيرهما من البلدان، والاهتمام الكبير بنشر التعليم والثقافة والكتب والصحف والمجلات. وتقدمت المملكة السعودية جارة اليمن إلى درجة ليست بالقليلة بقدر ما تسمح به ظروفها ومواردها. هذه المسائل جميعاً لا بد أن لمسها بوضوح أولئك اليمنيون المقيمون في البلاد الأجنبية، والقلائل من أهل اليمن الذين أتيحت لهم فرصة السفر إلى الخارج لمسوا عن كثب جو التعلم في مصر وسواها، ووازنوا بين حال بلادهم وتلك الأقطار، وترامت الأنباء إلى البعض من أهل اليمن، وكانت النتيجة التي يمكن استخلاصها من هذا جميعه أن اليمن لم تحاول أن تساير النهضة الإصلاحية العامة في الشرق العربي، وخيف أن استمرار هذا الحال ينطوي على أخطار جمة في مقدمتها أن تصبح عاجزة عن الدفاع عن نفسها وكيانها وهي مطمع الأنظار والأهداف. ونشبت الحرب العالمية الثانية واشتبكت الدول فيها وأسفرت عن صراع دام كان له أعمق الأثر بالنسبة إلى كافة البلدان. وقبل أن تنتهي الحرب العالمية

برزت فكرة التآلف العربي، وسرعان ما ظهرت جامعة الدول العربية إلى عالم الوجود، وأصبحت حقيقة مادية ملموسة تهدف إلى خير الدول الأعضاء وتحقيق التعاون فيما بينها، ورفع مستوى المعيشة فيها.. كل هذه الظروف لم يكن ليخفى أثرها على المثقفين والمستنيرين الذين رأوا أنه قد آن الأوان لأن تخرج بلادهم من نطاق العزلة التي أحاطت بها طوال تلك السنوات وأن من الضروري مسايرة البلاد الأخرى واقتباس مختلف مظاهر التقدم الاقتصادي والاجتماعي.

الأيدي الأجنبية

إن السؤال الذي يتردد على الألسنة منذ وقوع الانقلاب هو: هل لدولة أجنبية معينة دخل فيه بطريق التحريض أو التأييد؟ وبعبارة أخرى هل من الصحيح أن الانجليز كانوا يعطفون على الحركة الانقلابية ويسندون القائمين بها من وراء الستار؟.. حينما تم الانقلاب وترامت أنباؤه إلى الخارج أعلنت الصحف البريطانية أن الحكومة الانجليزية تقف من الموضوع موقف الحياد المطلق، ويهمها أن تخرج اليمن من محنتها سليمة وقد استقرت أحوالها وتهيأت لسياسة إصلاحية جديدة، ولكن خصوم عبد الله بن الوزير سرعان ما اتهموه وأتباعه بأنهم يخدمون أهداف السياسة الأجنبية وأن حركتهم إنما تمهد السبيل لتغلغل النفوذ الأجنبي، الأمر الذي قد ينتهي بضياع استقلال البلاد، أما الأدلة التي يستندون إليها في تأييد دعواهم وتوجيه هذا الاتهام فكثيرة، وإن لم يكن تحت أيديهم قرائن مادية ملموسة:

أولاً ـ ذكروا أن عبد الله بن الوزير كان خلال حياته السياسية العامة موضع الارتياب من حيث علاقاته بالدول الأجنبية، وأنه هو الذي مهد السبيل لعقد المعاهدة مع إيطاليا وسمح بعدها للبعثة السوفيتية بالحضور إلى اليمن. ويرد أنصاره قائلين إن هذه المعاهدة حفظت لليمن استقلالها، كما أن الإمام يحيى ـ وهو صاحب السلطة العليا ـ كان يستطيع رفضها وإخراج الموعز بها، والثابت أن الملك الراحل كان عظيم الثقة في عبد الله بن الوزير، واحتفظ به في منصبه الكبير بالدولة.

ثانياً ـ كان الساخطون على العهد القديم يفرون تباعاً إلى عدن، حيث يعقدون الاجتماعات، وهناك ألفوا عصبتهم المعروفة باسم الجمعية اليمنية الكبرى وأصدروا صحيفتهم، ولما حضر سيف الحق إبراهيم من الحبشة، أقام

في ذلك الميناء، وظل هؤلاء جميعاً ينظمون أمورهم ويبثون دعايتهم، ومنها يبعثون بالنشرات السرية والرسل إلى مختلف أرجاء اليمن، لإثارة شعور القبائل والطوائف ضد الحكومة القائمة، وقد احتجت الأخيرة على السلطات البريطانية في عدن لسماحها بمثل هذا النشاط العدائي والذي لا يتفق مع العلاقات الودية السائدة بين الطرفين، ولكن هذه الاحتجاجات لم يكن لها صدى في منع التدابير التي قام بها دعاة تغيير الوضع في اليمن، وقد بلغ الشك في الانجليز حداً جعل البعض يتهمهم بالاشتراك في تدبير المؤامرة، وإمداد المتآمرين بالأسلحة ولكنا لا نستطيع أن نأخذ هذا الاتهام مأخذ الجد، لعدم توافر الأدلة المادية على صدقه.

ثالثاً - بعد أن تولت الحكومة الجديدة مقاليد الأمور في صنعاء لم يمض وقت طويل حتى تواترت الأنباء بالاضطرابات في نواح عدة، وباستعداد القبائل الموالية لسيف الإسلام أحمد للزحف على صنعاء والهجوم عليها، وهنا أرسلت السلطات الوزيرية إنذارات مطبوعة على القبائل المنتفضة، وروت الأهرام في أحد أعدادها أن طائرات بريطانية تولت إلقاء المنشورات التهديدية على القبائل الثائرة. ولما تحرجت الأحوال بعث ابن الوزير رسالات متتالية إلى الملك ابن السعود، والجامعة العربية، مطالباً بأسلحة يمكن استخدامها لإقرار النظام، وهدد في حالة عدم إجابته إلى مطالبه بالالتجاء إلى الدول الأجنبية، وفهم البعض أنه يقصد انجلترا بالذات. وقد استفسر مندوب صحيفة المصري الأمر من عبد الله بن الوزير الذي أنكر اتصاله بأية دولة أجنبية، وصرح أنه يقصد شراء الأسلحة من مختلف البلدان التي تستطيع أن تمده بها حتى يتسنى له المحافظة على الأمن وتثبيت دعائم النظام الجديد، ولكنه لن يعمد إلى سلوك هذا السبيل إلا إذا نأت جامعة الدول العربية عن مد يد المعونة أو التدخل والتحكيم لحسم الخلاف بينه وبين نجل الإمام الراحل.

رابعاً - ويتساءل البعض في دهشة عن الدور الذي لعبته إحدى الهيئات المصرية وهي جماعة الاخوان المسلمين على وجه التحديد في إعداد ذلك الانقلاب وعن الغايات التي كانت تستهدفها من وراء ذلك الاشتراك إن كان

صحيحاً وجدياً. ذلك أنه على أثر اعتلاء الحكومة الجديدة أعنة الأمور أعلنت إحدى المجلات الأسبوعية المصرية (أخبار اليوم) أن رئيس الاخوان قد استدعي للمساهمة في تنظيم أمور البلاد، وأن شعبة من هذه الجماعة على استعداد للسفر إلى اليمن. ولما انهار النظام الجديد كشفت بعض الصحف عن مسألة إرسال مبلغ قدره مائة ألف من الجنيهات إلى جماعة الاخوان المسلمين، واعترف المشرفون عليها بالأمر وإن لم يتسلموا المبلغ بعد، وقالوا إن الغرض منه كان استخدام المال في شراء أسلحة وغير ذلك مما يلزم الحكومة اليمنية، وقد استخلص المراقبون من هذا أن بعض رجال الحركة الانقلابية في مصر كانوا على اتصال بالاخوان المسلمين، الذين قيل إنهم كانوا ناقمين على حكومة الإمام يحيى لعدم السماح لهم بمزاولة نشاطهم في البلاد.

والمسألة التي نعالجها الآن تنحصر في مدى المصلحة المادية التي تعود على انجلترا من تغيير نظام الحكم في البلاد اليمنية... من المعلوم أن الدولة البريطانية ترى في اليمن منطقة حيوية بالنسبة إليها، فلو فرض وسقطت تحت ظل دولة أجنبية لهدد ذلك سلطان انجلترا في عدن، وعند مدخل البحر الأحمر، وهذا يفسر لنا التفاهم الذي حدث بين انجلترا وإيطاليا مما أشرنا إليه من قبل. ويبدو أن العلاقات بين البريطانيين والإمام يحيى كان يشوبها الجفاء زمناً طويلاً بسبب الخلاف على الحدود، وبشأن المحميات التسع التي لم يشأ الإمام الاعتراف بانسلاخها عن اليمن، ولهذا اتهم أنصاره ابن الوزير بأنه متفاهم مع الانجليز على التنازل عن الدعاوي اليمنية بشأن هذه المناطق. ولكنا نعلم من جهة أخرى أن العلاقات بين الطرفين تحسنت نوعاً، واستقر أمرها بعقد معاهدة صنعاء سنة ١٩٣٥ ولكن اليمن بلاد غنية بالموارد الزراعية والمعدنية، وفي حاجة كبيرة إلى الاصلاح، وهذا يفسح المجال أمام رؤوس الأموال البريطانية لكي تستثمر في استنباط الثروة المعدنية ومد خطوط المواصلات الحديثة، خاصة وأن المتواتر أن تربة اليمن تحتوي على احتياطي من البترول، والمعروف أن بترول شبه الجزيرة العربية احتكار للشركات الأمريكية، ولكن هذا الاحتكار لم يمتد إلى اليمن. وهنا يصح القول بأن

انجلترا رأت أن في استطاعتها استغلال هذه الثروة البترولية. ولما كان الإمام يحيى قد اختط لنفسه سياسة الامتناع عن منح الامتيازات للأجانب، فمن الجائز أن تكون بريطانيا قد اعتقدت أن تغير العهد وقيام حكومة جديدة أقل تمسكاً بهذه السياسة، يفسح الأمل أمام الأهداف البريطانية لكي تتحقق من هذه الناحية..

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تفعل انجلترا شيئاً محسوساً تسند به رجال العهد الجديد؟ من المعلوم أن الدول الأجنبية لا تتدخل في مثل هذه الحالات بصورة سافرة، بل نراها تتبع خطة الترقب والانتظار حتى ينجلي الموقف بصورة واضحة. فلما انقضت أيام وتزعم نجل الإمام الراحل المقاومة، وعمل على اجتلاب تأييد القبائل والعشائر الموالية، وأوجس الرأي العام في البلاد العربية خيفة أن يستغل الصراع الداخلي في اليمن لصالح الأجانب، وأعلنت الدول العربية أنها لن تسمح بأي تدخل أجنبي أياً كان نوعه، وأخذت دعائم العهد الجديد تتزعزع ووضحت نية الحكومة السعودية من حيث حبسها العطف والتأييد عن رجاله وأنصاره، هنا ترددت انجلترا. وثمت أمر له أهميته في نظر الكثيرين من المراقبين، وإن لم يكن واضحاً بل وإن كانت الظواهر تدل على خلافه، هذا الأمر هو موقف المصالح الأمريكية، فمن المعلوم أن هذه المصالح ترنو بأبصارها إلى الاستفادة من ثروة اليمن المعدنية حيث يوجد البترول، وحيث يظن بعض العلماء بوجود معدن اليورانيوم، وإذن فهي لا ترحب بخضوع اليمن للمصالح المالية الأجنبية.

ولعل الانجليز أدركوا موقف المملكة السعودية إزاء ابن الوزير وحكومته وأنها متأثرة من ذلك بضغط خفي غير سافر من جانب الأمريكيين، ويدل على اهتمام الأخيرين تلك الرحلات التي قام بها سمو الأمير سيف الإسلام عبد الله إلى الولايات المتحدة، وقد صرح الأمير في حديث له مع مراسل الأهرام بباريس أنه اتفق مع بعض الشركات الأمريكية على توريد مقادير من السلع والبضائع إلى اليمن، وأنها في طريقها إلى ذلك البلد. ولما سئل عن سبق وجود مباحثات بينه وبين الأمريكيين بشأن استنباط البترول قال إنه لم يجر حديث في هذا الشأن بعد. والحق أن الملابسات التي أحاطت بالانقلاب

اليمني وتطوراته تلقي ضوءاً على ناحية من نواحي ذلك الصراع الأمريكي - الانجليزي في الشرق الأوسط، والذي نستطيع إدراك ماهيته حين نذكر سقوط حكومة قوام السلطنة الموالية للولايات المتحدة، وما أوردته الأنباء في حينه من أن انجلترا وراء ذلك الحادث، وأكبر الظن أن في الشرق الأوسط تنافساً خفياً بين الرأسماليتين الانجليزية والأمريكية على أسواق هذه المنطقة الحيوية وتجارتها.

والسؤال الأخير الذي يخطر بالبال يتعلق بمدى أو طبيعة العلاقة بين رجال الانقلاب اليمني وانجلترا. إن استقراء الحوادث يستطيع أن يبين لنا أن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في اليمن في الثلاثين عاماً الأخيرة كانت تحتم ضرورة إجراء تغيير إصلاحي واسع النطاق، وإذن ليس لنا أن نشك في وطنية الكثيرين من اليمنيين الداعين إلى إصلاح الأمور، وأن حركتهم خالصة من الشوائب التي تشوه من قيمتها، ولكن من المعقول أن نتصور أنهم - أو بعضهم على الأقل - لم يكن يخشى خطراً من الاعتماد على عطف انجلترا وتأييدها الأدبي، ولم يكن يعتقد أنها ستستغل الفرصة لنيل امتيازات تكسبها مركزاً متغلباً في البلاد، وهذا الظن من جانبهم - إن صح - ربما قد يتطور إلى ما كان يخشاه الآخرون. ويخيل إلينا كذلك أن الأغلبية الكبرى من أولئك الدعاة كانوا يفضلون لو تم الإصلاح بصورة سلمية وينفرون من ارتكاب جريمة شنيعة كالتي أسفرت عن مقتل الإمام الشيخ، كما لا نستطيع أن نتصور أن سيف الحق إبراهيم مثلاً، يقدم على الاشتراك في تلك المؤامرة ضد والده برغم اختلاف وجهة نظر كل منهما، ولكن يبدو أن الأمر خرج من أيدي العقلاء، أو قل إن بعض العناصر رتبت أمورها فيما بينها وأقدمت على ذلك الجرم، وليس لنا أن نعرض للمسئولية فإن أمر تحديدها متروك للسلطات اليمنية، ولا نشك في أنها لن توقع العقوبة إلا على الذين ثبت فعلاً اشتراكهم في جريمة الاغتيال التي استنكرها ويستنكرها كل محب للأساليب السلمية في الدعوة إلى ما يعتقد أنه مؤد إلى تحقيق الخير.

الفصل الثالث

مقدّمات الانقلاب



تكتل الأحرار وزعامة سيف الحق إبراهيم

كانت عزلة اليمن التي أشرنا إليها مضافة إلى إهمال الأخذ بأسباب التقدم الحديث من العوامل التي أثارت نفوس نفر من أهل البلاد فقاموا يدعون إلى الإصلاح وإزالة المساوىء القائمة. غير أن هذه الدعوة قد فسرت على غير حقيقتها ولقيت قدراً من العنت وتقييد الحريات، وهنا أخذ الكثيرون يرون صعوبة القيام بأي لون من النشاط في وطنهم ففروا إلى عدن تباعاً حتى تكاثر عددهم وتقارب بعضهم من بعض! وأخيراً وجدوا من الأوفق أن يتكتلوا حتى تكون جهودهم ودعواتهم أقوى أثراً، فأنشأوا رابطة تضم شملهم تعرف باسم «الجمعية اليمنية الكبرى» فكانت أول حزب سياسي ذا أهداف متشعبة ينشأ في اليمن ويعارض الحكومة القائمة بالأمر. وأصدرت الجمعية صحيفة «صوت اليمن» لتكون لسان حالها والمعبر عن آرائها، وأخذت بنشر دعايتها بين صفوف الجاليات اليمانية التي تعيش في مختلف الأقطار الأجنبية، وعملت على بث هذه الدعاية في داخل اليمن ذاتها وعن طريق النشرات والمبعوثين والرسل. وقد أثار هذا العمل الاهتمام وعد دليلاً على تطور الحركة التقدمية. ولم يمض وقت طويل حتى وقع أمر مفاجىء لم يتوقعه أحد ذلك أن الأمير سيف الإسلام إبراهيم ـ أحد أنجال الإمام يحيى ـ غادر بلاده وبعد أن أقام فترة

من الزمن في الحبشة حط رحاله في عدن وتزعم الحركة الإصلاحية، فكان هذا الحادث الفريد سبباً في ارتفاع سمعة الجمعية وازدياد الاهتمام بشأنها. وقد اختلف الناس - ولا يزالون مختلفين - في تعليل مسلك الأمير، وحاول البعض أن يعزو ذلك إلى بواعث أو أطماع ذاتية. غير أن المعروف أن الأمير لم يكن على وفاق كبير مع والده بسبب اختلاف وجهتي نظرهما، وأن خطابات النجل إلى أبيه ورسائله إلى اخوته تدل على أنه كان ذا رأي خاص في الأوضاع القائمة، وليس هذا بالأمر العجيب أو بالسابقة الشاذة فالواقع أن التاريخ يمدنا بالكثير من أمثاله. والذي نراه أن الأمير سيف الإسلام إبراهيم كان لا يؤمن بسياسة العزلة كما طبقت، ويخشى مغبة إهمال الاصلاحات الداخلية خشية أن يؤدي ذلك إلى ازدياد قوة التذمر والاستياء حتى إذا وصل ذلك الشعور الذروة تطور إلى ما لا تحمد عقباه. ولعله رأى نذيراً فيما شاهده من اشتداد الدعوة المعارضة، وكيف كانت تقابل بالضغط وعدم الاهتمام. فسيف الإسلام هذا إنما كان يريد أن تعدل الحكومة عن أساليبها وسياستها لأن هذا العمل في نظره كفيل بتقوية عرش أسرته وثباته واستقرار أحوال البلاد. ونستطيع أن نستشف هذه البواعث من هذه الفقرة التي نوردها من رسالة له إلى صحيفة «صوت اليمن»:

«خرجت من اليمن وأنا متألم جداً من الحالة السائدة هنالك بعد أن حاولت مع أخوي سيف الإسلام علي وسيف الإسلام إسماعيل إقناع جلالة الإمام في رفع المظالم وإزالة الجور، ولما وصلت أسمرة وزارني اليمانيون وشكوا إلي أحوالهم زاد ألمي كذلك في الحبشة ومصوع وهأنذا قد وصلت عدن ولم أزل مستاء من الخطة التي تسير عليها حكومة اليمن في الوقت الحاضر». وللفقرة أهمية خاصة من حيث أنها توضح أن صاحب الرسالة لم يكن وحده النجل الذي طالب أباه بالإصلاح بل كان أخوان له يشاركانه هذا الشعور والاحساس. وفي رسالة إلى أخيه أحمد بتاريخ محرم سنة ١٣٦٦ يقول «يجب علي أن أحيطكم علماً أن موقفكم وموقفنا وموقف الحكومة محاط بالخطر... بيد أنني أنصحكم نصيحة أخ لكم أن تبدلوا خطتكم القاسية

واحكامكم التي جلبت السخط وحب الانتقام في النفوس». وفي رسالة إلى والده بتاريخ ١٢ محرم سنة ١٣٦٦ يقول كذلك «إنكم يا مولاي تعلمون أن سبعة ملايين من اليمانيين في الداخل والخارج يضرعون إلى الله صباحاً ومساءً أن يزيل عنهم الأحكام القاسية في اليمن وأن يزيل الحكام والعمال وأولي الأمر الذين يرتكبون الظلم والعسف والسلب بواسطة الجنود باسمكم واسم الدين وهذا لا يخالف فيه أحد..»

ومما ينبغي التأكيد بأهميته أن معظم القائمين بتلك الحركة لم يكونوا أعداء للأسرة المالكة في اليمن، كما أن الأمير وأنصاره لم يكونوا من أنصار الثورة وأساليب العنف، وإن كانت الأمور قد تطورت على النحو الذي انتهت إليه. وللتدليل على ذلك نذكر قول سيف الإسلام إبراهيم في رسالته إلى صحيفة صوت اليمن «ويجب أن يعلم كل مطلع على هذا أني لا أرغب في إحداث ثورة أو قلاقل بل أحافظ على الهدوء والسكينة والعمل على الطريقة التي يقررها أبناء اليمن وحجتنا قوية ومسألتنا واضحة». وفي رسالة ثانية إلى أخيه سيف الإسلام أحمد بتاريخ ٣ محرم سنة ١٣٦٦ أكد أنه اتصل بجميع اليمانيين في المهجر وعرف «أنهم لا يحملون العداء للعائلة المالكة ولكنهم يصرخون مما نالهم من الأذى ويطلبون أن تتبدل الأحوال ليعيشوا كما يعيش البشر أحراراً يؤدون الواجبات بدون قسوة وإرهاق».

هذه مقتطفات اقتبسناها في شيء من التوسع عسى أن تساعد على إلقاء الضوء على البواعث التي حملت ذلك الأمير على الهجرة من وطنه والإقامة مغترباً في المهجر، وتزعم حركة التحرير الناشئة. ويشك البعض في هذه الدعاوي ويعلل مسلك الأمير بما كان يشعر به من كراهية أو غيرة صوب بعض أخوته ومنهم سيف الإسلام أحمد، ويقول آخرون إنه شاب به نزعة إلى الظهور والزعامة استغلها بعض خصوم الحكومة وغرروا به واستخدموه في سبيل تحقيق مآربهم، ونسب البعض الآخر الأمر إلى أطماع ملكت على الرجل نفسه بمعنى أنه كان يتوقع أن يؤول إليه الملك إذا قيض للأمور أن

تتبدل. ولكن يلاحظ من جهة أخرى أنه لما حدث الانقلاب وبايع الأنصار عبد الله بن الوزير بالإمامة قبل الأمير ذلك الوضع راضياً وأسرع من عدن ليتقلد المنصب الذي خصص له في حكومة الثورة.

وعلى أثر انضمام الأمير إلى الجمعية قرر البعض أن يطلق عليه اسم «سيف الحق» بدلاً من «سيف الإسلام» تمييزاً له عن بقية إخوته، وفي هذا قال أديب يماني:

يا سيف أهل الحق في أوطاننا   والسيف أمضى ما يكون يماني

ولقد وجه الأمير نداء إلى جميع طوائف الشعب اليماني، وهو وثيقة هامة من حيث إنها تعطينا فكرة عن حالة البلاد وعن الأسباب التي أدت إلى قيام الحركة التحريرية، وها نحن نجتزىء طرفاً منه:

«يا علماء الأمة إن الحالة في اليمن لا تطاق بعد اليوم أبداً وإن السكوت على ما نسمع ونرى في كل صبح ومساء جريمة... إنه لولا إغضاؤكم عن أعمال الظالمين وسكوتكم عما يلاقيه المسلمون لما بلغ الحال إلى ما بلغ إليه...

«أيها العمال والحكام: لقد استخدمكم الظالمون لا لإقامة العدل والاحسان بين الناس ولا لحفظ الأمن والنظام في البلاد ولكنهم اتخذوكم جباة قساة تسوقون إليهم أموال المسلمين وتخضعون لهم رقاب إخوانكم من المواطنين وقد سلبوا منكم كل حق وجردوكم من كل سلطة فلا يسمعون لكم رأياً ولا يقبلون منكم صرفاً ولا عدلاً حتى دخل في روع الناس أنكم لا تصلحون إلا للشر.. فكيف ترتضون لأنفسكم هذه المنزلة بين مواطنيكم.

«يا مشايخ البلاد ونقباء القبائل: لقد كان لكم بين قبائلكم مقام كريم فكنتم إذا قلتم فعلتم وإذا أمرتم أطعتم وكان الظالمون يعرفون لكم مقامكم وقدركم حينما كانوا يتزلفون إليكم ويطلبون مساعدتكم حتى إذا ما تم لهم

بأمر وصفت لهم الدنيا تنكروا لكم ومنعواعنكم حقوقكم وعوائدكم وأهانوكم بين قبائلكم وأفقروكم بعد الغناء وأذلوكم بعد العزة . . .

«أما أنتم أيها الزراع الكادحون فخطبكم عظيم وحالكم أليم وقد طال صبركم على جور الحكام والعمال وعسف المأمورين النهابين وأذية العسكر المخططين والمنفذين» . . الذين يحتلون منازلكم وينتهكون حرمة بيوتكم وقد طال ما اعتبركم الظالمون خولاً وعبيداً تزرعون ليأكلوا وتجوعون ليشبعوا وتشقون ليسعدوا ثم إنهم لا يرحمونكم إذا أجدبتم ولا يساعدونكم إذا افتقرتم ولا يداوونكم إذا مرضتم، وقد ضعفت أحوالكم وتناقصت أموركم وبعتم أراضيكم وهاجر بعضكم إلى خارج البلاد . .

«وأنتم أيها التجار المنكوبون: إنكم من ضحايا هذا العهد الاستغلالي الفظيع الذي شل أيديكم وعطل أعمالكم وقضى على تجارتكم بمنافسة الولاة المتاجرين الذين أعمى الدينار بصائرهم فاستغلوا نفوذهم وسلطانهم في التجارة بين رعاياهم .

«أيها الموظفون الصابرون: أنتم العاملون الدائبون والجنود المجهولون الذين سخرهم الظالمون لخدمتهم وتنفيذ مقاصدهم لا لخدمة الوطن ورعاية مصالح الأمة، ومنعوا عنكم حقوقكم وقتروا عليكم في مرتباتكم وأرزاقكم وأحوجوكم إلى مد أيديكم والجرأة على أخذ أموال الناس من وجوه غير مشروعة وحرموكم من العزة والكرامة التي يتحلى بها موظفو الدولة في جميع حكومات العالم . . تعملون ليلاً ونهاراً ثم لا تجدون من يقدر أعمالكم، وتفنون أعماركم في الخدمة ثم تتركون أولادكم من بعدكم فقراء لا يجدون حكومة ترعاهم ولا ولياً يكفلهم ويقوم بأمر معيشتهم وتربيتهم . .

«أيها الجنود اليمانيون البواسل . . إن الأمم في الدنيا كلها تبالغ في تكريم جنودها وتبذل الأموال الطائلة في سبيل تدريبهم وتسليحهم وتوفير أسباب راحتهم . . أما أنت أيها الجندي اليماني فلا يعتبرك الحكام . . إلا

خادماً مأجوراً لحراستهم وتنفيذ مقاصدهم الشخصية، تسهر الليالي ليناموا مطمئنين هادئين، وتفترش الحصير وتلتحف السماء ليهنأوا في دورهم وقصورهم الشامخة».

المطالبة بالإصلاح

لم يقف الأمر عند هذا الذي ذكرناه، ولكنا نجد نفراً من أعيان البلاد أو زعمائها الدينيين يطالبون الملك الراحل بالإصلاحات الواجبة خشية ثورة النفوس واضطراب الأمن، فهم إذن يرون في العمل المجدي للخير العام بصورة متطورة مطردة السبيل الوحيد للاستقرار وانتشار الهدوء والنظام. ويخيل إلى الكثيرين أنه لو أن الحكومة السالفة استجابت لهذه الدعوات وأقدمت على وضع وتنفيذ برنامج من الاصلاح لما تطورت الأمور إلى ذلك الحد الذي أسف له الجميع . ومن الجماعات التي بذلت النصح للحكومة هيئة كبار علماء صنعاء التي رفعت إلى الإمام الراحل عريضة أو مذكرة تتضمن مطالب محددة أشرنا إلى معظم بنودها في صفحات سابقة. وفي ١٧ محرم سنة ١٣٦٦ بعث صاحب الفضيلة العالم الشيخ محمد بن سالم البيجاني برسالة إلى الملك وصف فيها الحال السائدة بالسوء والابتعاد عن جادة الحق العدل، وأنذر بما قد يتمخض عنه المستقبل من أخطار لا يعلم مداها لأن «استياء رعيتكم من الحالة الحاضرة يزج بالبلاد في الهاوية ويهدد المملكة. . . بالزوال وأعداؤكم كثيرون والذين يتربصون بكم الدوائر قد أحاطوا بشعبكم وبلادكم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم» وكأنما يريد الإشارة إلى الانجليز أو المملكة السعودية. وبعد أن أسهب الشيخ في بيان طائفة من المظالم التي تئن منها الرعية نصح بعدم التهوين من شأن الجمعية اليمنية الكبرى «فالناس ينضمون إليها مؤمنين بعدالة قضيتهم وصدق تألمهم، فهم يؤيدونها من كل مكان ويناصرونها مادياً وأدبياً، والعاقل لا يأمن كيد الضعيف ولا يستخف بعدوه مهما كان». ونفى الرجل الشائعات التي تروج على غير أساس من حيث عداء الأحرار للأسرة المالكة وقال «ولا تظنهم أعداء لكم ولا إلبا عليكم ولكنهم طلاب حق ورواد صلاح».

اهداف الجمعية اليمنية ومطالبها

بالرجوع إلى النشرات والصحف التي كانت تصدرها الجمعية وفروعها، وإلى مختلف التصريحات التي أدلى بها من وقت لآخر زعماؤها الذين أصبحوا من رجال الحكومة الشورية خلال مدة قيامها الوجيزة ، نستطيع أن نجمل أهداف تلك الحركة التحريرية فيما يلي :

أولاً ـ اقامة نوع من الحكم الشوري يوفق بين قواعد الديموقراطية كما تفهمها البلاد المتقدمة وبين تقاليد الشعب اليمني وعاداته، مع ملاحظة أن الوضع الجديد المقترح لا يتعارض مع الإمامة أو النظام الملكي القائم بالبلاد. ولتحقيق ذلك ينبغي إنشاء «مجلس تشريعي» تكون مهمته سن القوانين وفرض الضرائب ومراقبة أعمال الحكومة وتصرفاتها بالداخل والخارج. ولم ير الأحرار أن ظروف بلادهم تتفق ونظام الانتخاب بسبب ما عليه البلاد من التأخر ومن الانقسام إلى قبائل وطوائف متباينة، ولهذا فضلوا أن يكون تكوين المجلس عن طريق «التعيين» بحيث يشمل الأعيان وأهل الرأي والشباب المثقف. وما من شك أن هذا كله لا يؤكد سيادة الشعب وسيطرته بل إنه يجعل الحكم في أيدي الطبقة العليا من المجتمع حقيقة، ولكن هؤلاء الأحرار اليمنيين يقولون إنهم عمليون واقعيون فإذا ما انقضى وقت وأسفرت التجربة عن النجاح طبقوا النظام البرلماني كما هو الشأن في الأقطار الأخرى. وهم يصرون كذلك على أن تكون «الوزارة» مسئولة أمام المجلس التشريعي ـ لا الحاكم ـ فتحتفظ بكيانها طالما هي متمتعة بثقته وتأييده.

ثانياً ـ تنظيم الحكومة والأداة الحكومية على النحو التالي :

١ ـ قيام وزارات متعددة تختص كل واحدة منها بناحية معينة فتكون هناك وزارات للتجارة والزراعة والمواصلات والثقافة والخارجية والدفاع.

ويراعى أن يختار الوزراء من ذوي الكفاءة والنزاهة .

٢ ـ تقسيم كل وزارة إلى إدارات ومصالح متخصصة وتنظيم الأخيرة بشكل يكفل انتظام سير الأعمال .

٣ ـ تعيين الموظفين وبخاصة في المراكز العليا على حسب الكفاية والصلاحية .

٤ ـ وضع نظام ثابت لرواتب الموظفين وترقياتهم ومعاشهم في حالة العجز أو التقاعد أو الوفاة .

٥ ـ إنشاء إدارة رئيسية للعناية بشؤون الأمن العام .

ثالثاً ـ إصلاح القضاء وذلك بالوسائل التالية :

١ ـ وضع قوانين وقواعد ثابتة محددة وواضحة المعالم تقوم على أساس الشريعة الإسلامية والتقاليد السائدة مع اقتباس النافع والسليم من قوانين البلاد الأخرى .

٢ ـ إنشاء المحاكم بمختلف درجاتها والإكثار من عددها .

٣ ـ التدقيق في اختيار القضاة ممن يتميزون بالنزاهة والعدالة والصلاحية .

٤ ـ فصل السلطة القضائية وإحاطتها بالسياج الواقي حتى لا تقع تحت المؤثرات الضارة من جانب السلطة التنفيذية .

رابعاً ـ إصلاح الحالة المالية بطريقة علمية مدروسة وذلك :

١ ـ بوضع ميزانية تبين المصروفات والإيرادات .

٢ ـ إنشاء بنك تابع للدولة .

٣ ـ المسارعة بإصدار نقد قومي يصلح في المعاملات الخارجية حتى تنتظم العلاقات التجارية مع البلاد الأجنبية .

٤ ـ إصلاح نظام الضرائب بأن تكون متمشية مع طاقة دافعيها، وإلغاء المكوس والرسوم التي تشل النشاط الاقتصادي وتقلل من دخول الأفراد.

٥ ـ الاستعانة بالخبراء في المسائل المالية والمصرفية.

خامساً ـ وضع برنامج للإصلاح الاقتصادي يتناول الأمور التالية:

١ ـ إصلاح أساليب الزراعة والتوسع في زراعة مختلف المحصولات التي تصلح البلاد لها.

٢ ـ تحديد نظام الملكية بحيث يطمئن الفلاحون على حياتهم.

٣ ـ إنشاء عدة مشروعات للري وبخاصة في إقليم تهامة الخصيب حتى يمكن استغلالها على الوجه الأكمل.

٤ ـ مد شبكة من الخطوط الحديدية بين المدن الرئيسية، وتعبيد الطرق البرية بحيث تصلح لسير السيارات.

٥ ـ إصلاح الموانىء و توسيعها وإنشاء الأحواض بحيث تتسع للسفن الكبيرة.

٦ ـ إنشاء أسطول تجاري إما بواسطة الحكومة أو عن طريق الشركات.

٧ ـ استغلال الثروة المعدنية من ذهب وبترول.

٨ ـ إقامة الصناعات التي تعتمد على المنتجات المحلية.

٩ ـ القضاء على الاحتكار التجاري وإطلاق الحرية للأفراد لمزاولة النشاط التجاري خالياً من القيود.

١٠ ـ إنشاء علاقات تجارية واسعة النطاق مع الأمم الأخرى وبخاصة البلاد العربية.

سادساً ـ العمل السريع على مكافحة الأمية ونشر العلم والثقافة ويكون ذلك عن طريق التوسع في فتح المدارس والمعاهد بمختلف أنواعها، وإرسال

الطلاب لتلقي العلوم المختلفة بالخارج واستقدام البعثات العلمية من البلاد الأخرى وبخاصة العربية. وكذلك إطلاق حرية الكتابة والنشر، وتشجيع إصدار الكتب والصحف والمجلات، والعناية بالإذاعة، وإنشاء دور الكتب في العاصمة والمدن الكبرى.

سابعاً - إنشاء المستشفيات والمصحات وغير ذلك، والإكثار من عدد الأطباء حتى يتسنى العمل على تحسين صحة الأهلين ومكافحة الأمراض المتوطنة.

ثامناً - التوسع في التمثيل السياسي والقنصلي مع البلاد الأجنبية، وهنا ينصح الأحرار برسم سياسة خارجية هدفها المحافظة على استقلال البلاد في نطاق التعاون السليم مع البلاد الأخرى وخصوصاً مع دول الجامعة العربية.

تاسعاً - العناية بوسائل الدفاع عن البلاد بالطرق الآتية:

١ - إنشاء جيوش نظامية ثابتة.

٢ - الاهتمام بمظهر الجندي من حيث الملبس والمأكل، وزيادة الأجر الذي يدفع له.

٣ - تزويد الجيش بالأسلحة والمعدات الحديثة من مدافع ودبابات وطائرات يمكن شراؤ ها من الخارج.

٤ - إنشاء مدرسة عسكرية وإرسال الطلاب إلى الخارج واستقدام خبراء عسكريين إذا لزم الأمر من الدول العربية.

مسئولية جامعة الدول العربية

بعد أن تزعم سيف الحق إبراهيم الحركة اليمنية الجديدة أبرق إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية الرسالة التالية بثتها بنصها نظراً لعظيم أهميتها:

«بناء على خطورة الحالة في اليمن فقد قررت مع بعض رجالات اليمن وبعض اخوتي سيوف الإسلام أن نتلافى الخطر بتأييد الجمعية اليمنية الكبرى ونصرة الأحرار اليمنيين وضم أصواتنا إلى أصواتهم للمطالبة بالحقوق الشرعية العادلة التي لا تسيء إلى أحد والتي هي ضرورية لسلامة البلاد وسعادتها.

فأرجو من الجامعة العربية أن تتدخل لحل مشكلة اليمن الخطيرة قبل أن يفلت الزمام من أيدي المخلصين للقضية ويحدث ما لا نريد جميعاً» وفي الرسالة التي وجهها الأمير ألى (صوت اليمن) قال «وسأكون على اتصال بالجامعة العربية أناشدها العمل لحل المشاكل اليمنية حتى تتحقق جميع آمال اليمانيين بواسطة إخوانهم العرب» وفي ندائه للشعب اليمني وردت العبارة الآتية «واعلموا أني على اتصال دائم بجامعة الدول العربية وبحكومتها وملوكها وأمرائها وزعمائها... إلخ.»

فما الذي يمكن استخلاصه من هذا جميعه؟ إن هذه المراسلات والتصريحات تدل دلالة واضحة على أمر له أهميته وهو أن رجال الجمعية المطالبة بالإصلاح وعلى رأسهم الأمير سيف الحق إبراهيم كانوا يعلقون آمالاً كباراً على جامعة الدول العربية ويرجون منها أن تبذل جهودها لكي تسير الأمور سيراً معقولاً وحتى تظل الحكمة متغلبة على النفوس والعقول. وقد كتب الأستاذ حبيب جاماتي مقالاً في مجلة النداء أوضح فيه أن الرسل والمبعوثين ظلوا يتصلون برجال الجامعة العربية وزعمائها خلال العامين

السابقين لحدوث الانقلاب، ويأخذ على الأخيرين أنهم لم يعيروا الأمر الاهتمام الواجب، وبهذا يحملهم مسؤولية ما حدث. ولسنا ندري على وجه التحديد كنه هذه السفارات والمباحثات، ولا الموقف الذي اتخذته الجامعة العربية من وراء الستار. وقد يعترض البعض بأنه ليس للجامعة أن تدخل في أحوال الدول الأعضاء الداخلية ونظم الحكم فيها لأن مثل هذا العمل لا يتفق مع الميثاق. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يحاول البعض تبرير موقف تلك الهيئة بأنها لو أرادت مواجهة مطالب الأمير سيف الحق لأدى ذلك إلى توتر العلاقات بينها وبين اليمن الأمر الذي قد يحمل الأخيرة على الانسحاب من الجامعة. ولهذه الآراء والمعاذير جانبها وحظها من الوجاهة، ولكنا نرى من ناحية ثانية أن مهمة الجامعة أخطر من مجرد التقيد بالميثاق لأن الميثاق روح قبل أن يكون نصاً والهدف من إنشاء الجامعة التعاون فيما يعود على الجميع بالخير، وأن لها أن تستخدم النصح والتوجيه في سبيل تحقيق هذه الغاية، ونحن لا نطالب الجامعة بالتدخل المباشر وإنما نعتقد أن في استطاعة هذه الهيئة أن تستخدم نفوذها الأدبي الجماعي، كما تفعل أو يجب أن تفعل في أمثال هذه الحالات. إننا حين نؤاخذها على بعض تصرفاتها إنما نسترشد بحقيقة على جانب كبير من الخطورة والأهمية وهي أننا ننظر إلى إنشاء الجامعة على أنه مرحلة من مراحل النهضة العربية الحديثة، ونريد أن نجعل منها قوة إصلاحية تقدمية وذات شأن، ونحن حين نطالبها بالإفصاح عن جهودها وتصرفاتها فإننا نقدر في الوقت ذاته مسئولياتها وخطورة المهام التي تعالجها، ولكنا نريد أن نجعل الرأي العام يسندها ويقف من ورائها، والرأي العام لا يمنح ثقته «على بياض» وإنما بناء على وقائع مادية واضحة ملموسة. . . أفما كان في استطاعة هذه المنظمة أن تبعث وفداً بصورة غير رسمية إلى اليمن لدراسة أحوالها والاتصال بجلالة مليكها الراحل والسعي إلى التوفيق بين الآراء ووجهات النظر المتضاربة؟ يخيل إلينا أنه كان في مستطاعها مثل ذلك العمل. . والاعتذار بحكمة الابتعاد عن الشؤون الداخلية للأعضاء حجة واهية ينقضها ما نسمعه من اعتراض الكثيرين من رجالها على موضوعات شتى كمعاهدة شرق الأردن مع الدولة البريطانية. . ما قيمة وجود الجامعة إذا

لم تعمل على معاونة الأعضاء على التخلص من مشكلاتهم الداخلية، وإذا لم تستطع ذلك رسمياً فعليها أن تنير الرأي العام في البلاد العربية وهو وحده كفيل بتحقيق مثل هذه الأهداف.

الفصل الرابع

فشل الانقلاب

وفجأة وردت أنباء متناقضة عن وفاة ملك اليمن يحيى بن حميد الدين وقيام حكومة جديدة بالأمر بعد أن تمت البيعة لعبد الله بن الوزير، ولكن الغموض أو قل الاضطراب الذي لابس الأخبار الواردة، وكذلك صدور معظمها عن طريق عدن، كان من الأسباب التي حملت البعض على الشك في طبيعية الوفاة، وسرعان ما اتضحت الحقيقة وإذا بالإمام قد اغتيل وقتل معه اثنان من أبنائه، بينما وضع غيرهما تحت الحراسة أو في الاعتقال «المهذب».

وأسرع الصحفيون من مصر إلى اليمن محاولين إزاحة الستار عن المأساة التي شهدتها تلك البلاد ويحدثنا «المصري» أن شائعات تواترت قبل الانقلاب بأن شيئاً أو حدثاً جللا في سبيل الوقوع واستطاع أبناء الإمام يحيى أن يحملوه أو يقنعوه باستدعاء نجله سيف الإسلام أحمد وفعلاً أرسلت برقية إلى الأخير في هذا المعنى، وقبل أن يتخذ سبيله إلى العاصمة ذاع أمر الاغتيال فما كان منه إلا أن اعتصم بحجة وقيل إنه طلب السماح له بالالتجاء إلى الأراضي السعودية. وحجة قلعة منيعة تقع فوق جبل صعب المرتقى، ولهذا فالدفاع عنها ميسور ومستطاع وتستطيع الصمود والمقاومة أمداً طويلاً.

أخذ سيف الإسلام أحمد يستعد في معقله ويثير القبائل الموالية ويستحثها على الانضواء تحت لوائه استعداداً لتحطيم الحكومة الثورية. أما

ابن الوزير فأخذ يبعث بالرسائل إلى الدول العربية بطلب اعترافها به طوراً، وبإمداده بما يحتاج إليه من أسلحة ومهمات حربية طوراً آخر. ثم لجأ الطرفان المتنازعان إلى الجامعة العربية عساها تتعجل بإرسال وفد يدرس الأمور في مواطنها ويسعى إلى التحكيم تشبها بما حدث من تحكيم أبي موسى الأشعري قديماً في الخلاف بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. ومرت الأيام تباعاً وازداد مركز سيف الإسلام قوة وتألبت القبائل على ابن الوزير وسارعت بالزحف على صنعاء وتحرج موقفه فبعث إلى الدول العربية والجامعة مستنجداً مستغيثاً باسم النساء والأطفال خشية سقوط العاصمة في أيدي القبائل المتوحشة التي يحفزها ويحركها ما يشاع عن وفرة كنوز الملك الراحل. وأخيراً حلت النهاية وسقطت صنعاء في أيدي قوات سيف الإسلام أحمد الذي أعلن أن الشعب بايعه ملكاً باسم الناصر لدين الله وكتب إلى رؤساء الدول العربية في هذا المعنى، واجتمعت اللجنة السياسية التابعة لجامعة الدول العربية وأشارت بقبول الوضع الجديد، وتوالى الاعتراف والتهنئة للملك الجديد من جانب أعضاء الجامعة الآخرين وهكذا أسدل الستار على فصل من المأساة الأليمة. .

والآن يحق لنا أن نتساءل عن الظروف التي تجمعت وتفاعلت بحيث أدت إلى أن يكون الإخفاق مصير الحركة الثورية.

أولاً ـ أثر الانقلاب

ما من شك أن الاغتيالات أفعال تنفر منها النفوس، ويستنكرها الجميع وبخاصة أولئك الذين لا يستسيغون أساليب العنف، فلا عجب إذن إن أثار حادث الاغتيال هذا أشد مشاعر الرعب والسخط في نفوس الكثيرين من أهل الرأي في اليمن، وحتى الذين لم يكونوا على وفاق مع الإمام الراحل أو من أنصار سياسته هالهم الأمر وودوا لو تم الانقلاب بطريقة سلمية هادئة لأن هذا يجعله مستساغاً ولا يلقى ظلاً من الشك أو اللوم على القائمين به. وقال البعض إن الفعل في حد ذاته لم يكن له ما يبرره لأن الإمام الراحل شيخ طاعن في السن قربت أيامه الأخيرة، وفي هذه الحالة يستطيع أولو الرأي اختيار الشخص الذي يستطيع تنفيذ السياسة الإصلاحية المرتقبة لأن الإمامة بيعة بالشورى وليست ملكاً عضوضاً.

وزاد من بشاعة الحادث أن ذلك الشيخ الهرم كان مريضاً بالفالج ويشكو من هبوط في القلب حتى كان أقرب الناس اتصالاً به يتوقعون نهايته بأقرب مما يظن القوم، وأكثر من هذا فقد أطلق عليه المتآمرون عدداً وافراً من رصاص مدافعهم، وقتلوا اثنين من أبنائه، وتركت جثث الجميع دون مواراتها التراب زمناً طويلاً، ويحدثنا عبد القادر حمزة في مقال له بعنوان «يمنيات» نشرته البلاغ في عددها الصادر بتاريخ ٢٠ مارس سنة ١٩٤٨ أن جثتي الأميرين ظلتا بدون دفن ثمانية أيام كاملة، وعمل كهذا يعده الناس تدنيساً لكرامة الموت إذ حثهم الرسول قديماً على الإسراع بدفن الميت. هذه الأمور جميعها كان لها رد فعل بطبيعة الحال في النفوس وعرف سيف الإسلام أحمد وأنصاره كيفية استغلالها في تأليب الرأي العام في داخل اليمن وخارجها على الحكومة الثورية، بل لعلهم استغلوا ذلك أيضاً لمنع الدول العربية من الاعتراف بحكومة ولدت فى مهد جريمة اغتيال، ولعل فيما قدمناه ما يفسر لنا أحد

الظروف التي أضعفت مركز عبد الله بن الوزير، ولقد صرح الرجل في كل مناسبة أنه لا يعقل اشتراكه في جريمة قتل كهذه، غير أن خصومه ردوا عليه قائلين إنه لم يسارع إلى القبض على القتلة والاقتصاص منهم كما يقضي الحق والشرع، بل أهمل أمرهم حتى اختفى أغلبهم. وأكثر من هذا فقد رمى الخصوم ابن الوزير بأنه أسند عدداً من المناصب الهامة في الدولة إلى المتآمرين ومن يحملون الوزر بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وذلك قبل أن يفصل في أمرهم حتى تتضح براءتهم أو تبين إدانتهم وهذا الاتهام يذكرنا بشبيه له في عصر الخلافة الأولى حين اتهم الأمويون علي بن أبي طالب بالتهاون في أمر قتلة عثمان واتخذوا من ذلك ذريعة للخروج على الخليفة الرابع.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل رمي أنصار الإمام الراحل عبد الله بن الوزير بتهمة أخرى وهي الغدر وخيانة العهد قائلين إنه سبق للناس أن بايعوا سيف الإسلام أحمد في حياة أبيه وهذا يفسر قول الأمير «إن لي في عنق ابن الوزير بيعة». ولسنا نعلم حقيقة هذا الموضوع على وجه التحديد لأن ابن الوزير أنكره قائلاً إنه ليس في نظام اليمن بيعة سابقة وأن الإمام بالاختيار لأن الأمر الأول يحمل شبهة التوريث. وادعى آخرون أن مبايعة الابن في إمامة أبيه قد تحيطها ملابسات شتى ولذا فهم لا يرحبون بها، ويضربون لك المثل بالبيعة التي أخذها معاوية لابنه يزيد. وعلى كل حال فليس لنا أن ندلي برأي مرجح في هذا الخلاف الفقهي، لأن غرضنا تسجيل الوقائع وتفسيرها.

ثانياً ـ أخطاء عبد الله بن الوزير وحكومته

ويلاحظ من جهة أخرى أن الحكومة الثورية قد وقعت في أخطاء سياسية وعسكرية أساءت إلى سمعتها كما أضعفت مركزها. فمن ذلك أن عبد الله بن الوزير ملأ الكثير من المناصب الرئيسية للدولة بنفر من الشبان الحديثي السن وبعضهم ممن أقام عهداً بالخارج وله أنصار في داخل البلاد. هذه السياسة أو الخطة أدت إلى إشاعة النفور في نفوس الكثيرين من قادة الرأي وزعماء القبائل القوية الذين كان اجتلاب تأييدهم أمراً لا غنى عنه لتثبيت دعائم العهد الجديد، فالواقع أن هؤلاء الرؤساء ذوي النفوذ رأوا أن الانقلاب لن يعتمد عليهم ولا يهيىء لهم فرصة الاشتراك في الحكم كما كانوا يأملون، ولذلك سخطوا وتبينوا أن الحكومة الجديدة لن تختلف عن سابقتها في الاستبداد واحتكار السلطان. . لقد احتكر الحكم في عهد الإمام نفر من رجاله وأتباعه، وها هو عبد الله بن الوزير يحيط نفسه ببطانة أو فئة يلقي إليها بمقاليد الأمور فكأن الحالة لم تتغير إذ حلت طبقة صغيرة محل أخرى. وزاد من مخاوف رؤساء القبائل وزعماء اليمن ما اشتهر به الإمام الجديد من شدة، وهنا سرى الاعتقاد بأنه ـ إذا ما استقر له الوضع ـ لن يكون أقل استبداداً وسيطرة من الملك الراحل.

وأدلى رجال الحكومة الثورية ببعض تصريحات عن الاستعانة بالأجانب وانتشرت الشائعات بتردد الانجليز على صنعاء وإرسالهم بعض المعدات، وهذا كله استغله سيف الإسلام أحمد وأتباعه في تشويه سمعة الذين دبروا الانقلاب واتهامهم بأنهم من صنائع الانجليز، وأنهم أدوات في أيدي دولة أجنبية تريد أن تنتهز الفرصة للتدخل في شؤون البلاد وتحقيق مآرب استعمارية ولو بصورة غير سافرة.

ومن الأخطاء أيضاً أن حكومة ابن الوزير انزوت في صنعاء ولم تسرع

بإنفاذ الرسل للدعاية في مختلف أرجاء البلاد، كما لم تعجل بإرسال الجيوش التي لديها وبخاصة إلى المناطق التي لا يطمئن إلى ولائها أو يخشى انتفاضها، وهذا البطء أو الاهمال أتاح الفرصة لسيف الإسلام أحمد كي يستعد ويجمع جموعه ويبث دعايته في طول البلاد وعرضها. وفضلاً عن هذا فمن المعروف أن للملك الجديد قبائل تعطف عليه أو تناصره فلم يعجل بالخروج إليها واستنهاض همتها للذود عنه، وهذا الإغفال لشأنها كانت له نتائج خطيرة إذ ألقى في روعها أن الحكومة الجديدة على قدر كبير من الضعف وأنها لا تستطيع التغلب على خصومها. ومن هنا آثرت تلك القبائل الموالية التريث والانتظار حتى تنجلي الأمور، ولكن الوقت لم يكن في صالح رجال الانقلاب، فكلما طال زاد مركز خصومهم قوة.

ويرى البعض علاوة على ذلك أن الحكومة الثورية لم تعرف كيف تجتذب الأنصار والأتباع بالوسائل المادية، فقد كان تحت تصرفها أموال طائلة هي كنوز الإمام الراحل، وكان في استطاعتها أن تستخدم جانباً منها في اجتذاب رؤساء القبائل والعشائر والجنود وغيرهم، ومن هنا راجت الشائعات بأن رجال الثورة إنما دبروها طمعاً في الكنوز الدفينة والاستئثار بها، بل ذاع أن بعضهم نقل مقادير كبيرة من المال إلى خارج البلاد بطريق التهريب.

ثالثاً ـ العوامل والمؤثرات الخارجية

وهنا تتفاعل عناصر متباينة ويتحول موقف إلى نقيضه دون سبب ظاهر بل وخلاف ما كان يتوقع الناس. فعلى أثر قيام الحكومة الجديدة أرسل سيف الإسلام أحمد رسالة إلى الملك عبد العزيز آل سعود ولكنها ذات صيغة مرنة تتسع لأكثر من تأويل، وفسرتها بعض الأنباء بأن الأمير يعتزم الالتجاء إلى الأراضي السعودية خشية أن تمتد إليه أيدي رجال الانقلاب، ولكن لم يثمر الأمر عن نتيجة إيجابية لأن الأمير لم يلجأ إلى جاره، وقيل إن السعوديين لم يريدوا ذلك خشية الاتهام من جانب حكومة اليمن وهو قول مردود من إيوائهم السيد رشيد عالي الكيلاني، وقيل إن بعض رجالهم لم يكن يثق به إذ سبق اتهامه منذ سنوات بتدبير مؤامرة لاغتيال الملك السعودي. وفسر بعض الكتاب الرسالة على وجه آخر وهو طلب النجدة والمعونة، ولعل بعض أتباع صاحبها اتصلوا بالسعوديين وأطلعوهم على خطورة ما حدث في اليمن وسعوا إلى إزالة ما في النفوس من سوء تفاهم قديم. وسواء صح أحد التفسيرين فالثابت أن الأمير لم يلبث أن طلب تحكيم جامعة الدول العربية في الخلاف الناشب، وقيل إن هذا الطلب بالاحتكام جاء بناء على مشورة سعودية.

أما عبد الله بن الوزير فاتصل بمختلف الحكومات العربية وفي مقدمتها المملكة السعودية طالباً الاعتراف به وإمداده بالسلاح، ثم عاد فطلب تدخل الجامعة العربية، ولعله كان يظن أنها لن تجد حرجاً في الاعتراف بشرعية الانقلاب وسافر وفد تمهيدي، أما وفد الجامعة الرسمي المكون من الشخصيات التي لها خطرها فقد عرج على المملكة السعودية للاتصال بعاهلها وقيل إن الأمر لن يستغرق طويلاً، ولكن أمراً عجيباً وقع، ذلك أن المرض تدخل طوراً فعطل السفر إلى اليمن، وبدأت الأنباء تعتذر عن التأخير بصعوبة المواصلات طوراً آخر، ولكنا هنا نجد أن حلقة في السلسلة مفقودة.

أعلنت الحكومة السعودية أنها لا تريد الانتصار لأي الفريقين ولا التدخل على أي وجه من الوجوه وتفضل أن تقوم الجامعة العربية بهذه المهمة نيابة عن الرأي العام العربي، ووقفت مصر موقف الحياد كما أعلنت الدوائر الرسمية إلى أن يتم وفد الجامعة مهمته ويقدم مشورته وتوصياته. أما دولة شرق الأردن فاستنكرت الانقلاب وأسرعت بتحذير ابن الوزير من مغبته، وأعلنت أنها تعد سيف الإسلام أحمد إماماً شرعياً بعد مقتل والده. وكذلك وقفت الحكومة العراقية موقفاً مماثلاً.

وقيل إن الحكومة الأردنية فعلت ذلك لأغراض سياسية إذ كانت تعتقد أو تظن أن الحكومة الانقلابية على علاقات ودية مع السعوديين. وما من شك أن موقف الحكومة الأردنية بوجه خاص أحرج الدول العربية جمعاء وكذلك الجامعة العربية التي لم تتخذ خطة معينة بعد. أما سوريا ولبنان فآثرتا التريث حقيقة إلى أن يتبين وفد الجامعة جلية الأمر وحقيقة الحال، بل وورد على لسان أحد الشخصيات السورية البارزة ثناء على صفات عبد الله بن الوزير ووطنيته. وخلال هذه الأثناء تطور الموقف واجتمعت اللجنة السياسية التابعة للجامعة العربية ورأت أن من الأفضل الاعتراف بسيف الإسلام أحمد ملكاً وإماماً على اليمن بعد أن سقطت صنعاء في أيدي أتباعه ورجاله، وتوالت الاعترافات بالوضع الجديد وإن لم يفت المراقبين ملاحظة أن سوريا ولبنان تأخرتا في الاعتراف إلى ما بعد بقية أعضاء الجامعة.

فما الذي حدث حقيقة؟ ما الظروف الخفية التي تدخلت وبدأ مفعولها؟ هنا يقول البعض إن المملكة السعودية لعبت دوراً خطيراً من وراء الستار وأنها أيدت سيف الإسلام أحمد سراً من الوجهتين الأدبية بل والمادية. ولقد حاولت مجلة «أخبار اليوم» في عددها الصادر بتاريخ **٢٧** مارس سنة **١٩٤٨** إلقاء بعض الضوء وذلك في مقال طويل بعنوان «إزاحة الستار عن سر اليمن» وقد حرص الكاتب على أن يحلل العوامل التي كان لها أثر في تحديد موقف الملك عبد العزيز من الانقلاب، وقال إن الجريمة هي السبب الأول لا من حيث رد الفعل الناجم عن عملية الاغتيال فحسب، بل ومن حيث نتائجها السياسية في

بلد شبيه بوضع اليمن. وفي هذا يقول الكاتب «فقد هاله (أي الملك السعودي) أن يقتل بعض الرعايا ملوكهم، مهما يكن السبب الذي من أجله قتلوه! إن فوز ابن الوزير ليجرىء الناس على مثل هذا العمل المنكر، وأي تشجيع على مثل هذه الجريمة أقوى من أن ينقلب القتلة أو أصحاب مؤامرة القتل ملوكاً ووزراء وأصحاباً للأمر والنهي في البلاد والعباد» وفضلاً عن ذلك «فهنالك عوامل غير هذه مالت بابن سعود إلى أحمد، منها ولاية العهد فإن عبد العزيز قد أخذ البيعة على ولاية العهد في اليمن سابقة تسيء إلى ولاية العهد في المملكة السعودية، كما أن سابقة قتل الملوك كذلك، وقد كان بديهياً أن يتحمس الأمير سعود لزميله أحمد، وأن يحمل أباه على الانتصار له» وإذن فالخوف من نقض بيعة أخذت كان عاملاً له أثره في توجيه السياسة السعودية وفضلاً عن هذا فقد سبق لرجال الانقلاب اليمني من قبل وقوعه ومن بعده أن أعلنوا وصرحوا أنهم يهدفون إلى تغيير النظم القائمة ووضع حد للحكم المطلق وإقامة الحكم الشوري بحيث تكون الوزارة مسئولة أمام مجلس تشريعي على ما أوضحنا بصدد الحديث عن أهداف الجمعية اليمنية الكبرى. فالانقلاب الذي تم بدا كأنه حركة تحريرية تستهدف نقل السلطة إلى الشعب. حقيقة لو تأملنا الطريقة التي تصورها زعماء الحركة لقيام المجلس التشريعي لما وجدناه محققاً لسيادة الشعب بالمعنى المفهوم في البلاد الديمقراطية حيث يقوم الشعب بانتخاب ممثليه، وإنما هو في الواقع فرض سيطرة الطبقات العليا من المجتمع كالأشراف ورؤساء القبائل والعشائر وجماعة التجار، وبالرغم من هذا القصور فإن الحركة في حد ذاتها تعد انتصاراً أو رغبة في تأكيد حقيقة هامة وهي عدم السماح بحكم الفرد المطلق.
ومن المعروف أن نظام الحكم في المملكة السعودية ليس برلمانياً بالمعنى المفهوم في بلد كمصر، ومن المعروف كذلك أن بعض السعوديين ممن زاروا البلاد الأجنبية أو تلقوا العلم بالخارج يودون أن يكون الحكم الشوري في وطنهم حقيقة مادية ملموسة، وهنا يبدو رد الفعل الناجم مما حدث في اليمن إذ خيف أن يكون في نجاح الانقلاب ونتائجه ما يعد تشجيعاً للعناصر الحرة

في المملكة السعودية، ودافعاً لها على مواصلة المطالبة بإقامة دعائم النظام الدستوري. والتاريخ يدلنا دائماً على أن ما يجري في البلدان المتجاورة يؤثر فيها تأثيراً متبادلاً، فأي دعوة إصلاحية في قطر معين يتردد صداها في الأقطار المماثلة من حيث الاستعداد والظروف. ويلاحظ بوجه عام أن البلاد التي لا تعرف النظام الديموقراطي أو لا تتبع الأساليب البرلمانية الحديثة تنظر بعين الاستنكار والنفور إلى كافة الحركات الشعبية التي تستهدف الإصلاح حتى ولو كان طابعها سلمياً. وهذا يذكرنا بما كان يعلق به مترنيخ على أمثال هذه الحركات. ففي أعقاب حروب نابليون طالبت الشعوب في كثير من البلاد والولايات الأوروبية بالنظم الدستورية، وكان مترنيخ ـ زعيم الرجعية ونصير السلطان المطلق ـ يكره هذه الأمور بطبيعة الحال ويرى ضرورة إخمادها بحجة أن هناك فارقاً كبيراً بين الثورات التي تأتي من أعلى (أي الإصلاحات من جانب الحاكم) والثورات التي تأتي من أسفل (الشعبية) واعتبر الأولى مشروعة والثانية غير مشروعة.

ومن الحقائق الواضحة بذاتها أن العلاقات ودية للغاية بين المملكة السعودية والولايات المتحدة، بل إن الرأسمالية الأمريكية تلعب دوراً خطيراً في حياة البلد الأول الاقتصادية وتسيطر على موارده من البترول. وسبق أن قلنا إن الأخصائيين يؤكدون وجود موارد بترولية باليمن، وإذن فمن الطبيعي أن تحاول المصالح البترولية الأمريكية أن تمتد إلى البلاد اليمنية وأن تحول دون استغلال البترول اليمني من جانب دولة أخرى حتى لو كانت انجلترا ذاتها.. ومن الجائز أن كثرة ترديد حكاية كون الانجليز وراء الانقلاب اليمني من شأنه أن يثير استياء رأس المال الأمريكي؛ ومن هنا يعتقد الكثيرون أن الدولة الأمريكية لعبت ـ من وراء الستار طبعاً ـ دوراً له أهميته في تكييف موقف الدولة السعودية بحيث يتفق ومصالح خصوم العهد الجديد. وحتى إذا كان الأمريكيون لا يخشون منافسة جدية من جانب انجلترا، فإنهم على الأقل لا ينظرون إلى عبد الله بن الوزير على أنه من رجالهم ومع استبعاد كافة العناصر الأخرى فإن هناك أسباباً تحمل على الظن بأن مصلحة الولايات المتحدة متفقة

مع أهداف سيف الإسلام أحمد، ذلك أن أخاه الأمير سيف الإسلام عبد الله سبقت له زيارة الولايات المتحدة والاتصال برجال الأعمال فيها، بل انه ـ على ما سبق لنا بيانه ـ عقد صفقات تجارية معهم لتكون مقدمة لعلاقات اقتصادية نامية بين اليمن والولايات المتحدة. وإذن فمن الراجح أن تؤيد الأخيرة قضية الأميرين، ومن هنا نجد حجة الذين يرون أثر السياسة الأمريكية في خطة المملكة السعودية.

أما كيف سهلت المملكة السعودية طريق الفوز لسيف الإسلام أحمد فقد تحدثت عنه «أخبار اليوم» في المقال المشار إليه بقولها:

«إن جلالة الملك عبد العزيز يملك من النفوذ في اليمن، ولا سيما في الشمال والغرب، ما يجعله سيد الموقف في تلك البقاع. إن ما يغدقه ابن سعود على القبائل الضاربة في البقاع المتاخمة لمملكته وما يهديه إلى زعمائهم وشيوخهم قد جعل قيادتهم في يده، يضاف إلى ذلك العلاقة المذهبية التي تربط الشوافع به، وهم أكثر من نصف أهل اليمن.

إن بين هؤلاء الشوافع والزيود الذين منهم الإمام والطبقة الحاكمة والذين هم سكان الجبال غالباً، جفاء قديم يسكن حيناً ويثور حيناً. وهم يرون في الملك السعودي ولياً روحياً لهم تربطهم به رابطة المذهب. وقد تضمنت المعاهدة التي عقدها الفريقان على أثر حربهم الأخيرة ما يؤكد هذه الصلة، أو ما يجعل لابن سعود حق حماية الشوافع على حد تعبير أحد وزرائه. إن هؤلاء الشوافع على شدة ما قاسوه قديماً من الإمام الراحل، وعلى شدة نفورهم من سيف الإسلام أحمد الذي عرفوه حاكماً قاسياً لبعض مقاطعاتهم مدة طويلة، إن هؤلاء الذين كان ينتظر منهم أن يروا في الانقلاب فرصتهم للانتقام أو لتبديل أوضاعهم على الأقل، قد سكنوا سكوناً غريباً، وأخلدوا للأمن إخلاداً عجيباً، مع أنهم كانوا في موقف يمكنهم من مضايقة أحمد والقضاء عليه إذ كانوا محيطين به. ولكن إشارة من وراء الحدود جعلتهم إما أن يلتزموا الحياد، وإما أن ينصروا أحمد ويمدوه بالرجال والعتاد، ولقد بادر

الملك عبد العزيز منذ بدء الحركة إلى إرسال قواته إلى الحدود».

سبق أن تحدثنا عن تأليف الجمعية المناهضة لنظام حكم الإمام يحيى، ولكن ينبغي أن نذكر أنها حديثة العهد لم يمض عليها الوقت الكافي حتى تنمو ويشتد ساعدها، ويبدو كذلك أنها قصرت نشاطها ودعايتها على بعض كبار الزعماء وأهل الرأي في البلاد، ولكنها لم تحاول أن تهبط إلى أسفل وبعبارة أخرى لم تسع سعياً جدياً إلى بث دعايتها في صفوف رجال القبائل والمزارعين وصغار المشتغلين بالتجارة والطوائف الدنيا من الموظفين وعمال الحكومة، فلو أنها فعلت ذلك حقاً لاكتسبت قوة شعبية كبيرة، ولما سهل القضاء عليها بمثل هذه السرعة، وهكذا يخيل إلينا أنها اقتصرت على جانب من الطبقة الحاكمة في البلاد أو الأرستقراطية بمعنى آخر، وهكذا كانت تلك الحركة تشكو من الضعف الذاتي، وفضلاً عن هذا يتراءى لنا أن زعماءها كانت تعوزهم الحنكة السياسية وإلا لعرفوا كيف يوثقون علاقتهم بالسعوديين وينالون تأييدهم أو حيادهم المشوب بالعطف على أقل تقدير.

هذه بعض العوامل التي قد تفسر لنا إلى حد ما إخفاق ذلك الانقلاب الذي شهدته اليمن.

خاتمة

من نتائج الانقلاب

لقد سقطت صنعاء منذ فترة ليست قصيرة، وتداعت أركان الحكومة الثورية، وألقي القبض على الكثير من رجالها وقادتها. ونودي بسيف الإسلام أحمد إماماً وملكاً مكان أبيه باسم الناصر لدين الله، ولكن الملاحظ أنه لم ينتقل بعد إلى مقر ملكه، الأمر الذي يحمل بعض المراقبين على الظن بأن الحالة في اليمن لم تصل إلى الدرجة المنشودة من الهدوء والاستقرار، وإن كان الكثيرون من أصدقاء ذلك البلد يرجون أن لا يتعرض لخطر الحرب الأهلية أو الفتن الداخلية التي قد تعطل الإصلاح المرتقب، أو تفسح المجال أمام الدسائس والأطماع الأجنبية.

وليس من شك أن القضاء سينزل العقوبة بالذين يثبت بصفة قاطعة اشتراكهم في الاغتيال، ولكن أكثر ما يخشاه البعض أن تتغلب روح الثأر على صفة الحكمة وفي هذه الحالة لا يمكن أن تستقر الأمور لأن ابن الوزير مثلاً ومعه جماعة من أنصاره لا شك قوم ذوو عصبية ولهم أنصار وأتباع لن يستكينوا للوضع الجديد. وهذا يفسر حقيقة السرور الذي خامر الكثيرين حينما ذاع أن في نية جلالة الملك الجديد أن يصدر عفواً عاماً وبذا يقضي على عوامل البغضاءوبواعث الانتقام في المستقبل.

غير أن الأمر الذي يعنينا في الواقع على اعتبار أن اليمن جزء من ذلك

العالم العربي الذي يستقبل عصراً جديداً، إنما هو النتائج الحالية والمستقبلة التي يسفر عنها ذلك الانقلاب بالرغم من إخفاقه. والاخفاق مسألة نسبية إذ قد يتحول إلى خير أو نجاح بصورة غير مباشرة؛ ومن أمثلة ذلك أن الثورات القومية والديموقراطية التي حدثت عام ١٨٤٨ في إمبراطورية آل هبسبرج قد أخفقت في تحقيق أهدافها المباشرة، ولكنا نلاحظ أن القضاء عليها صحبه في الوقت ذاته قضاء على مخلفات النظام الإقطاعي.

وإن من الخطأ البين أن يظن أن الانقلاب اليمني الأخير نوع من تلك الانقلابات المألوفة التي يدبرها أو يتولاها فرد طامع في الحكم أو الولاية، فالحقيقة أن المسألة أعمق من هذا بكثير. فقد عرضنا لأسباب الانقلاب وشرحنا جانباً من المقدمات التي أدت إليه، ومن هذا كله نتبين أنه وليد عوامل داخلية متصلة بالتنظيم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للبلاد، وأنه كان من الضروري أن تتناول يد الإصلاح هذا التنظيم، فلو تجردنا من الدعايات والعوامل المباشرة والأطماع الذاتية في نفوس البعض لاستطعنا أن نرى في ذلك الانقلاب نزعة جديدة طابعها وغايتها تحرير المجتمع اليمني من كثير من العلل التي حالت دون نموه والاستفادة من إمكانياته. إنه محاولة تستهدف تغييرات حاسمة في أساليب الإنتاج ووسائل مزاولة العيش والنظم الاجتماعية والسياسية التي تلائم ذلك. وإذن فإننا نعد الانقلاب من هذه الناحية ـ أغراضه الجوهرية ـ أحد تلك الحركات التطورية المتقدمة التي شهدها العالم العربي منذ مستهل القرن العشرين، أو منذ انتهاء الحرب العالمية بوجه خاص. لقد أقدم بعض مدبريه على أعمال عنيفة كمقتل الإمام وولديه، ووقعوا في أخطاء، والثورات عادة مليئة بالأخطاء وأعمال التهور والطيش، ولكنا بالرغم من هذا جميعه الذي نستنكره، نعتقد أن له آثاراً بالنسبة لمستقبل اليمن، فهو قد نبه أذهان الكثيرين من أفراد شعبها إلى أن التطور المتقدم أمر محتوم، ولا بد منه إذا أريد لهذا البلد أن يستغل ظروفه الطبيعية ويحافظ على استقلاله. إن الذين يرون أن في الإمكان العود باليمن إلى الظروف التي كانت تعيش فيها بدون تغيير أو تعديل، قوم يقللون من شأن التطور التاريخي واتجاهه، فالمجتمع

اليمني قد اعترته هزة عنيفة لن يضيع أثرها.. لقد عاشت مصر في أسوأ الأحوال خلال القرن الثامن عشر بصفة خاصة وكانت هذه الأحوال تنم عن حتمية التغيير، وجاءت الحملة الفرنسية وبدا من ثناياها ضغط المدنية الغربية الجديدة، ولما غادر الفرنسيون البلاد حاول الأتراك والمماليك أن يعودوا بالبلاد إلى وضعها السابق فعجزوا وأخفقوا وتمخضت الظروف الجديدة عن ظهور محمد علي.

وها نحن أولاء نسمع الجميع يتحدثون عن ضرورة القيام بإصلاحات حاسمة وشاملة، وتغييرات جوهرية في كيان المجتمع اليمني. وكذلك أدلى الأمير سيف الإسلام عبد الله ذاته بعدة تصريحات إلى الذين اتصلوا به خلاصتها أن الحكومة الجديدة تنوي أو تعتزم أن تضع لنفسها سياسة إصلاحية جديدة معتمدة على مواردها ومستعينة بخبرة الأخصائيين من أهل البلاد العربية، ونعتقد أن من الضروري الإسراع بالتخطيط والتنفيذ. وفي اعتقادنا أن نهضة اليمن القادمة يجب أن تنظم على أركان عدة منها:

١ ـ المحافظة على استقلال البلاد وإعداد أحسن وسائل الدفاع عنها.

٢ ـ استغلال التربة في الإنتاج الزراعي وتنظيم الملكية.

٣ ـ تحسين وسائل المواصلات بكافة أنواعها.

٤ ـ الخروج باليمن من عزلتها السياسية والاقتصادية إذ لم يعد لها ما يبررها.

٥ ـ إدخال نظم الحكم والإدارة الحديثة إذ من المستحيل أن تعيش اليوم في نطاق جامعة الدول العربية دون أن تحذو حذو مصر أو سوريا أو لبنان وغيرها في هذا المضمار.

٦ ـ العمل على نشر التعليم والثقافة.

ويخيل إلينا أنه يحسن باليمن أن تؤلف لجنة من الخبراء لتدرس أحوال البلاد من كافة نواحيها وترسم السياسة الضرورية ووسائل تنفيذها وتدبير المال

اللازم لها وتعيين آجال معلومة لذلك التنفيذ. وأن فيما ذكرناه عن أهداف الجمعية اليمنية الكبرى ما يصح أن يعد مرشداً في رسم الإصلاحات الجديدة غير أننا إذ ندعو إلى خروج اليمن من عزلتها الاقتصادية نود أن نلفت النظر إلى ضرورة اصطناع الحذر الشديد فلا تقدم البلاد على الاقتراض أو منح الامتيازات الاقتصادية بالنسبة إلى الدول الأجنبية الكبرى إذ كلها طامع في ذلك القطر العربي. كما أننا إذ نحبذ خروج اليمن من عزلتها السياسية نحذر كذلك من أي ارتباط سياسي بالدول الكبرى أو من أية محالفات قد تنقلب شراً على اليمن وشعبها.

وأخيراً فإنا نرجو أن نكون قد وفقنا إلى تقديم عرض موجز لحالة اليمن في الأسابيع القليلة الماضية، ونأمل أن تستقر أحوالها فتسير في طريق الإصلاح والديموقراطية.

«تم بحمد الله»

تقرير عن اليمن

الفضيل الورتلاني

مَن هو الفضيل الورتلاني



كنا أردنا أن ننشر كل ما جاء في الصحف العربية من تعريف بالسيد المجاهد الفضيل الورتلاني . . ولكنا رأينا أن مجموع تلك الكلمات سيكون اكثر من التقرير الذي اردنا أن يكون مقدمة له ، فاكتفينا منها بما يأتي :

قالت جريدة القبس الدمشقية تعرف بفضيلته :

الايمان والرجولة هما عنصرا النجاح في الحياة

« وجه مشرق القسمات ، طافح بالرجولة والبشاشة ، وجسم ممتلىء قوة وإيماناً وحديث متنوع اللهجات ما بين مغربي ومصري وشامي ، ذلك هو الأستاذ الكبير الفضيل الورتلاني امين سر جبهة الدفاع عن شمال افريقيا في مصر وضيف دمشق الآن .

ولد سنة ١٩٠٨ ـ في محافظة قسطنطينة بالجزائر وتعلم في مدارسها الحكومية ومعاهدها الدينية ودخل جامع الزيتونة فمكث فيه مدة ثم انقطع إلى صحبة شيخ النهضة العربية في الجزائر وآية الله في علو الهمة وسعة العلم ونفاذ البصيرة المغفور له الشيخ عبد الحميد بن باديس فأفاد منه علما وأدباً ووطنية وجهادا ولما نظم العمل في جمعية العلماء سنة ١٩٣٠ كان الأستاذ الورتلاني من أنشط اعضائها الشباب وأكثرهم دأبا على الدعوة وفي سبيلها

تعرض منذ نعومة اظفاره لمقت المستعمرين وكفاحهم . . .

وفي سنة ١٩٣٤ سافر إلى باريس مندوبا عن جبهة العلماء للاتصال بالجالية الجزائرية التي تبلغ في فرنسا مائتي ألف نسمة منهم مائة ألف في باريس وحدها فنظم شؤون الجالية وأنشأ لها النوادي المتعددة حتى باتت في باريس احد عشر ناديا تلقى فيها الدروس والمحاضرات والخطب الملهبة للشعور .وفي فرنسا الف جمعية الدعوة والتهذيب والجمعية الاسلامية الفرنسية واشترك في المؤتمر الدولي اللاعنصري والمؤتمر الاسلامي الجزائري ولم يقصر مدة وجوده في باريس على تهذيب الجزائريين وتعليمهم بل كان لسان الحركة الوطنية يناضل عنها في الصحف وفي المجالس ويتصل بكبار الشخصيات الفرنسية والعربية .

وفي أواخر عام ١٩٣٨ علم أن الحكومة الفرنسية قد بيتت ضد حياته أمراً خطيراً ففر سراً إلى سويسرا ومنها انتقل بوسائل غاية في الدهشة إلى بلاد أوربا بلداً فبلداً حتى استطاع أن يصل إلى مصر سليما من اذى الفرنسيين وعدوانهم . . . » .

هنا كلمة يجب أن تذكر للتاريخ ، إذ لم تأت بها جريدة القبس في تعريفها وهي :

(إن الورتلاني قد اضطر في ايام الحرب أن يغمر ظروفه خشية أن يتهمه الانجليز دساً من فرنسا بالعمل لحساب المحور فدخل الجامع الأزهر وتقدم للامتحان فأخذ منه شهادة العالمية ولكن الحرب ما زالت مستمرة فالتحق بكلية اصول الدين متخصصا في الدعوة والإرشاد لمدة عامين ثم تخصص في القضاء الشرعي لمدة عامين ايضا فأخذ الشهادة) . وهنا وضعت الحرب اوزارها فرفع الفضيل الورتلاني علم الجهاد من جديد . . حيث تقول جريدة القبس :

« وفي مصر يبدأ الورتلاني بسلسلة جديدة من جهاد شاق . إذ دأب على تعريف المصريين والبلاد العربية بقضية الجزائر وشمال افريقيا ، وهي القضية التي ما زالت مجهولة لدى كثير من ابناء الشعوب العربية فكان يخطب في كل

حفل ويكتب في كل صحيفة حتى أسس في سنة ١٩٤٢ لجنة الدفاع عن الجزائر فكان أمين سرها ، ثم تشكلت في سنة ١٩٤٤ جبهة الدفاع عن شمال افريقيا فكان أمين سرها أيضا ولسانها الناطق وحركتها الدائبة .

وهـذه خطوط أولى في تاريخ حياة هذا المجاهد الكبير الذي سمعته دمشق بالأمس يتحدث عن القضية المغربية حديث المؤمن بحق امته بأسلوب بليغ وبيان عذب وحماس يلهب المشاعر فأهلا بالمجاهد ومرحبا » .

وقالت مجلة « الأمانة » التي يشرف على تحريرها الدكتور منصور فهمي باشا في مصر . . والتي نشرت هذا التقرير ايضا ، ما يلي :

« الأستاذ الفضيل الورتلاني الجزائري أحد الذين أنجبتهم العروبة مفطورين على حبها ، والذود عن حياضها ، وأحد الذين جندهم الإسلام للريادة والقيادة على سنن أولي العلم والإفادة ، وقد أوفدته الحياة العملية إلى اليمن لشئون اقتصادية لها جم الأثر في تقدم هذا القطر الكريم وتوثيق الصلات العملية بينه وبين مصر ، فاستطاع أن يكتب تقريراً ضافيا مفصلا عن اليمن من النواحي الاجتماعية والاقتصادية » .

ونشرت جريدة « شباب سيدنا محمد » كلمة للأمير مختار الجزائري . . هذا نصها :

« لقد رافقت الأستاذ الورتلاني في مراحل ثلاث من الجهاد في سبيل الجزائر العربية . . وفي جميعها وجدته ذلك المجاهد وفي جميعها كان مثال الأخلاص ومنبع الحماس لقضيتها الحقة ، ولمبادىء التحرر من الأستعمار ! » .

وكلمة اخرى للأستاذ محمد المبارك عميد جمعية الاخوان المسلمين بدمشق يقول فيها :

« إذا عرفتم الفضيل الورتلاني . . عرفتم صفحة من صفحات الجهاد ، في هذا العصر . ! » .

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الجلالة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين أيدكم الله

مولاي أرجو أن تسمحوا جلالتكم أولا أن اتوجه إلى الله جلت قدرته بالدعاء من صميم الفؤاد أن يكافئكم على ما شملتموني به من كريم الأخلاق وغمرتموني به من غالب الثقة التي أجدني معتزا بها من جهة لصدورها من مقام شريف وجليل، ومتخوفا منها من جهة أخرى خشية العجز عن القيام بواجب أداء ثمنها كاملا وما ثمنها إلا عميق الحب وواسع الاحترام ثم النصيحة الكاملة في ادب وحكمة واخلاص ومن لي (يا مولاي) بذلك كله إذا لم يسعفني الله بتوفيقه وتتجاوزوا جلالتكم عن التقصير اسأله تعالى جلت قدرته أن يمدني بروح من عنده حتى استطيع أن اؤدي بعض ذلك الواجب المقدس .

مولاي أمرتم جلالتكم في الرد على خطابي وخطاب الأخ العلامة السيد حسين الكبسي أن أفيد جلالتكم بكل ما يحسن منكم تحريره مع صورة خطاب للحاج محمد سالم والشيخ البنا ونحوهما حسبما نرى لتأمروا بنقل ذلك وكذا كل ما نراه من اسباب الإصلاحات ويكون منا الايضاح الصريح لتأمروا به إن شاء الله وأمرتم في نفس الكتاب الشريف السيد الكبسي أن

يستقصي مني كل ما يلزم ويستحصل كل إيضاح وكذا تحرير صورة المحرر إلى رئيس وزراء مصر كما تكرمتم جلالتكم بتطمينا على كيفية السفر .
وإني يا مولاي إزاء هذه المآثر الجليلة من جلالتكم لشاعر بغبطة كبيرة إذ اتلقى من جلالتكم هذه الأوامر الشريفة وإن كنت أحس بتأخر كبير في صحتي مع بعض اضطراب في ذهني لما وراءنا من المسئوليات في مصر ولكنني أستعين بالله ثم استمد من روح جلالتكم العظيمة على إبداء ما أراه خيراً لمملكتكم السعيدة وشعبكم الكريم وعلى الله التوفيق .

بَلدة طيبَة

يا صاحب الجلالة : بما أن أي اصلاح مادي في الحياة يتوقف على الثروة والمال أحببت أن اتحدث إلى جلالتكم اولا عن ثروة اليمن وقبل ذلك ليسمح لي مولاي أن أتقدم بين يدي التقرير بمقدمة ظاهرها بعيد عن الموضوع وباطنها في صميمه فأقول :

إن ابلغ وصف يا مولاي لبلاد اليمن السعيدة هو الذي جاء به القرآن الكريم الذي انزل على جدنا العظيم صلوات الله وسلامه عليه قال الله جلت قدرته (لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) يا صاحب الأجلة : إن من مميزات كلام الله كما تعلمون الخلود والإعجاز وحظ التذكير لنا في هذه الأيات أنه من ناحية الخلود يؤخذ أن طيبة البلد أمر مستمر إلى يوم القيامة ومن ناحية الإعجاز يؤخذ من كلة (طيبة) عدم قدرة أحد من الخلق أن يصفها بكلمة واحدة مثلها مع شمولها لكل ما تنطوي عليه من خيرات نافعة ثم إنه لولا كثرة ما اودعه الله فيها من المنافع ما جعلها عبادة في كتابه العزيز يتعبد بها إلى يوم القيامة . فكأن الله تعالى وهو أعلم بالمراد يخاطب المسلمين بواسطة كتابه الكريم أن يحتفظوا بهذا البلد الطيب ولو كلفهم ذلك ثمنا غاليا من دمائهم وحياتهم وهذا ما حرصتم عليه جلالتكم في كل ما مضى جزاكم الله عن الإسلام كل خير وكأنه عز وجل في الوقت نفسه يحثهم على المبالغة في

البحث والتنقيب للعثور على ما في هذه التربة من « طيبة » يستعينون بها على إعزاز الجماعة المسلمة لأنه قد قضى بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين وإعلاء كلمة الحق في هذه المعمورة وكأنه يقول أنا اكتفي بوصف البلدة (بالطيبة) وأنا اصدق الواصفين وأكتفي بالإنعام عليكم بعقول مدركة وقد قلت ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ وأجسام كاملة وقد قلت ﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ﴾ وأغريكم على استعمالها في هذه الأرض الطيبة وذلك مصداق قولي ﴿ واشكروا له ﴾ فإن فعلتم فإني قد قضيت ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وإلا فالجزاء من جنس العمل واتلوا إن شئتم نبأ من قبلكم ﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور ﴾ والعلة تدور مع المعلول وجوداً وعدما ولن تجد لسنة الله تبديلا وهنا يبدو من ظاهر الآيات الكريمة أن الخيرات كانت شاملة في هذه البلاد وأن العمران كان عاما ومتصلا مع ثروة ورفاهية ذلك من قوله تعالى : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير ﴾ الآية . . ولم تعد القرى الآن مع الأسف ظاهرة فكثيرا ما يسير المسافر في اليمن الحاضرة عشرات الأميال ولا يقع بصره على قرية ظاهرة وفي الوقت نفسه لولا ما اكرم الله به هذه البلاد من حزم جلالتكم والأخذ بناصية الأمور لما كان هنا من أمن لقلة العمران تبعا لقلة الثروة خلافا لما كانت عليه في الماضي والذي تشير اليه الآية : ﴿ سيروا فيها ليالي وأياما آمنين قالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ ويشتم من (باعد بين أسفارنا) إن القرى كانت متلاصقة فكانت مراحل اسفارهم قريبة فكان الأمن شاملا بسببه ولما أعرضوا عن شكر الله خرب سدودهم وتعطلت زراعة أرضهم فشاع فيهم الجوع فتفرقوا أيدي سبأ والله أعلم .

يا صاحب الجلالة : ليست مهمتي في هذا التقرير أن أفسر القرآن فجلالتكم سيد المفسرين وانما هو الاعتبار بهذا الكتاب الخالد الذي ينادي : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » .

ثروة اليمن الزراعية

لا شك أن التأمل القليل في الآيات السابقة يبعث الاطمئنان في قلب المؤمن على طيبة هذه البلاد واشتمالها على خير كثير والاطمئنان النفسي من طريق الاعتقاد ليس بالأمر الهين في الاقبال على الأعمال العظيمة فلننتقل الآن إلى البحث العلمي ولنبدأ بالزراعة لأهميتها في هذا البلد : يا صاحب الجلالة أنا لست مهندساً زراعياً حتى اسمح لنفسي بالدخول في التفاصيل ولكن تجاربي ومشاهداتي في الحياة ثم وقوفي بنفسي على ارض اليمن كل ذلك يسمح لي بأن أبدي رأيا عاماً في موضوع الزراعة وما يترتب عليه من نفع مباشر وغير مباشر وما تستدعيه اقامتها من وسائل : يبدو لي بناء على ما سمعت ممن عرفوا ارض اليمن ومما شاهدته في طريقي من عدن إلى تعز ومن تعز إلى الحديدة ومن الحديدة إلى صنعاء ثم الأماكن التي زرتها في هذه البلاد أن ٧٥ في المائة من ارض اليمن غير مزروع وأن خمسة وعشرين منها مزروع زراعة ناقصة وأن هذه الارض في مجموعها تصلح لكل نبات معروف في الدنيا وتمتاز بصلاحيتها لبعضها دون اكثر اراضي الدنيا ففي اليمن شجرة البن لو عني بها عناية عظيمة فنية وأكثر منها في الأماكن الصالحة بواسطة قوة الحكومة أو الشركات لكانت وحدها مصدر ثروة للحكومة والشعب على السواء وفي اليمن التنباك مثل البن بالضبط ويمتاز التنباك بأن الحكومات في جميع اقطار الدنيا تحتكره وتستمد منه اكبر نسبة لميزانية الدولة وفي اليمن القطن والديباج فالقطن كما تعلمون يا مولاي يمكن أن يكون اكبر مصدر لثروة البلاد كما هو الشأن في مصر الآن واما الديباج فلقد كنا نسمع به فقط أو نقرأه في الكتب حتى تشرفت بزيارة اليمن السعيدة فرأيت شجرة الديباج العظيمة بعيني وعلمت أنها تنبت من نفسها من غير فعل فاعل فلو تدخل العلم والفن في أمر هاتين الشجرتين لكان لهما في اليمن شأن عظيم . وفي اليمن نبات زيت الخروع الذي يوجد في جميع جبال اليمن وأوديتها ولقد كنا يوما في زيارة

عصيفرة في تعز ومعنا الدكتور حميد الله العالم الهندي ولما وقع بصره على هذا النبات اندهش وأبدى أشد الأسف على اهمال هذا النبات وذكر أنه يعد اكبر مصدر لثروة مملكة حيدر اباد حكومة وشعباً وفي اليمن القناص أو العمق الذي يصلح مادة عظيمة للمطاط الكاوتشوك إذا عني به أدنى عناية وهو بحمد الله منتشر في اكثر جبال اليمن من غير استنبات و (الكاوتشوك) يا مولاي يعد في العصر الحديث كما تعلمون مادة خطيرة بعد مادة البترول حتى أن بعضهم يزعم أن اليابانيين آثروا احتلال جاوا وجزائر اندونيسيا عن احتلال الهند العظيمة لما في الأولى من ثروة الكاوتشوك - وفي اليمن شجرتا الجوز واللوز ولكنهما كغيرهما مهملتان فلو عني بهما لكان منهما ثروة كبيرة وفي تهامة يمكن زرع قصب السكر وإقامة مصنع عليه يدر الملايين على الحكومة والشعب كما يمكن زرع جميع الحبوب في تهامة التي تغل ثلاث مرات في السنة والرابعة علف ويمكن ايجاد عمران في تهامة هذه بالملايين من السكان وفي اليمن اراض تصلح لتربية الغابات والنخيل ومولاي يعلم بركة النخلة التي شبهها الرسول عليه السلام بالمسلم في منافعها واما تربية الغابات من اشجار الخشب فلا تقل منفعتها عن النخلة المباركة إذ منها تبنى الاساطيل البحرية ومنها اعمدة التلغرافات والتلفونات ومنها الموبيليات المختلفة وحاجات البيوت من ابواب وطيقان ونحوها فلقد زعم المؤرخون أن محمد علي باشا والي مصر لم يحارب تركيا إلا للاستيلاء على ما فيها من غابات الأشجار لبناء السفن وغير ذلك ويمكن زرع شجرة الزيتون في اليمن على شرط أن يختار لها اماكن معينة بواسطة الخبراء وأن يوضع لها مشتل خاص بمثل ذلك واليمن لسعة رقعتها واختلاف طقوسها اصلح أرض لتربية المواشي في الجبال والسهول ولو قامت على ذلك شركات برعاية الحكومة تنظم المراعي وتختار اصول الحيوانات وتوزعها على المناطق حسب استعدادها وتقيم لها مبان واسعة لإيوائها وتوظف لها اطباء بيطريين لحفظ صحتها وغير ذلك من اسباب العناية فلو تم ذلك يا مولاي لأمكن كسب الملايين بواسطتها بتصديرها إلى البلاد المحتاجة لا سيما والماشية التي تساوي هنا مائة تساوي في اوروبا أو امريكا مائتين وأزيد هذا كله وأكثر منه

تغله أرض مملكتكم وهي في الوقت نفسه من السعة بحيث تتسع لكل شيء كيفا وكما : اما من حيث الكيف ففيها جميع الطقوس من مناطق حارة إلى مناطق باردة إلى مناطق معتدلة ومن حيث الكم تقدر مساحتها بالملايين من الكيلو مترات المربعة بينما مصر التي يعيش فيها اليوم نحو عشرين مليونا فضلا عن الاجانب مساحتها المزروعة لا تتجاوز ٣١ ألف كيلو مترا مربعا وأقل من ستة ملايين فدان وإن كانت كلها جيدة .

الصناعة الزراعية

يا صاحب الجلالة : من المعروف في جميع اطوار التاريخ أن الزراعة اساس الحياة والعمران فإذا وجدت الزراعة وجدت الصناعة لأنها منها تستمد وإذا وجدت الصناعة وجدت التجارة لأنها منها تستمد وإذا وجدت الزراعة والصناعة والتجارة وجدت الامارة الحقيقية الكالمة ـ : فما ذكرت من انواع الزراعة يمكن اقامة صناعة عظيمة تترتب عليها بالطبيعة تجارة واسعة.من ذلك التنباك يمكن اقامة مصانع للسجائر تدر الذهب على ميزانية الدولة لأن المصطلح عليه في جميع الدول احتكار السجاير للحكومة حتى أنها تأخذ منها احيانا ما لا يقل عن نسبة تسعين في المائة .ومن المواشي يمكن اقامة مصانع لأنواع الألبان للاستهلاك المحلي والتصدير ومن ذلك القطن والديباج يمكن اقامة مصانع للغزل والنسيج تسد فراغ الاستهلاك المحلي ويمكن التصدير إلى الخارج . . وكذلك مصانع الجلود وما يتفرع منها من الجزم والشنطات والمحافظ وغير ذلك ومن قصب السكر مصانع للسكر . . فالسكر في مصر يدر الملايين على الحكومة والشعب.ومن الغابات اقامة مصانع للاخشاب ومن مواد بعض هذه النباتات يمكن اقامة مصانع للصابون الذي هو ضروري للنظافة في هذه الايام .

المناجم

يا صاحب الجلالة : لقد اصبحت المناجم في هذا العصر محل عناية جميع دول العالم لتقدم العلم والحضارة فالعلم استطاع أن يحلل جميع اجزاء الأرض ويستخرج من كل نوع منها منفعة او منافع والحضارة كثرت طلباتها في الحياة فنمت اسباب الضرورة إلى المعادن فاتجهت العناية إلى المناجم بكيفية تشبه الجنون حتى صار من المبررات عند الدول الكبرى احتلال بلاد الناس بسبب وجود المناجم فيها .ولا شك أن جلالتكم تعلمون سبب احتلال المانيا في ايام الحرب لكثير من الدول بهذا المبرر منها رومانيا لوجود البترول فيها ولا يزال النزاع بين الدول على اشده بسبب هذه المناجم من ذلك الخلاف الذي حصل بينهم على ايران وقيام ثورات فيها بإيعاز مكشوف من قبل الحكومات فمن الحزم إذاً أن يضع الانسان لا سيما الضعيف برنامجاً محكماً لاستغلال هذه الثروة الارضية الخطيرة ليسعد بها هو وأمته من جهة وليقطع خط الطمع والاعتداء على الطامعين المعتدين من جهة أخرى

الثروة المعدنية باليمن

يا صاحب الجلالة : إن أرض مملكتكم اليوم من اغنى بقاع الارض في الثروة المعدنية وقد يكون غيرها اغنى منها فيما مضى ولكن بعد امتصاصها عدة قرون اصبحت هزيلة واما ارض اليمن فهي بكر إلى اليوم لم يطأها بحمد الله ورعايتكم انس ولا جان فمن هنا امست محط انظار جميع الطامعين من الأقوام وأن النصيحة الخالصة لتقتضيني أن اصارح جلالتكم في هذا التقرير كما صارحتكم شفويا وتقبلتم مني ذلك بكل اكرام وإمعان ـ اصارحكم بأن المستعمرين لم يؤخرهم عن احتلال مملكة اليمن العزيزة إلا ما شجر بينهم من خلاف ولا يزال قائما إلى اليوم ولكن الاعتماد على دوام الخلاف بينهم مخالف كل المخالفة لأصول المسئولية والحزم فما اسهل أن يتفقوا وما اسرع أن يقرروا تقسيم الغنائم وليس على وجه الارض اليوم غنيمة سمينة وسهلة البتة مثل اليمن . . فيجب يا مولاي أن نقرر مصيرنا بأنفسنا قبل أن يقرره اعداؤنا ومجرد التخوف منهم والابتعاد عنهم إن كان له محل فيما مضى لاعتبارات وقتية فاليوم لا محل له مطلقا ومن الخير كل الخير أن نواجه الحقائق كما هي وأن نعالجها بكل ما يمكن من حكمة وسرعة .

انواع المعادن في اليمن

يا صاحب الجلالة : إن هذا الجسم اليمني الضخم والطيب كما وصفه الله في كتابه الخالد لا بد وأن يكون منطويا على اكثر ما عرفه العلم من انواع المعادن ان شاء الله فمما عرف واستغل فعلا منجم الملح فلقد علمت أن هذا المنجم العظيم كان يغل ما قيمته نحو اربعمائة ألف جنيه ذهبا في كل ستة ايام وهي تساوي اليوم مليونين من الجنيهات الورق وهذه الثروة العظيمة لا تكلف الحكومة من النفقات على استخراجها اكثر من مائة الف جنيه وعلمت أن المنجم من عجائب بركات الله في اليمن لأنه لا ينتهي بالاستغلال ابدا فمهما أخذ منه من الكميات وترك فيه من فراغ فلا يكاد يدور الحول حتى ترجع إلى ما كانت عليه بفعل الإفراز من الجبل ومن فضل الله أن يكون من فوق ذلك كله قائما على البحر ليس بينهما إلا عدة مترات وهذا مما يسهل تصديره كل التسهيل. وفي اليمن بترول تقع عليه العين المجردة فوق سطح الأرض ويقال إن الرعية يأخذون منه للاستصباح والبترول في العصر الحديث يا مولاي اعظم مادة واخطرها في نظر الدول ويتزاحمون عليها حتى لتكاد تنشب حروب من اجله فإذا لم يتقرر مصير بترول اليمن بارادة جلالتكم فيوشك أن تتحول هذه النعمة إلى نقمة لجواز أن تكون سبباً في سرعة الطامعين بالبت في نواياهم السيئة نحو هذه البلاد المباركة ـ وإذا بادرتم إلى تنظيم استغلاله بطرق حكيمة واتفاقات دقيقة كان ذلك من اعظم الأسباب للتخفيف من اطماع الظالمين .

وبهذه المناسبة اسمحوا لي جلالتكم بأن أحذر من عقد اي اتفاق مع الدول الأجنبية إلا بواسطة الخبراء الممتازين من اخوانكم العرب والمسلمين هذا إذ عجزوا هم عن القيام بمثل هذه الأعمال فالاتفاقات بين الدول يفسر كل ما فيها دائما لمصلحة القوي وعند الأجانب اليوم من المرونة في صوغ

الالفاظ واخفاء المعاني ما يبعث على الدهشة واما منفعة البترول لمثل مملكتكم فظاهرة وضرورية لحاجة الدولة إلى ميزانية كبيرة وثابتة وليس عندكم انتم اليوم تقريبا الا العشور وهذا جلالة الملك ابن السعود يقال وقد يكون في ذلك بعض من المبالغة أن حصته من البترول الأمريكي السعودي بلغت في الايام الأخيرة عشرين الف جنيه من الذهب في كل يوم اي مائة الف جنيه من الورق ونحو ستة ملايين ونصف من الجنيهات في السنة ولا نظن أن بلاد نجد أغنى من اليمن بالبترول وفي اليمن الفحم الحجري فإنه يوجد على سطح الارض ويستعمل اليوم في بعض البيوت بصنعاء وغير صنعاء والفحم يا مولاي ثروة لا يستهان بها ومادة من جنس البترول (والكاوتشوك) بالنسبة لاهميته في نظر الدول الكبرى لأن ما في بلادهم قد امتصوا اكثره وحاجتهم اليه ملحة حتى أن فيه بعض الخلافات الخطيرة بينهم بسببه من بين ذلك منطقة السار الالمانية التي لم يتقرر مصيرها إلى الآن ولا تزال المشاكل المعقدة بينهم من أجل الفحم وفي مملكتكم يا مولاي معادن أخرى كالذهب والفضة والحديد والنحاس والكبريت والفسفات وغير ذلك فالاعتناء بمجموعها يحول مملكتكم إلى جنة من جنان الدنيا ثم لا يكلف جلالتكم كل ذلك الا استعمال الحكمة والحزم اللذين عرفتم بهما طول حياتكم والاستعانة باخوانكم المسلمين في علمهم وفنهم وخبرتهم فلقد اصبح اليوم في البلاد الاسلامية لا سيما العربية منها قوة كبيرة منهم كيفاً وكماً والله جل جلاله يأمر المسلمين بالتعاون على البر والتقوى والرسول جعلهم كالبنيان يشد بعضه بعضا صلوات الله وسلامه عليه .

يا صاحب الجلالة : إن الصناعة الصالحة نتيجة طبيعية في هذا العصر للزراعة الصالحة وإذا اضيف اليهما المواد المعدنية التي سبق ذكرها امكن اقامة صناعة عظيمة في اليمن يفتقر اليها اكثر بلاد الدنيا بمرور الزمن ، لطبيعة تأخر المواد الخام في البلاد الأخرى وتفوقها وظهورها في بلدكم الكريمة فيما يمكن البدء به من الآن صناعة الألبان والجلود والصابون والغزل والنسيج والسجاير والكبريت (ومواده الخام موجودة في رداع) والزجاج (ومواده موجودة في حيس من اجود المواد) وصناعة تجفيف الأسماك وحفظها وصناعة الاسمنت الذي تفتقر اليه الدول وصناعة السنابيك والمراكب الشراعية ويمكن صناعة الورق من مادة نبات (الصرمجك) الموجود في اليمن بكثرة واما التجارة فإنها تسير جنبا إلى جنب مع الزراعة والصناعة وكل ذلك مجتمعا يخدم الإمارة المكرمة العظيمة التي يحفظ الاسلام بها عزته الواجبة ، والتي يباهي بها الرسول ﷺ الأمم يوم القيامة .

وهنا استشعر من جلالتكم سؤالاً خطيراً وهو مع خطورته حق لا ريب فيه ، ومضمون السؤال أن كل الذي سبق شرحه من الناحية النظرية لا يختلف اثنان في صوابه وعظيم منفعته في المجموع ولكن الأهم من ذلك أسباب الوصول إلى الحقيقة فما هو السبيل والوسائل لتحقيق ذلك أو بعضه .

الخبرة والجهاز

يا صاحب الجلالة : إن الخبرة في اي عمل من الأعمال هي بمثابة الروح للجسم فكل عمل لا يقوم على خبرة فهو جسم من غير روح لقد قال تعالى ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ كما قال ﴿ فاسأل به خبيرا ﴾ وقال ﷺ كل ميسر لما خلق له ، وقال أنتم اعلم بأمور دنياكم ، وقال إن الله يحب من احدكم إذا عمل عملا أن يتقنه أو كما قال عليه السلام . . فيستنبط من جميع الآيات والأحاديث أن العمل إذا كان غير متقن فلا يباركه الله وإن الإتقان لا يكون إلا بواسطة الخبراء والعارفين كل في ناحية اختصاصه وفنه ، ولقد دل الواقع المحسوس الذي عليه جميع الناس اليوم على صدق ذلك والحمد لله .

يا صاحب الجلالة : إن الخبراء بالنسبة إلى دولة من الدول (صنفان) صنف خبير بشئون الحياة العامة فهؤلاء لم تكونهم في الغالب المدارس والمعاهد والجامعات وإنما يكونهم الزمن واحتكاكهم بأحداثه المختلفة فخير مثال لهم شخص جلالتكم العظيم الذي جمع بين العلم والتجارب - وفي التاريخ الاسلامي امثلة كثيرة لهذا الصنف نذكر على سبيل المثال عبد المؤمن بن علي الجزائري الذي لم يتجاوز طلبه للعلم الكتاب الذي يحفظ القرآن الكريم ولكن الزمن علمه حتى استطاع أن يكون اعظم دولة في القرن السادس الهجري تبتدىء حدودها من مصر وتنتهي في جبال البرانيس في فرنسا : وهذا محمد علي باشا كان امياً ولا يكتب وجلالتكم اعلم بما وصلت اليه دولته من هيبة حتى خشيه الاوروبيون مجتمعين ولا يزال انجاله يتوارثون تلك الآثار إلى اليوم وامثال هذه الشخصيات انما يصلون دائما إلى اغراضهم العظيمة بواسطة الخبراء في الحياة اولا وبالذات ثم بالخبراء بالعلوم والفنون .

فأول ما تتطلبه مملكة جلالتكم يا مولاي فيما أرى خبراء في الحياة العامة مع تحري الاستقامة والإخلاص فيهم إلى اقصى حد ممكن وهم بحمد الله موجودن اليوم في البلاد العربية والاسلامية ولا اظن أنهم يبخلون بالتضحية في سبيل خدمة مملكة جلالتكم مساعدة لأمة شقيقة لهم واستجابة لرغبة امام شريف جليل من اعظم ابناء نبيهم صلوات الله وسلامه عليه .

مهمتهم

ومهمة اولئك الذين سميناهم خبراء في الحياة يا مولاي ـ أن تكلفوهم أولا بوضع نظام كامل لجميع الوزارات التي تحتاج اليها مملكتكم الكريمة ومعلوم يا مولاي أن لا رجاء في نجاح مشروع من المشاريع بغير نظام ثم تكلفوهم بجلب الخبراء في العلوم والفنون فللزراعة مثلاً خبراء بالزراعة وللصناعة خبراء بالصناعة وللمعارف خبراء بالمعارف وللخارجية خبراء بالشؤون الخارجية والدولية وهلم جرا ثم يجب أن تزود هذه الخبرة الحيوية والفنية بجهاز كامل من الموظفين المختصين مع الادوات التي تساعد على سرعة العمل وإتقانه ويقوم على توجيه العمل ومراقبته في كل ذلك وزراء يمنيون تثقون بهم وعلى رأس الجميع اشعة من نور آراء جلالتكم السديدة .

تاسيس مجلس الشورى

وإني أرى من واجبي المقدس الذي استمده من الإخلاص لجلالتكم ان انصح بتأسيس مجلس للشورى لجملة اعتبارات منها :

اولا : تخفيف الاعباء العظيمة الملقاة على عاتق جلالتكم في التدبير والتنفيذ .

ثانيا : اعداد نخبة صالحة من رجالكم النابهين المخلصين لاحتمال المسؤوليات والتبعات فذلك خير سبيل لتربية الرجال والملكات فلقد حفظ الله هذه المملكة طول حياتكم بحسن تدبيركم واعظام الناس لمقامكم وليس عزيزاً عليه أن يحفظها بعد التحاقكم بالرفيق الاعلى (بعد عمر طويل إن شاء الله) بحسن تدبيركم كذلك بمن ترجحونهم من الرجال وتزكونهم من الاشخاص وبما ترسمونه من الخطط السديدة فتبقى منظمة قوية وسليمة جزاء ما بذلتم من جهود عظيمة في سبيل اقامتها وتوحيدها وحمايتها من الظالمين . . . تلك الجهود التي خلدت اسم جلالتكم في تاريخ الأمة الاسلامية .

ثالثا : إن هذا العصر الذي نعيش فيه يا مولاي عصر الشورى فما اكثر دول العالم التي تعتمد الشورى أساساً لنظامها ولسنا في غنى عن مسايرة هذا العالم فيما لا يخالف ديننا لنتوقى شروره وطغيانه وأؤكد لجلالتكم أن عملاً كهذا مع سلامته من أي ضرر سيحدث مظهراً لمملكة جلالتكم يشرح صدور اخوانكم المسلمين في جميع الأقطار ويقلل كثيراً من حجج الطامعين في هذه الأرض الطاهرة .

رابعا : سيحدث أعظم وقع في نفوس رعيتكم المخلصين يزداد به حبها لجلالتكم ولبيتكم الكريم والأخذ بالخواطر من سنن جدكم المصطفى صلوات الله عليه .

خامساً: لعله من الخير لشخص جلالتكم أن تلقوا ربكم ولستم وحدكم المسئولين عن هذه الامة بل أشركتم معكم اهل العلم والفضل بمقتضى قول الله - وشاورهم في الأمر - وأمرهم شورى بينهم - واتباعا لسنة جدكم العظيم فلقد كان يستشير دائما وينزل احيانا على رأي الأكثرية - ولو كان رأيه معارضا - إذا لم يكن عن وحي - وقد حصل ذلك حينما رأى أكثر الصحابة الخروج في غزوة (أحد) وما خاب من استشار ونسأل الله وسعت رحمته أن يوجه جلالتكم ببركة ماضي جهادكم العظيم وحسن قصدكم القويم إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة فعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

يا صاحب الجلالة : ربما بدا لجلالتكم أن القيام بكل هذا الذي ذكرناه أمر متعذر إن لم يكن معجزا ولكن شيئا من همة وعزم جلالتكم الذي عرفتم بها يهون الأمر كثيرا هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن كل الذي ذكرناه لا يمكن أن يتم طفرة وفي وقت واحد انما يجب أن يسير على سنة التدريج وتقديم الأهم على المهم . ومن أهم ما يجب القيام به قبل كل شيء في نظري ايجاد تمثيل سياسي وقنصلي مع الدول العربية ويكفي في الاول ايجاد تمثيل في القاهرة فقط ويستطيع الوزير المفوض الذي يمثل جلالتكم في مصر أن يمثلكم هو نفسه لدى سوريا ولبنان والعراق وغيرها لوقوع القاهرة في قلب هذه البلاد جميعا بل يستطيع ذلك الممثل أن يدرس لجلالتكم شئون أوروبا وأمريكا وهو في القاهرة لوجود ممثلين لهذه الدول وشركات وجاليات فالتكاليف تكون قليلة والمنفعة واسعة فلقد كان صاحب الدولة جميل مردم بك ممثلا لسوريا في مصر وممثلا لها في الوقت نفسه لدى جلالة الملك ابن سعود وكذلك معالي السيد محمد صادق المجددي يمثل مملكة الأفغان لدى الاثنين ويمكن أن يكون بجانب الوزير قنصل يهتم بالأمور الاقتصادية وبرعايا جلالتكم في الخارج والجالية اليمنية في الخارج كثيرة ويقدرها بعضهم بنصف مليون والبعض الآخر بمليون وقد عرفوا بالنشاط والذكاء وكثرة الاحتمال فمملكة جلالتكم احق بذلك كله في المستقبل لحاجتها إلى أيدي عاملة كثيرة ولا يتم تنظيمهم ووصل ارواحهم من جديد بمسقط رأسهم وعزيز وطنهم إلا بالنظام القنصلي ـ ويمكن لجلالتكم أن تكلفوا في البلاد الاوروبية كفرنسا وبريطانيا قناصل الدول العربية مثل مصر وسوريا والعراق فإنهم لا يتأخرون عن خدمتكم فيما أعرف من غير ادنى مقابل .

المواصلات

يا صاحب الجلالة : إن العارفين مجمعون على أن المواصلات في هذا العصر بمثابة الشرايين في الجسم من غير الشرايين لا يجري الدم ومن غير جريان الدم لا تكون الحياة البتة وكل الذي تعرضنا له من مشروعات الزراعة والصناعة والتجارة والمناجم والادارة انما هي بمثابة الدم ولا يمكن أن يجري الدم فيتصل بعضها ببعض وتكون الحياة الطيبة الا بشرايين المواصلات وحتى الامن العام يا مولاي لا يمكن استتبابه وضمانه من غير المواصلات فالمملكة التي لا تتوفر فيها المواصلات محتاجة إلى مئات الآلاف من الجنود لحفظ الأمن العام بينما غيرها يحتاج إلى أقل من عشرات وتكون الأخيرة أقرب إلى السلامة من الاولى . . على أن المواصلات نفسها لا يمكن اقامتها طفرة فهي كغيرها تخضع لسنة التدريج ولكن بما أن جميع الاعمال متوقفة عليها حتى الخبراء بنوعيهم لا يتيسر استقدامهم بسهولة إلا بتيسير المواصلات . . وأول نوع من المواصلات يجب ايجاده من اليوم الطيران لبعد مملكة جلالتكم عن الممالك العربية والاسلامية وسعة رقعتها في الداخل فمن الضروري فتح خط جوي إلى الخارج سواء كان بواسطة حكومتكم أو بواسطة السماح لشركات اخرى بالنزول في المدن المهمة كالحديدة وصنعاء ولتكن هذه الشركات عربية كمصرية أو سورية أو عراقية أو اردنية أو غيرها . ويحسن ايجاد طيران محلي ولو مرتين في الاسبوع ولو بطائرة واحدة لقضاء مصالح الحكومة المستعجلة ولتيسير اسباب الانتقال للخبراء الذين تحتاج البلاد إلى دراستهم ولإيجاد هيبة للدولة في نفوس العامة وأقترح تعميم اللاسلكي في البلاد فإن المحطات الفرعية يا مولاي لا تكلف إلا ثمنا زهيداً ويمكن ايجاد محطة في كل مركز ويقال إن جلالة ابن سعود يملك اكثر من ثلثمائة محطة فرعية ويستطيع أن يتصل بجميع اطراف المملكة في أي ساعة فيصدر أوامره عليها ويتلقى التقارير

وما اشبه ذلك . ومن الخير أن تأمروا باستعمال الاذاعة في المحطة الموجودة الآن بصنعاء ويكون كل ما يذاع تحت اشراف الحكومة فيكون في ذلك اكثر من منفعة واحدة .

أولا : تذيعون كل ما تريدون من الأخبار الصحيحة على العالم الخارجي والرعية في الداخل فنقطع السنة المتقولين عليكم .

ثانيا : تذيعون من المسليات ما يتفق مع الدين والاخلاق من القرآن الكريم والاناشيد الاخلاقية النافعة وغير ذلك بدل أن يهتم بعض افراد رعيتكم بالاستماع إلى الطيب والخبيث من مجون الخارج .

ثالثا : يكون في ذلك ايراد كبير من الضرائب على أجهزة الراديو لخزينة الحكومة ويا حبذا لو يتم مد اسلاك التليفون ولو بعد حين .

العلم

يا صاحب الجلالة : لقد تفضلتم في احدى الجلسات التاريخية العظيمة التي شرفتموني بها بعدما تفضلتم بالاستماع طويلا إلى خادمكم هذا واقتنعتم بما عرضه على مسامعكم الشريفة ـ قلتم جلالتكم لقد عرفنا الداء الآن وعرفنا الدواء فماذا بعده ؟ قلت لجلالتكم في كلمة واحدة ـ العلم ـ العلم في كل شيء العلم اولا بديننا علماً صحيحاً والعلم في الزراعة في الصناعة في التجارة في الميكانيك في الكون بجميع اجزائه والعلم بكل شيء .

قلتم جلالتكم نريد البدء بالعمل في سرعة كيف ذلك ؟ قلت ارسال البعثات إلى البلاد الاسلامية وجلب المدرسين منها إلى اليمن لكل انواع العلوم قلتم إذا لم يكف في ذلك اخواننا المسلمون فما هو الرأي في الآخرين ؟ قلت لجلالتكم إذا لم يكف المسلمون يجب الاستعانة بهم واستخدام علومهم في كل شيء مع الحكمة التامة فإن من الحكمة والعزم أن نستعين على دفع شرورهم واضرارهم بنفس علومهم ولا ازال يا مولاي على قولي إن العلم هو اساس كل شيء وروح كل جسم لقد قال تعالى : ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ ﴿ انما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ولقد كان جدكم العظيم صلوات الله عليه يتعامل مع المشركين في اخطر الامور عند اللزوم ويستعين بعلومهم فلقد حالفهم محالفة حربية كما تعلمون جلالتكم وانجدهم حين استنجدوه وفك اسر بعض المشركين في مقابل تعليم ابناء المسلمين الانصار القراءة والكتابة وخدمه شاب يهودي ولم يسلم إلا وهو على فراش النزع ، وتوفي ودرعه عند يهودي مرهون في ثلاثين صاعاً من شعير واخيرا هو الذي يقول الحكمة ضالة المؤمن فاينما وجدها فهو احق بها

مما يمكن البدء به يا مولاي حالا استئجار بيت كبير في القاهرة يسمى بيت اليمن كما فعلت حكومة المغرب وحكومة سوريا والحكومة السعودية تبعثون بأكبر عدد ممكن من خيرة ابنائكم يجتمعون فيها ويكون عليهم مراقب من خيرة من ترضونه جلالتكم دينا وأخلاقاً ومعه مساعدون يشرفون على ادارتهم ويمكن توزيعهم على المعاهد المختلفة من زراعية وتجارية وميكانيكية وغزل ونسيج وغيرها فبذلك تضمنون تحصيل العلوم النافعة مع المحافظة التامة على الدين والأخلاق - وفي مصر يا مولاي كما شرحت لكم ذلك شفويا من أهل العلم والتقى والصلاح شيوخ وشبان ممن يباهي بهم جدكم العظيم عليه السلام الأمم يوم القيامة فيمكن بعد المراقبة اللازمة أن تطمئنوا كل الاطمئنان في ايجاد بعثة علمية في مصر لجلالتكم هذه البعثة ينبغي أن تجلب لليمن مدرسين في جميع فروع العلوم لا سيما الزراعة يختارون بواسطة شخصيات مؤتمنة مع الاستعانة بالحكومة المحلية وليكن تنفيذ ذلك بالتدريج وعلى حسب الإمكان .

المال والرجال

يا صاحب الجلالة : يقول العارفون إن المال هو عصب الحياة ، ولكن الذي يصنع المال هم الرجال فأين المال والرجال ؟ الجواب أن في مملكتكم مالا ورجالا فأما المال ففي ما وصفناه من سطح ارض مملكتكم وبطنها وأما الرجال ففي اليمن من الرجولة ذكاء خارق واحتمال وصبر نادر وقناعة متناهية ، وانما كلاهما لا يزال « حقاً » مادة خاماً يحتاج إلى تحويل فبمن يكون البدء ؟

استعداد البلاد العربية للتعاون

يا صاحب الجلالة : إن ارض جلالتكم كلها كنوز وإن اذهان رجالكم كلها كنوز انما تحتاج إلى استخراج واستعمال فلأجل البدء باستخراجها يجب أن تنفق حكومتكم بكل سخاء وجرأة لأن كل ريال تنفقونه يأتي بعشرة وقد يأتي بمائة وقد يأتي بألف وما دام انفاق ما ادخرتموه جلالتكم بحسن تدبيركم وعفافكم مصلحة عظمى لشعبكم ولبيت المال نفسها فالله تعالى لا يطالبكم بادخاره إلى وقت آخر مع أن الشروع في هذه الإصلاحات يرجى أن يأتي بايرادات عظيمة في اول عام وهنا اشعر بامانة في عنقي يجب أن أؤديها وهو علمي اليقين بما يحمله اخوانكم العرب من حب وعطف لمملكتكم الكريمة وما لديهم من استعداد لمساعدتكم بكل همة واخلاص غير منتظرين من وراء ذلك الا وجه الله الكريم حتى يروا هذه المملكة الشقيقة سعيدة مهيبة .

ففي البلاد العربية رجال علماء اكفاء اتقياء من كل طبقة من الطبقات تجدون من مجموعتهم ما تشاؤون. للاستعانة ببناء هذه النهضة المباركة وفي البلاد العربية اموال كثيرة ايضا يمكن الاستعانة بها بواسطة الشركات المساهمة ـ اضرب لجلالتكم مثلا عمليا على كثرة الاموال في مصر فهناك شركة الحرير الصناعي ارادت في السنة الماضية أن تزيد رأس مالها للتوسع في العمل فقررت زيادة مليون ونصف مليون جنيها فاكتتب اعضاؤ ها البارزون بنصفها وطرحوا على الناس للمساهمة ثلاثة ارباع المليون ففي ظرف يومين اثنين تقدم اليها ثلاثة وعشرون مليونا حتى اضطرت أن ترد على الناس اموالهم فهذه الأموال وهي عربية اسلامية يمكن استخدامها في اليمن ولكن يا مولاي على شروط ـ يجب في المقدمة أن يوجد عندكم نظام يحمي اموال الناس وقانون للتجارة يسير عليه المتعاملون فإذا تم هذا وهو ما يجب أن يكون لعدم امكان اي تعامل مع الخارج إلا به إذا تم ذلك عمل جلب الأموال وتعميم

الاصلاح والرخاء للشعب ، والثروة الطائلة للحكومة وإن عطف جلالتكم وتشجيعكم العظيم للشركة اليمانية لأقوى وسيلة لتطمين النفوس جزاكم الله عن المسلمين كل خير .

اعتذار

يا صاحب الجلالة : لقد قمت بوضع هذا التقرير في وقت سريع وفي حالة مضطربة فاخواننا التجار يترددون علي اثناء الكتابة طالعين نازلين لأجل اتمام عمل الشركة ، وصحتي متأخرة وبالي مشوش لما سبق أن افضيت به لجلالتكم من مسؤوليات كبيرة في مصر وقد فعلت ذلك في مثل هذه الاحوال طاعة لأمر جلالتكم الكريم فإن كان فيه شيء من التوفيق فمستمد من روح جلالتكم وما غمرتموني به من عطف وثقة وأما ما فيه من النقص فمرجعه إلى قصور خادمكم وإلى الأسباب المتقدمة والتقرير في الوقت نفسه عرض عام فإن امرتم جلالتكم بأي ايضاح أو تفسير فخادمكم تحت أمركم في كل حين .



الخلاصة

يا صاحب الجلالة : إن هذه المشرعات الكبيرة التي تعرضنا لها يحتاج تحقيقها إلى زمن طويل انما هي ضرورية جميعاً لتكميل بعضها بعضا مثل الأعضاء بالنسبة إلى الجسم ولكن لكل شيء بداية وأرى البداية كما يلي .

١ ـ ايجاد خط جوي للمواصلات بين اليمن والبلاد العربية .

٢ ـ استدعاء جماعة ممتازة بقدر الامكان من المستشارين العموميين الذين سميناهم « الخبراء في الحياة » وتوظيفهم في الحكومة اليمنية لمدة مع وضعهم في الاوضاع اللائقة بأمثالهم كمستشارين .

٣ ـ بواسطة المستشارين العموميين يمكن استدعاء خبراء فنيين وموظفين ضروريين وبواسطة الآخرين مع توجيه الأولين يمكن إقامة جهاز اداري ثابت ونظام كامل مستقر .

٤ ـ بهذا الجهاز الذي يكمل بعضه بعضاً تحت اشراف وزراء يمنيين مسئولين لدى جلالتكم يمكن دراسة جميع المشروعات السابقة دراسة فنية كاملة فكلما انتهوا من قتل مشروع بحثاً واستكملوا مراحل تنفيذه مع الوسائل عرضوه على جلالتكم لتأمروا بالموافقة أو غيرها .

٥ ـ تعيين وزير مفوض في القاهرة « وقنصل » لضرورة وجود واسطة ثابتة

مسئولة بين الحكومة اليمنية والخارج .

٦ ـ يمكن بعد ذلك أن تأمروا بايجاد مجلس شورى يمني إن رأيتم ذلك صالحاً يدرس الأمور السابقة بعد ما يضعها الخبراء ثم يعرضها على جلالتكم للتصديق .

هذا ما امكن عرضه على جلالتكم الآن والرجاء عدم المؤاخذة ثم اكرر شكري الجزيل لمقامكم الشريف سائلا المولى جلت قدرته أن يبارك في حياتكم وأن يجري كل خير على يديكم وأن يجعلكم مصدر سعادة للشعب اليمني وللعربي وللاسلامي وأن يقر عينكم بأنجالكم السيوف وصلى الله وسلم على جدكم العظيم وعلى آله الكرام ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ذَلِكَ هوَ التقريرِ



ذلك هو التقرير الذي وضعه المجاهد السيد الفضيل الورتلاني عن العربية السعيدة بأمر من جلالة الإمام ونشرته عدة صحف في العالم العربي ، مقتضبة اياه بعض الاقتضاب ومن بينها جريدة « الإخوان المسلمون » في مصر . . التي قدمته إلى قرائها بكلمة سامية لفضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين الشيخ حسن البناء . . نوه فيها باليمن والفضيل وتقرير الفضيل . . وهذا نصها :

« قرأنا عن اليمن الخضراء السعيدة مهد الحضارات ومنبع كثير من المدنيات . وسمعنا قول الرسول الكريم ﷺ : « الايمان يمان والحكمة يمانية » وقوله : « إني لأشم نفس الرحمن من اليمن » فأحببت اليمن حبا جما . أحببنا أرضها وسماءها وأهلها وشعبها وحكومتها وإمامها واهتممنا بكل ما يتصل بها وزادنا بها تعلقا ولها اهتماما أنها البقعة من الأرض التي لم تصل إلى قلبها يد الاستعمار بعد وإن احاطت بجوانبها واشرأبت الأعناق بعد ذلك إلى ظاهرها وخافيها وأنها تعلن استمساكها بكتاب الله نظاماً شاملا وتنفر من كل ما عداه وتعده سرابا خادعا باطلا » .

« كل هذه المعاني جعلت اليمن عزيزة علينا غالية لدينا يهمنا من أمرها ما يهم الساكنين فيها والقاطنين بها ورجونا لليمن ـ وقد اكتملت لها كل عناصر

الحياة والقوة والسعادة من خصوبة ارض ومناسبة موقع وكثرة خيرات وتراكم ثمرات ومن شعب مؤمن صابر قوي شجاع عربي أبي ومن فطرة سليمة نقية قوية ـ أن تساير ركب الحياة وأن تسابق الأمم والشعوب في مضمار التقدم والنهوض الأدبي والمادي معاً » .

« حتى أتاحت الفرص والظروف لصديقنا السيد الفضيل الورتلاني أن يزور اليمن مع زميل كريم هو الاستاذ احمد بك فخري بموافقة الرجل المسلم العامل الاقتصادي الموفق الحاج سالم سالم في مهمة اقتصادية اصلاحية نأمل أن يكون لها في حياة اليمن المستقبلة اجمل الاثر إن شاء الله » .

« وهيأت هذه الزيارة للسيد الفضيل أن يلتقي مرات كثيرة بكثير من رجالات اليمن ثم بسمو الامير سيف الاسلام احمد ثم تشرف بعد ذلك مرات كثيرة ايضا بلقاء جلالة الإمام والتحدث إلى جلالته في صراحة تامة ووضوح كامل عن كثير من معاني الاصلاح الأدبي والمادي للبلاد » .

« وكان للسيد الفضيل من اخلاصه ويقينه وايمانه ودينه وغيرته على المصلحة العامة للشعوب الاسلامية والأمم العربية وخبرته الطويلة بهذه الشؤون مع انفساح صدر الإمام ايده الله لسماع قوله وشموله ببره وعطفه وجميل نظره ما شجعه على أن يعالج كثيراً من المسائل الشائكة وأن يضع بين يدي جلالة الإمام صورة لما يجب أن يكون عليه الامر مفصلة واضحة وأن يسجل ذلك في تقرير تحريري تشرف برفعه إلى الإمام المنصور ليكون محل النظر والتنفيذ إن شاء الله » .

« وإن العالم العربي والاسلامي ليتوجه إلى جلالة الإمام المعظم وكله امل ورجاء في أن يسرع جلالته مؤيدا مشكورا في إقرار النواحي الاصلاحية الادارية والاقتصادية والاجتماعية التي تنهض بشعبه وتعود بالخير على البلاد والعباد حتى لا يدع ثغرة ينفذ منها الاستعمار الاجنبي إلى هذه الاوطان العزيزة . وبخاصة في هذا الوقت الذي تفتحت فيه اعين الدول الطامعة واتجه نشاطها إلى القضاء على ما بقي للعرب والمسلمين من حرية واستقلال » .

« وفق الله ملوك العرب وأئمة المسلمين إلى النهوض بأممهم والعمل على ما فيه خير شعوبهم وبلادهم وأيدهم بروح منه إنه نعم المولى ونعم النصير والله اكبر ولله الحمد » .

حسن البناء

١٦ رمضان ١٣٦٦ - ٣ أغسطس ١٩٤٧



الانقلاب الاخير في اليمن

